
أحمد موسى
القصر
دار ليلى

القصـر

أحمد موسى

دار ليلى للنشر والتوزيع

الكتاب:
القصر
المؤلف:
أحمد موسى
الغلاف
دار ليلى
التنفيذ الفني:
أ. حسام سليمان
التدقيق اللغوي:
أ. عماد غزير
• • •
إدارة التوزيع:
أ. عبد الله شلبي
الإشراف العام:
أ. محمد سامي
• • •

رقم الإيداع: 2010/13498

الترقيم الدولي: 2-11-6386-977-978

المهندسين — 23 شارع السودان- تقاطع مصدق — الدور الرابع- مكتب 11
هاتف: (002)(02)333700 - (002)(012)3885295
الموقع: www.darlila.com • البريد الإليكتروني: mail@darlila.com

أحمد موسى

القصـــر

دار ليلى للنشر والتوزيع

الإهداء..

إلى أبي وأمي... " رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا"

أحداث هذه الرواية من نسج الخيال وأي تشابه قد يتواجد فيها هو من قبيل الحبكة الدرامية، وأي تشابه في الشخصيات فهو محض صدفة غير مقصودة..

1

اسمي يحيى عبد القوي، ولدت بإحدى قرى مديرية الشرقية عام 1940 قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها وتخرج منها الولايات المحتدة الأمريكية كقوة أولى بعد أن استخدمت سلاحاً فتاكاً لم تعرف الإنسانية أبشع منه حتى اليوم..

لم يكن والدي من أعيان القرية ولكنه كان ميسور الحال بحكم عملة موظفاً بمكتب وكيل وزارة المعارف العمومية بالمديرية.. وبفضل راتبه الشهري الذي يكفينا وبعض منتجات حديقة صغيرة تحيط بالمنزل تمدنا بالخضروات وبعض الفاكهة وكذلك مزرعة طيور لا بأس بها تتولى أمي إدارتها، كنا لا نجد صعوبة في أن نجلس أحياناً وبين وجهاء القوم دون شعور بالدونية وكنا نتوه أحياناً بينهم.. كان أبي يؤمن بأن التعليم هو الوسيلة الوحيدة لكي يحقق المرء المرتبة الاجتماعية التي يحلم بها وازداد اقتناعاً بذلك بعد عمله بمكتب وكيل وزارة المعارف لمنطقة الدلتا واحتكاكه بكبار الموظفين ومنهم الحاصل على الشهادات الجامعية وخصوصاً كلية الآداب والحقوق.. وكان يتمنى أن يرى أحد أبنائه موظفا ذي حيثية بوزارة المعارف وأن يرى الآخر قاضيا يتكلم فينصت إليه

الجميع ويحكم فلا يعقب على حكمه أحد.. وكثيراً ما تحدث معي حول تلك الأمنية في أن يراني قاضياً ولا أدري لماذا اختارني أنا دون أخي الأكبر لتلك المهنة، وكان يحاول أن يزرع بذور ذلك الحلم الذي كان يراوده في وجداني.. كنت أستمع إليه وأهز رأسي دون أن يعني ذلك رفضاً أو قبولاً وأقول في نفسي لم لا؟.. وأذكر أحياناً أنني كنت أحاول القيام بدور القاضي أثناء فترة غياب المدرس عن الفصل أو بعد انصراف التلاميذ كلهم وأصبح وحيداً في الفصل فإذا بي أجلس على مقعد المدرس ثم أمسك بالمسطرة وأدق بها على مكتبه بشكل منتظم كما لو كانت مطرقة القاضي، وأتخيل أن القاعة ممتلئة عن آخرها بالناس وأنهم كلهم ينصتون إلي ويترقبون الحكم الذي سوف أصدره بشأن ذلك المجرم الواقف في قفص الاتهام..

ما زلت أذكر جيداً بعض أيام المدرسة الابتدائية التي كنت أسير إليها حوالي عشر دقائق من المنزل.. في السنوات الأولى كان يصطحبني أخي الأكبر الذي كان ما زال بالمدرسة ويكبرني بثلاثة أعوام، ثم تعودت بعد ذلك أن أذهب وأرجع بمفردي حتى وهو معي بالمدرسة.. كانت المدرسة مشتركة لم يكن هناك غيرها بالقرية وكان ذلك أمراً عادياً أن نجلس أولاداً وبنات في نفس الفصل، وإن كانت البنات يفضلن أن يجلس معاً على مقاعد منفصلة بعيداً عن الأولاد..

أذكر بعضهم وبعضهن، وأتساءل: أين هم الآن؟؟؟

كان مالك عثمان من السودان ويقيم بحكم عمل والده بمصر، ولم يكن هناك فروق بيننا سوى لون البشرة الداكن الذي كان أحيانا مثار تعليق من بعض

التلاميذ ذوي البشرة البيضاء.. وعندما حكيت ذلك لوالدي تعليق التلاميذ على لون "مالك" الأسمر كان رده الذي لم أتيقنه حينذاك وإن كنت فهمت معناه فيما بعد: هم صحيح لونهم أسود ولكن قلوبهم بيضاء..

أتذكر ناظرة المدرسة أو "الست الناظرة" كما كان يطلق عليها.. كانت امرأة لا تضحك أو تبتسم أبداً ومع ذلك فقد كان والدي معجباً بشخصيتها وكان يراها أحياناً بمكتب وكيل الإدارة إذا ما ذهبت لحضور أحد اجتماعات النظار مع الوكيل العام.. كان يقول لي إن مدرستها من أفضل المدارس علماً وإدارة على مستوى الإدارة التعليمية ورغم أنها امرأة إلا أنها أصبحت ناظرة مدرسة وذلك لحرصها على التعليم.. أما أنا فكنت مهتماً بابنة الناظرة.. كان والدي يكلمني عن الناظرة فأجد نفسي متخيلا ابنتها (أماني) والتي كانت زميلتي في الفصل تقف أمامي.. كانت تجلس في الصف الأول طبعا وكنت أنا في الصف الثالث من الجهة المقابلة وكان ذلك يسمح لي أن أختلس النظر إليها دون أن يضبطني أحد.. كنت دون العاشرة أي ما زلت في مرحلة الطفولة البريئة ومع ذلك كان هناك دفق من المشاعر يكاد يفضحني أحياناً إذا التقت الأعين أو تلامست الأيدي دون قصد.. أكثر ما شدني إليها هو ذلك التناقض الواضح بينها وبين أمها.. كانت أماني مبتسمة دائماً وكثيراً ما تضحك عندما تقوم "هدى" زميلتها بنفس المقعد بمداعبتها بيديها بشكل يجعلها تتثنى وتنطلق ضاحكة رغماً عنها وأشعر حينذاك بأن أجمل ما في الحياة هو الضحك حتى لو كان خافتاً أو تجسد في شكل ابتسامة..

لن أنسى أبداً تلكما الضفيرتين، الصغيرتين اللتين تم تشكيلهما بعناية، وتنتهي كل واحدة منهما بقطعة قماش بيضاء على شكل وردة صغيرة.. وأحياناً تأتي بضفيرة واحدة تتولى من منتصف شعرها بدلاً من اثنتين على جانبي عنقها.. كنت أتعجب في تلك السن المبكرة كيف يمكن أن تصبح الضفيرة في المنتصف اثنتان على الجانبين.. أحياناً كنت أود أن أسألها ولكن لم أجرؤ أبداً على ذلك..

في تلك المرحلة كنت من المتفوقين في الفصل أو من الشطار كما يقول المدرسون.. كنت أشعر بالفرح لذلك وتنظر عيناي إلي أسفل إذا قال لي المدرس ذلك في الفصل أمام جميع التلاميذ.. وكانت نتيجة تفوقي وهدوئي أن المدرسين كانوا يختارونني أن أتواجد بدلاً منهم في غيابهم أو خروجهم لشرب الشاي أو الثرثرة مع بعضهم أحياناً وخصوصاً مع المدرسات، وذلك إذا كانت "ست الناظرة" غير موجودة بالمدرسة.. كنت بلغة الكتاب "عريفاً" أو "ألفة" بلغة المدارس.. أقف بجوار السبورة خلف مقعد المدرس دون أن أجلس عليه ممسكاً بإصبع الطباشير كي أكون مستعداً لكتابة اسم التلميذ الذي يحدث ضوضاء أو يعاكس زميله بشكل يؤدي إلى الاشتباك بينهم بالأيدي أو بالمساطر. وبالطبع كنت أدون بعض الأسماء على السبورة وخصوصاً دائمي الشغب.. كان بعضهم يغتاظ مني لدرجة أن يقول "طيب والله لأضربك بعد الخروج من المدرسة" ومع أني لم أكن من هؤلاء المستعدين للاشتباك بالأيدي أو التراشق بالألفاظ إلا أنني لم أكن أهاب تهديدهم لأن أخي الأكبر كان بالمدرسة، وكان مسؤولاً عن فريق الكشافة.. باختصار كنت أحتمي به

وكان الجميع يرهبه لأنه كان المسؤول عن طابور الصباح..

كان من الممكن أن اكتب اسم أي تلميذ مشاغب على السبورة.. لم يكن هناك اسم يستعصي علي.. كل الأسماء كان من الممكن أن تنتقل من الكراسات إلى السبورة في حالة الشغب حيث كنت أحفظ أسماء الأولاد والبنات كلها.. على الأقل الاسم الأول لكل منهم.. إلا اسمها هي رغم أني كنت أعرفه جيداً وما زلت أذكره حتى الآن، إلا أني لم أكن أجرؤ أن أكتبه على السبورة ليس لأنها ابنة الناظرة فأنا لا أذكر أنني سمعتها يوماً ما تقول ذلك لأحد.. فقط لأنها مختلفة عن باقي البنات.. لا أدري هل كان وجهها وشعرها المتناسق والذي يوحي بأنه كان يجد رعاية كافية بالمنزل قبل ذهابها إلي المدرسة أم تلك العينان اللتان لم أكن أجرؤ على النظر إليهما إذا ما حدث أن التقينا.. كنت أتحدث مع الجميع أولاداً وبنات دون شعور بارتباك أو خوف.. أما معها فقد كان الحديث ينتهي قبل أن يبدأ.. أمامها كانت تذوب الكلمات قبل أن تغادر شفتي.. ذات مرة كانت تتشاجر مع زميلتها هدى، وكنت أنا واقفاً بدلاً من المدرس، فلما علا صوتهما نظرت إليهما عسى أن تتوقفا أو تهدآ، ولكن يبدو أنهما كانا في وسط الشجار أو المزاح فلما يلحظاني وأنا أنظر إليهما.. استدرت إلى السبورة وكتبت اسميهما.. ثم نظرت إليهما وقد هدأتا وأخذتا تنظران إلى الأسماء المكتوبة وهما لا تصدقان أن اسميهما يزينان المكان.. وإذا بهدى تأخذ زمام المبادرة وتغادر مقعدها وتتجه بثبات إلي حيث أقف وتمسح بيدها اسمها واسم صديقتها "أماني".. وإذا بي أكتب الاسمين مرة ثانية دون أن أفكر في ذلك كثيراً.. أهو نوع من التحدي أم هو حفظ لهيبتي

أمام باقي التلاميذ وخصوصاً أن أحد الاسمين هو اسم بنت الناظرة..

نظرت إليهما وقد جلستا في هدوء تحدقان إلي كأنهما لا تصدقان أنني قادر على فعل ذلك.. ولأول مرة أجد نفسي أنظر إليها وقد واتتني جرأة غريبة كفارس دخل غمار المعركة فأدرك أنه يجب أن يتقدم فقد تكون هي فرصته الوحيدة ليثبت لنفسه أنه جدير بهذا اللقب، وإذا بها هي أيضاً تنظر إلي في جرأة غير عادية وبعينين أدركت ساعتها أنها هي سر جمالها، وأن تلك الضفائر ما هي إلا محسنات بديعية لقصيدة جميلة تتمحور حول عينيها قبل أن تتناثر كلماتها كقطرات الندى حول صفحة وجهها المشرق سواء أبزغت الشمس أم ظلت في مخدعها..

قرأت في عينيها عتاباً لأني كتبت اسمها من بين المشاغبين.. قرأت فيها سؤالاً: لِمَ لم تطلب مني أن أسكت كتحذير قبل أن تكتب اسمي كما تفعل مع الآخرين؟ قالت لي عيناها: أنا فعلاً أخطأت وعلا صوتي ولكن هذه هي أول مرة، أما كان أن تسامحني.. رأيت فيهما أن كل مظاهر الجمال التي نتباهى بها نحن البشر والتي تكون من صنع أيدينا تتضاءل وتذوي أمام صنعة الخالق..

لا أدري كيف أمضيت بقية النهار في المدرسة ولكن عند عودتي للمنزل وبعد تناول الغداء ذهبت مباشرة إلي حديقة المنزل الصغيرة حتى أكون بمفردي.. احتميت بشجرة موز كانت بعض ثمارها قد بدأت رحلتها للحياة في مشوار قد تدري مقداره، بينما نحن البشر الذين ميزنا الله بنعمة العقل لا نستطيع أن نتكهن بطول الطريق.. من يدري قد تكون تلك هي إحدى نعم الله التي

لا نستطيع أن نحصيها.. أغلقت عيني بينما امتدت أوراق الشجرة فوق رأسي تحميني من أشعة الشمس.. واستطاع عقلي الصغير أن يسترجع أحداث اليوم التي كانت لا تزال تدور داخله تبعث لها عن مكان تستقر فيه.. هل تذهب إلى ذلك الجزء من المخ الذي يخزن الذكريات.. حلوها ومرها إلى أن تحين لحظة الاسترجاع.. أم تنطلق إلى تلك الخلايا التي تتلاشى مع الوقت وتذهب بكل محتوياتها إلى غياهب النسيان.. لا أدري كم مكثت في ظل الشجرة ولكن انتبهت على صوت أمي:- ألا يوجد واجب اليوم؟.. رددت وأنا ما زلت أسبح في عالمي الخاص: طبعاً في.. لكن قليل..

* * *

في السنة السادسة قرر والدي أن ينقلني إلى مدرسة أخرى في قلب المدينة وهي في رأيه أفضل من مدرستي حتى أستطيع أن أتأهل إلى المرحلة الإعدادية دون مشاكل.. كان علي أن أترك خمس سنوات هي من أجمل سنوات عمري وتمثل لي نهاية مرحلة الطفولة البريئة وإن تخللها بعض سهام مرحلة المراهقة ولكنها كانت من النوع الرقيق الذي يكتفي بدغدغة المشاعر دون أن يدميها.. في اليوم الأول في مدرستي الجديدة شعرت فعلاً أنني غريب وهو شعور ظل يلازمني معظم أيام عمري أو بمعنى أدق طوال سنوات حياتي عدا فترات قصيرة من وقت لآخر.. رأيت وجوهاً تنظر إلي باستغراب كما لو أنني كنت قادماً من عالم آخر.. وحاولت بشكل غريزي أن أزيل تلك الغربة بعمل صداقات مع هؤلاء الزملاء.. لم يكن الأمر صعباً كما تخيلت في بادئ الأمر.. أذكر بعضاً منهم وخصوصاً أحمد باشا

الجزار وبالطبع كان ذلك اسمه دون لقب باشا الذي أعطيته إياه تشبهاً بوالي عكا الشهير الذي قاوم نابليون وقد أعجب زميلي الذي أصبح صديقي بإضافة ذلك اللقب إلى اسمه، وخصوصاً أنه كان من عائلة متواضعة مثلي مع فارق بدا لي بسيطاً في ذلك العمر وإن أظهرت الأيام بعد ذلك عكس ظني وهو أنه -أقصد صديقي- كان ينتمي إلى الطبقة المتوسطة العادية أما أنا فإلى الطبقة المتوسطة العليا إذا جاز ذلك التعبير بحكم تعليم أبي ووظيفته بالحكومة أما محمد السنهوري فكان من الطبقة العليا ومن عائلة ثرية ولها مكانتها بالمدينة.. حدث بيننا لون من الصداقة القائمة على حب الاستطلاع.. كان كل منا يريد أن يستكشف الآخر وذلك العالم الذي ينتمي إليه.. شده إلي أنني تلميذ متفوق هبط عليهم فجأة من مدرسة أخرى لم يسمع عنها فأراد أن يعرف المزيد عني وعن مدرستي.. وجذبني إليه تميزه في كل شيء.. في مظهره وطريقة كلامه وحتى مشيته تشعرك بأنه كان يعرف قدر نفسه أو بمعنى المدرسين وعمال المدرسة.. ترسب ذلك في عقلي الباطن وأنا ما زلت ابن الثانية عشرة فأصبح صديقي هذا الأنموذج الذي أريده.. أن أصبح مثله صاحب مال وجاه ونفوذ..

رغم تلك الصداقات الجديدة إلا أنني افتقدت دوما اثنين.."مالك عثمان" ذلك الصديق من السودان والذي كنت أنصت إليه كثيراً عندما يتحدث عن بلده ويحكي لي قصصا سمعها من والده عن سكان الجنوب فيذكرني بمغامرات طرازان في الغابة وأرى أن ما يحكيه لا يختلف كثيراً عما قرأته.. والشخص الآخر كانت أماني.. كنت أشعر أحيانا أنني سوف أراها في مدرستي الجديدة.. كنت أبحث

دائما عن وجهها مع أن تلك المدرسة كانت للبنين فقط ومع ذلك إحساسي بوجودها كان يلاحقني.. كثيراً ما نظرت حولي أثناء انهماك المدرس في الشرح أفتش عن صاحبة الضفائر وذلك الوجه المضيء الذي ساعدني كثيراً في أن أجد طريقي إذا ما انطفأ نور النفس أو أظلمت صفحة السماء.. كانت أولى خطواتي في رحلة طويلة بحثاً عن الجمال.. تلك القيمة التي تعلو فوق كل القيم وتنبعث منها كل روافد الحياة الطيبة والتي تجعل للوجود معنى حتى لو لم تدركه عقول البشر.. بدأت الرحلة بذلك الجمال الطفولي البريء وانتهت بمنحة إلهية لرؤية الجمال أو أجد مظاهره في كل شيء حتى في العيون التي عميت عن رؤية الجمال كما يقول جبران.

* * *

- غداً تأتي إلى المدرسة ومعك ولي أمرك.. مفهوم؟

هكذا صاح ناظر المدرسة في وجهي أنا واثنين آخرين من الفصل.. كنت قد انتقلت للمدرسة الإعدادية في نفس المدينة وبدأت أتعلم بعض حيل وشقاوة أهل الحضر.. بالطبع لم تكن تلك الحيل شيطانية في تلك المرحلة، ولكن يبدو أنها كانت البداية كما سأصبح عليه عندما أكبر ويصبح أحد أسمائي كرجل سياسة "الشيطان الخفي" أو " صائد العذارى" عندما تقدم بي السن كنوع من المغامرة وتجديد الشباب كما يقولون، ثم تحول ذلك إلى إدمان ونقطة ضعف استطاع الكثيرون أن ينفذوا منها إلي لتحقيق أطماعهم معتمدين على نفوذي وسطوتي.

عندما رجعت إلى المنزل ولم يك أبي قد عاد بعد من العمل، شعرت بمدى

الجـرم الـذي فعلتـه في المدرسـة وانتـابني ذلـك الإحـساس بالـذنب لأول مـرة في حياتي.. ماذا أقول لأبي؟

الحقيقة!!! وكيف أجرؤ على ذلك.. صحيح أنـه كـان رجـلا طيبـاً ولا يميل إلى استخدام العنف معنا إلا أنني لا أستطيع أن أخبره أنني أخذت بعضاً من تلك المادة البيضاء المسماة "بودرة العفريت" والتي تثير الجسم عندما توضع عليـه وتجعل صاحبه يميل إلى هرش المكان الذي وضعت عليـه بـشكل يـثير الانتبـاه.. أخذت تلك البودرة من جاري "مـصطفى" وأعطيتهـا لزميلـي في الفـصل "خلـف" والذي بدوره وضعها في ظهر التلميذ الجالس أمامـه أثنـاء الحـصة فأخـذ يهـرش بيده أولا ثم يحك ظهره في المقعد الجالس عليه فلاحظ المدرس ذلك واقـترب منـه قائلاً:

- لماذا لم تستحم قبل أن تجيء إلى المدرسة يا أجرب؟

- أبداً يا أستاذ.. إن "خلف" وضع في ظهري بودرة العفريت.

وبالطبع قال "خلف" إنني مصدر تلك البودرة، فما كان مـن المـدرس إلا أن أرسلنا نحن الثلاثة إلي الناظر الذي تركنا واقفين بالباب إلى حـين انتهـاء اليـوم الدراسي ثم أمرنا أن نأتي ومعنا أولياء أمورنا في الصباح..

* * *

- طيب ماذا يريد الناظر مني؟؟.. عملت إيه؟.. رد علي يا حيوان..

كانت هذه أقصى إهانة يمكن أن يوجههـا والدي لنـا.. يا حيوان – ولكن كان ينطقها بكسر الحاء والياء وليس بفتحهما.. عندما أنكرت أنني فعلت شيئا طلب

من أخي الأكبر أن يذهب معي لأنه لم يكن يستطيع أن يترك العمل.. انتهت القصة باعتذار أخي الأكبر للمشرف والأستاذ واعداً إياه أن ذلك لن يتكرر ثانية..

بدأت أيضاً أكون صداقات قوية مع أبناء الجيران الذين كانوا في سني.. كان هناك "نجيب" "وأحمد" "ومحمد" وبالطبع مصطفى الذي أعطاني بودرة العفريت وكنا نتزاور بحكم الجيرة وأحياناً لنذاكر الدروس معاً، أو ندخل في مسابقات ثقافية تدور حول عواصم العالم أو العملات المختلفة.. في إحدى المرات رأيت "أمنية" أخت أحمد صديقي وجاري.. كانت أصغر بعامين، وعلى جانب كبير من الرقة والدلال رغم صغر سنها.. ولأنها كانت الابنة الوحيدة والصغرى فقد نالت قسطاً كبيراً من التدليل من والديها انعكس ذلك في تصرفاتها ومظهرها.. ذكرتني أمنية بحبيبتي الأولى.. "أمنية" موجودة أمامي حتى قبل ظهور "أماني"، ولكن أبصرت "أماني" أولاً، لذا لم ألحظ "أمنية" إلا بعد غياب "أماني"

كانت " أمنية" أكثر طولاً وأقصر شعراً بالإضافة لأنها كانت تتحدث معي بشكل طبيعي وبحرية لا يشوبها خجل سواء أكنا بالمنزل أثناء زيارتي لأخيها أو في الشارع إذا تقابلنا صدفة بحكم الجيرة أو الصداقة التي تجمعني أنا وأخيها.. بدأت أشعر وأنا في الرابعة عشرة من العمر بأن هناك ما يسمى الجنس الآخر وأن البنت تختلف عن الولد ليس فقط في المظهر العام وتفاصيل الجسم ولكن أيضاً في طريقة الكلام، والمشي والسلوك وكانت تتحدث معي دون تكلف وتنظر إلي وتلتقي العيون دون حرج كما كان يحدث مع "أماني" وإن كنت لا أستطيع أن أنظر

إلى عينها طويلاً.. شعرت أحياناً بأنني أود أن أضمها إلي أو أقبلها كما كنت أرى في بعض الأفلام ولكن بالطبع لم أجرؤ علي ذلك وهي أيضاً لم تشجعني أبداً على أن أقوم بالخطوة الأولى كنت فقط آخذها بين ذراعي إذا ما أظلم الليل وجفاني النوم وأمسيت وحيداً أعاني ويلات الأرق وأحلام المراهقة الأولى.

• • •

أظهرت تفوقا ملحوظاً في السنة الأولي من المرحلة الثانوية مع أني لم أكن في فصل المتفوقين بل في آخر فصل في المدرسة.. وعندما ظهرت النتيجة واتضح أنني الأول على المدرسة شعرت بنوع من الاهتمام في العام التالي وكان الجميع – مدرسين وطلبة– يودون أن يروا هذا الـ "يحيى" الذي تفوق على فصل المتفوقين.. وقد منحني ذلك ثقة بالنفس والإحساس بأنني يمكن أن أكون شيئاً ما في المستقبل.. كان حلمي في البداية أن أكون ضابطاً بالجيش المصري، لما تكوّن لدي – ولدى جيلي– بأن الضابط يكون محل إعجاب أينما ذهب.. ويكفي أن يتخايل بزيه العسكري ويضع عليه بعض النياشين حتى تتجه الأنظار إليه.. كان أبي يريدني دائما أن أتجه إلي الحقوق لأنها المؤدي إلي المناصب العليا.. أما أنا وبعد أن رأيت رجال الثورة في زيهم العسكري، أصبحت أتوق إلى أن أكون مثلهم.. كانت الأغاني والأناشيد التي تمجد الثورة ورجالها في كل مكان.. في المقاهي، في دور السينما عندما تعرض "الجريدة الناطقة.. والتي تلخص إنجازات الثورة ورجالها بشكل جذاب يجعلك تود أن تكون واحداً منهم.. اختارني رائد المدرسة مسؤولاً عن الإذاعة المدرسية والتي تقدم بعضاً من الأخبار والحكم باللغة

الإنجليزية.. بالطبع كنت فخوراً بذلك وذكرني ذلك بأخي الأكبر الذي كان رائد الكشافة في المدرسة الابتدائية.. لم يمثل ذلك عبئاً علي لأنه كان لدي الوقت الكافي لأعد كل شيء بالمنزل قبل إلقائه في الصباح التالي في ميكروفون الإذاعة.. ودفعني ذلك للتوجه لمكتبة المدرسة لقراءة المزيد وتحضير بعض الأمثال والحكم والأقوال المأثورة لكبار الكتاب.. وكان كتاب "النبي" لجبران خليل جيران من أهم تلك الكتب التي أثرت في نفسي وشكلت وجداني في تلك المرحلة.. وجعلت لكلماته الصعبة كراساً مخصوصاً ألجأ إليه إذا ما عاودت قراءته.. ورغم إعجابي وحفظي لمقاطع كثيرة من ذلك الكتاب كنت ألقيها في طابور الصباح وأردفها بترجمة اللغة العربية، ورغم أنني لسنوات طويلة كنت أحتفظ بنسخة الكتاب الإنجليزية وترجمته التي ظهرت فيما بعد على يد أحد مثقفي الثورة إلا أن معاني هذا الكتاب ضاعت بعد ذلك في خضم الحياة ومعترك السياسة..

2

في أول يوم بالكلية الحربية شعرت بالندم الشديد وانتابني إحساس بأن تلك المعاناة الجسدية والنفسية ما هي إلا بسب أنني لم أحقق رغبة والدي وألتحق بكلية الحقوق.. حتى بعد مضي شهر بالكلية كان ما زال حلمه أن أدرس القانون وأصبح من رجال الدولة ذوي الحظوة والمكانة ما زال يراوده، ولكن عندما رأى إصراري على المضي في الدراسة العسكرية رغم معاناتي التي كنت أحرص على تغليفها بعبارات تدل على قدراتي على الاحتمال وأنني لست أقل من غيري من الطلاب الذين يدرسون معي، تمنى لي التوفيق ودعا الله أن يرعاني حيث كنت..

لا أنكر أنني فكرت كثيراً في ترك الكلية خلال الثلاثة شهور الأولى.. أحياناً كنت أشعر بأن عقلي قد انصهر من شدة الشمس وأصبحت عاجزاً عن التفكير وأكمل يومي بطريقة آلية آملاً ألا أسقط مثل الآخرين.. كانت أشعة الشمس دون رحمة كما لو أنها قد عقدت اتفاقا مع مدير الكلية بأن تكون معنا في غاية الكرم.. ولكنه ذلك الكرم الذي يؤدي إلى التهلكة أحياناً..

لم تكن تزعجني الشمس الحارقة وتلك التمارين المجهدة التي كانت تمتص خلايا الجسد حتى آخر قطرة وكنت أتعجب أحياناً من قدرتي على

أدائها.. بل أحياناً كنت أتخطى الرقم المطلوب في بعضها، وكان ذلك يحسب طبعا في ميزان درجاتي.. بل لم يكن يزعجني كل ذلك بقدر ما كانت تؤلمني تلك المعاملة القاسية من بعض الرتب الصغيرة، لا أدري هل كانت تلك هي سياسة الكلية أن يحاول البعض استثارة غضبك لمعرفة مدى قدرتك على تحمل قسوة الحياة العسكرية بصفة عامة وخصوصاً بعد التخرج، وعند القيام بالمناورات الحية أو إذا ما كشّرت الحرب عن أنيابها.. أو أن تلك القسوة المتعمدة وغير المبررة أحياناً كانت تعكس نوعا من المرض النفسي المختبئ داخل نفوس أصحابها ولم يجدوا متنفساً له سوى الطلبة حديثي العهد بالحياة العسكرية ولا سيما إذا أعطى ذلك الطالب انطباعاً بأنه متميز اجتماعياً أو مادياً.

مرة واحدة سقطت فيها في طابور المساء بعد أن كانت الشمس قد غادرت البلاد بحثاً عن آخرين في بلد آخر حتى تعطيهم درساً في قوة التحمل.. لم يهتم أحد بإخراجي من الطابور لأنني كنت في مكان ظليل ويبدو أنهم انصرفوا سريعاً لتناول طعام العشاء وتركوني أو بمعنى أدق نسوني إلى أن وجدت نفسي أستيقظ على نداء أحد الضباط الذي كان يمر بالمصادفة.. وقد شفع ندائه بهزة من يده أيقظتني وهو يقول:

- قم يا طالب.. ارجع عنبرك.. أم أنك ستبيت هنا؟!

وعندما تبينت كمية النجوم والنياشين التي ترصع بدلته نهضت فوراً وقبل أن أسرع إلي العنبر أديت له التحية كما ينبغي واعتقدت أنه قد سر من رد فعلي السريع.. قال بنبرة خلت من الحدة بل وشعرت معها ولأول مرة بين

جدران هذا الصرح العسكري بنوع من الحنان الأبوي الذي أوحشني كثيراً:

- سوف أسير معك حتى تصل وأطمئن عليك.

- شكراً يا أفندم.. لا داعي أن تتعطل عن شيء.

لم أستطع أو بمعنى أدق لم أرد أن أجادل معه، وقلت في نفسي "هنيئاً لي بتلك الصحبة حتى باب العنبر، فقد يراني أحد الزملاء أو أحد الضباط الصغار فيزداد قدري عندهم"..

توقفت عند باب العنبر لأؤدي له التحية اللائقة وإذا به يفاجئني بدخوله معي المكان الذي كان يعج بالطلاب في فترة الراحة القصيرة بعد العشاء وقبل النوم.. وعندما تنبه الجالسون على أسرتهم أو الواقفون أو الذين انشغلوا بالراديو الترانزستور الذي يبين أيديهم وكان يمثل في ذلك الوقت وسيلة الترفيه الوحيدة المسموح بها، وكان أيضاً رابطة الوصل بين الطالب والعالم الخارجي.. عندما تنبه الجميع إلي ذلك الزائر الكبير إذا بهم جميعاً يلقون ما في أيديهم ويقفون انتباه كل في مكانه وانشغلوا بهذه الزيارة غير المتوقعة حتى إنهم لم ينتبهوا لدخولي معه.

سكت الرجل قليلاً ثم جال ببصره في أرجاء المكان كأنما يتذكر أيام دراسته الأولى ثم أردف بلهجة أبوية قائلاً:

- إيه الأخبار يا رجال.. مبسوطين معنا هنا؟!

رد الجميع في نفس واحد وبطريقة كنا قد تعودنا عليها:

- تمام يا أفندم..

وأردف بعضهم مؤكداً:

- كله تمام يا أفندم.

لقد ظن الجميع أن هذا الضابط الكبير قد جاء خصيصاً لهم ولسؤالهم عن أحوالهم ولذا كانت الإجابة حاضرة.. بالطبع لم يدر بخلد أحدهم أنها زيارة غير مرتبة على الإطلاق وأنني أنا السبب في ذلك.. استدار الضابط الكبير إلي ووجه لي بصوت لم يسمعه أحد سواي:

- أنا المقدم "زكريا مندي" والعام القادم سوف أدرس لك إن شاء الله.

وقفت انتباه لكي أشكره، وأؤدي له التحية العسكرية، ولكنه مد يده وصافحني كما يفعل الأصدقاء ثم انصرف دون أن ينظر خلفه.

لفترة غير قليلة ظللت مكاني أسترجع ما حدث وبدا لي أنها لون من أحلام اليقظة التي تزورنا إذا ما تلبدت السماء بسحب الحياة اليومية ومشاكلها التي تنتهي وشعرنا حينئذ بثقل أنفاسنا وأنها تود أن تغادر الجسد دون رجعة.. في تلك اللحظات ويطل علينا الحلم سواء أكان ليلاً بمعنى أنه حلم حقيقي أو نهاراً كحدث تتمنى أن نعيشه أن نكون فعلاً مستغرقين في تفاصيله ولكن لاختلافه عن بقية أحداث اليوم المرهقة نضعه في خانة الأحلام كما حدث لي مع ذلك الضابط المعلم.

انتبهت على صوت زملائي الذين تجمعوا حولي وهم يتصايحون ويتساءلون عن ذلك الضابط الكبير.. عندما أخبرتهم بالقصة لم يصدقها معظمهم، وقال أحدهم:

– إنه أكيد قريبك.. وأنت لا تريد أن تخبرنا

– والله أبداً.. أنا أول مرة أراه اليوم.

من تلك الليلة بدأت الأحلام الجميلة والتي كنت تركتها رغماً عني خارج أسوار الكلية تتسرب عبر الجدران والأسلاك إلى أن وجدت طريقها إلى مخدعي..

◦ ◦ ◦

بنهاية فترة التدريب بدا لي أنني قد فقدت نصف وزني وأن لون بشرتي أصبح داكناً على غير العادة.. ورغم أن ذلك لم يعن شيئاً بالنسبة لي، إلا أنه قد بدا لوالديّ –وخصوصا أمي– شيئاً مفزعاً.. وقد احتاج مني ذلك بعض الوقت حتى أقنعها بأن ليس لون البشرة أو الوزن هو الذي يعطي قيمة للإنسان، وخصوصاً إذا كان في الحقل العسكري مثلي.. كان بمثابة يوم عيد عند والدي وأخي الأكبر عندما رأوني بعد غياب دام أكثر من ثلاثة شهور.. اقترب مني أخي الأكبر وكنت ما زلت مرتدياً الزى العسكري وقال بصوت وصل إلى مسامع والدي:

– أنت بهذا الزي أصبحت الكل في الكل.. وأكيد ستتزوج قبلي.

– لا أعتقد.. ما زال لدي الكثير لعمله قبل الزواج.

وانتهى الأسبوع بأسرع مما كنت أتخيل.. لم أستطع أن أفعل فيه الكثير، كنت في حاجة إلى النوم والراحة أكثر من أي شيء آخر.. لم أزر سوى نجيب وأحمد.. كان أحمد قد التحق بكلية الآداب على أمل أن يدرس الفلسفة التي كانت تستهويه كثيراً.. وفي بداية حديثنا أخذ يسرد سيرة بعض العظماء الذين كان لهم

الأثر في تغيير مجرى الإنسانية بداية من سقراط وأرسطو وانتهاء إلى "كانط" و"نيتشه" ومفكر الوجودية والذي كان معبود المثقفين في ذلك الوقت "جان بول سارتر" وبالطبع لم ينس أن يشيد بفلاسفة الإسلام وخصوصاً الفارابي وابن رشد.. لم أتجادل معه كثيراً ولكني أخبرته بأن مصر بحاجة الآن إلى جيش قوي أكثر من حاجتها لفلاسفة عظام.. وإذا كنا قد وجدنا من يمدنا بالسلاح رغماً عن الغرب فيجب أن نعد ذلك الجندي وذلك الضابط الذي يمكن أن يستخدم السلاح، وهذا الإعداد يتطلب التعليم والتدريب وإرسال البعثات إلى الخارج وخصوصاً هذا الصديق الجديد الذي لم يكن يتوانى عن أن يقف في صفنا في كل معاركنا.. بالطبع لم نتفق على رأي واحد ولكن الصداقة التي بيننا كانت بمثابة جسر منيع أمام أية خلافات أو صدامات فكرية.. وقبل أن أقرر الانصراف أتى صوت أعرفه جيداً وهو يتقدم نحونا من خلفي ويقول:

– أهلاً يا حضرة الضابط. أين أنت من زمان؟!!..

وإذا بي أنهض واقفاً وأستدير نحوها مرحباً.. طلبت مني "أمنية" أن أجلس مكاني بينما جلست هي على المقعد بجواري.. سألتها عن أخبار المدرسة.. وماذا تريد أن تدرس في الجامعة.. وقد فاجأتني بأنها تريد أن تدرس الطب ثم تعمل في أحد مستشفيات القوات المسلحة كطبيبة في خدمة الجيش المصري.. قلت لها:

– من يدري؟ يمكن أن نلتقي في المستشفى الذي سوف تعملين فيه، لكن لا تنسي أني سأكون أقدم منك في الخدمة؟ وأعلى منك في الرتبة..

نظرت طويلاً كأنما تتخيل الموقف بعد عدة سنوات وقالت:

- أكيد.. سوف تكون أقدم مني ولكن لا أعتقد أنك سوف تعاملني أبداً على أني أقل منك درجة.

- طبعاً هذا مستحيل أن يحدث.. على الأقل نحن جيران..

- جيران فقط؟؟

نطقت بهذه الجملة، ويبدو أنها شعرت بأنها ارتكبت خطأ كبيراً فانصرفت بسرعة، والحمد لله أن أخاها لم يكن يتابع حديثنا فقد كان مشغولاً بترتيب بعض الكتب القديمة التي اشتراها من سوق الأزبكية تمهيداً لتجليدها بشكل يحافظ عليها من التآكل ويقيها من تقلبات الزمان..

انصرفت بعد أن ودعت صاحبي على موعد في الإجازة القادمة والتي لا أعرف ميعادها ولم يك بيتي يبعد كثيراً عن منزله وعند خروجي وبعد أن شعرت بإغلاق الباب خلفي التفت لا شعورياً خلفي أودع المنزل وصاحبته التي لم أدر ماذا كانت تريد أن تقول بتلك الجملة، ووجدتني أدقق النظر في شباك غرفتها فإذا بها واقفة وقد أسندت رأسها على حديد النافذة ممسكة بشيء في يدها بدا لي كأنه نجمة من النحاس من التي يضعها الضباط على أكتافهم وإن لم أتأكد من ذلك إلا أنني تأكدت بأنها كانت واقفة منتظرة خروجي كي تودعني بأجمل ابتسامة يمكن أن تكون رفيقاً لي حتى أراها في المرة القادمة.

ooo

كانت الروح الوطنية في تلك الفترة مرتفعة، وكان كل المصريين - وليس رجال الجيش فقط - مستعدين لفداء الوطن.. بدا ذلك جلياً في خطب قائد الثورة،

والتفاف الجماهير حوله في مصر.. وكل البلاد العربية.. وبدا ذلك بشكل أكثر وضوحاً في عمليات الفدائيين أثناء العدوان الثلاثي.. شعرت بأن بلدي أعطتني الكثير فإذا فديتها بروحي فلن أكون أعطيتها أكثر مما أعطتني.. كان لدي تلك الأسرة المتحابة.. الأصدقاء.. الجيران.. تلك البدلة التي أتشرف الآن بارتدائها وتجعل الجميع ينظر إلي ويحسدني عليها أحياناً.. وأهم من كل ذلك أمنية.. نعم هي التي كانت واقفة بالشباك تنتظر خروجي لتودعني.. وسواء كانت ممسكة بنجمة تهديها إلي عند تخرجي أو كانت تلهو بإحدى أدوات زينتها.. أنا هنا في انتظارك.. هكذا أوحت لي ابتسامتها.. وعندما قالت: جيران فقط كانت تريد أن تؤكد على أن ما بيننا أكثر من الجيرة.. نعم هو كذلك وإن كنت لم أفطن لذلك مبكراً.. أهو غباء مني أم إعلاء لقيمة الصداقة بيني وبين أخيها ورفض عقلي الباطن أن تكون لي علاقة بأخت صديقي حتى لو كانت على أساس الحب الشريف.. هل يدرك أحمد ذلك.. كم أتمنى ألا تذهب أفكاره إلى ذلك المنعطف.. هل يعلم بأن أخته تكن لي تلك المشاعر ومن يدري فقد تكون أمنيتها أن تكون من نصيبي يوماً ما.. لا أعتقد أن أحمد يمكن أن يفكر في ذلك..

دارت تلك الأفكار برأسي وأذهبت النوم من عيني وشعرت بأنني لن أقوى على الوقوف في طابور الصباح.. وأخيراً استطعت أن أتغلب عليها كلها وأطاردها إلى أعشاشها سوى فكرة واحدة لم أستطع أن أقاوم لذة مداعبتها.. أن هناك من ينتظر عودتي ويوم إجازتي.. ليس فقط أسرتي.. ولكن أمنية أيضاً.. عند ذلك الحد من التفكير شعرت بأن الأرق قد يكون ضيفاً عزيزاً أحياناً وذلك إذا ما

ألقى بنا بين ذراعي من نحب..

في اليوم التالي ورغم قلة حظي من النوم شعرت بنشاط لم أجد له تعليلاً حينذاك وإن مكنني من متابعة يومي الدراسي والرياضي بذهن صاف، وعقل متفتح وفي الأيام التالية أظهرت نوعاً من التفوق الملحوظ بالكلية على المستوى النظري والعملي والرياضي.. كان من الصعب على الطالب أن يحرز تفوقا في المجالات الثلاثة معاً.. فالمتفوقون علمياً ونظرياً غالباً ما كانت أجسادهم تخذلهم في إظهار البراعة في النشاطات الرياضية.. أدركت سر هذا التفوق فيما بعد.. أدركت من قراءتي في حضارات الصين والهند أن الحب يمكن أن يفجر طاقات مختزنة في عقل وجسد المحبين.. تلك الطاقات لا تظهر إلا في اللحظة المناسبة وهي تخرج من مكمنها في لحظات الإحساس بالحب ورغبة المحب أن يظهر أروع ما عنده حتى يحتفظ بصورته الجميلة في عيون من يحب..

قابلت ذلك "القائد المعلم" وهذا هو اللقب الذي أطلقته عليه أكثر من مرة مصادفة أثناء السير بين مباني الكلية وأحياناً في الاستراحة المخصصة للضباط إذا ما أرسلني أحدهم كي أقضي له مصلحة هناك.. في إحدى المرات وبعد أن حييته من بعيد أشار إلي بالتقدم نحوه والجلوس معه حتى يأتي زميله الذي كان ينتظره.. وبعد السؤال عن أحوالي وصحتي وأسرتي قال لي:

– أين تريد أن تعمل بعد التخرج؟

– أود أن أعمل مدرسًا بالكلية

– يعني تريد أن تكون مثلي.. لكن سوف يأخذ منك هذا معظم وقتك ستعمل

بالنهار مدرسا وتحضر دروسك بالليل في البيت أو مكتبة الكلية.. لن يتبقى عندك وقت لحياتك الخاصة.

– تمام لكن بهذا الشكل أستطيع أن أخدم بلدي أكثر وأحقق رغبة والدي الذي يتمنى أن يراني في موقع متميز.

وهنا ابتسم قائلاً:

– عموماً يا ابني ربنا معك ومن يدري قد نصبح زملاء بعد عامين أو ثلاثة..

– هذا شرف كبير لي يا أفندم.. وإن كنت سأظل دائماً تلميذ سيادتك حتى لو أصبحنا زملاء..

شعرت بضابط يستقر على المقعد الذي بجواري بعد أن حيا القائد المعلم ونظر إلي دون تعليق فقمت من فوري وأديت التحية العسكرية منصرفاً.. فإذا به ينهض ويصافحني باليد كصديق وابتسامة أوحت إلي بأن المستقبل سيكون أفضل بكثير طالما أن هذا الرجل يشملني برعاية لم أتوقع أن أجدها في ذلك المكان الذي تنطلق فيه الكلمات منا بقدر وتصدر فيه الأوامر كطلقات المدفع.. والأهم من ذلك أن هناك من تنتظر عودتي حتى يرطب حديثها العذب الندي من حرارة أيامي وأنسى وأنا أنظر إلى عينيها خشونة مضجعي وليالي السهر الطويلة..

أنهيت عامي الأول بنجاح وتقدير مرتفع في دراساتي النظرية والعملية وحصلت على كأس وميدالية لتفوقي في النشاط البدني والرياضي.. لم تكن الإجازة طويلة مثل إجازات المدارس ولكنها كانت كافية لكي أنال قسطاً وافراً من الراحة والأهم من ذلك من حنان الأم والأب.. بدأت أعلم أخي الأكبر الذي كان على وشك

الالتحاق بالخدمة العسكرية التمارين الأساسية التي يجب أن يتعود عليها حتى إذا طلب منه أداؤها لا يجد صعوبة في ذلك.. أخذنا نمارس تلك التمارين معاً تحت أشعة الشمس حتى يتعود عليها.. في البداية كان يشعر بالتعب والإرهاق فيتركني أكمل ذلك وحدي ثم يعود ويجدني مستمراً فيشعر بالخجل فيشترك معي ثانية.. كنا نؤدي ذلك يوميا عد يوم الجمعة فهو يوم النوم الوفير وأداء الصلاة.. كنت أجلس مع والدي بعد العشاء ونتحدث في كل شيء تقريباً.. ننظر إلى الحاضر ونتطلع إلى المستقبل وكان أبي يشعر بالارتياح لأنه استطاع أن يصل بولديه إلى تلك المرحلة من التعليم كما أنه أحسن من تربيتنا كما كان يقول دائماً وكان ينتظر فقط تخرجي حتى يصطحب والدتي إلى الحجاز فيشكرا الله على ما أعطاهما وهما في بيته الحرام.

كثيراً ما خرجت ليلاً بعد أن يأوي والداي إلى النوم لزيارة بعض الأصدقاء.. كنت الوحيد منهم الذي اتجه إلى الدراسة العسكرية ولذا كان الجميع يتوق إلى سماع حديثي عن هذا اللون من الدراسة وكيف نقضي يومنا وتقاليد الحياة العسكرية وما إلى ذلك.. كنت أحكي لهم عن ذلك ويسعدني إنصاتهم لحديثي..

ذهبت إلى أحمد صديقي أكثر من مرة والتقينا خارج المنزل مرات عديدة في أحد مقاهي المدينة الذي تميز بالهدوء فنستطيع أن نتحدث دون إزعاج وأتركه يستفيض في شرح بعض النظريات الفلسفية.. كنت أستمع إليه بإنصات ولدي رغبة في استكشاف ذلك العالم الذي بدا لي غريباً وممتعاً في نفس الوقت.. لم أر

أمنية بالمنزل مع تأكدي من وجودها فيه، وإن لم تأت لكي ترحب بي أو تتحدث معي كما يحدث سابقاً.. لم أجرؤ على أن أسأله عن السبب وكنت أخشى أن تنقضي الإجازة كلها دون أن أنعم برؤيتها.

في آخر يوم لي من أيام الإجازة وكأن الله قد رحم حاجتي لهذا اللقاء وأثناء عودتي من زيارة جاري صاحب "بودرة العفريت" رأيت أمنية في الطريق وهي عائدة إلى منزلها.. فوجئت بي عندما اقتربت منها، فهي لم تتوقع أن تراني وإن بدا عليها السرور لذلك.

– زرتكم أكثر من مرة.. أين كنت؟

– أبداً.. موجودة.. لكن دائماً معي إحدى صديقاتي، فكان يصعب أن أتركها وأجلس معك.

– على الأقل يمكن أن تخرجي وتسلمي علي..

– بصراحة كنت أود ذلك دائماً.. ولكن.. ماما قالت لي أنتِ كبرتِ وراعي تصرفاتك

– يعني قالت لك ألا تسلمي علي..

– لا طبعاً.. بالعكس هي تحبك مثل أحمد أخويا ودائماً تقول أنك إنسان طيب وراجل يعتمد عليه.

– طيب أين المشكلة؟؟ أنا أحترم الجيرة وصداقتي مع أخيك ولا أراك إلا في البيت وسط أهلك..

– صحيح وأخويا يثني عليك دائماً.. أسمعه يقول أنك محترم وسوف يكون

لك مستقبل كبير..

عند هذا الحد من الحديث قد وصلنا إلى منزلها وتوقفت وودت أن أدخل معها وأكمل حديثي بالداخل معها أمام الجميع فليس لدي ما أخفيه أو أخجل منه.. ولكنها نظرت إلي ثم مدت يدها مصافحة بمعنى أنه لا داعي لدخولي وقالت:

– عموماً أنا عارفة أنا إيه بالنسبة لك من غير كلام.. أريدك فقط أن تعرف أنك أنت فقط الذي يشغل تفكيري..

عند هذه الكلمة نظرت إلى الأرض بعد أن كانت تحادثني وهي تنظر إلي.. عندما رفعت رأسها نظرت إلى عينيها فرأيت كل معاني الجمال التي كنت أبحث عنها دون أن أدري.. إنها ليست بعيدة عني.. رأيت الصدق في عينيها مثلما شعرت به في كلماتها.. وقبل أن أترك يديها مودعاً إذا بي أنظر بثبات إلى عينيها قائلاً:

– لا أعرف متى سأراك ثانية لكن يجب أن تعرفي أني.. أحبك..

وعند هذا الحد كان السيل قد اصطدم بكل صخور جسدي.. الشاهق منها وتلك التي بمجرى الوادي فاستحال مرة ثانية إلى قطرات صغيرة كما كان في البدء وتفرقت كل قطرة إلي حيث قدر لها كي تروي خلايا الجسد الذي أحالته دراستي العسكرية وشمس الحياة إلى أرض قاحلة تشققت وانفصلت عن بعضها البعض وكانت في أمس الحاجة إلي تلك القطرات التي بدأت تتسرب رويداً إلى كل خلية من خلاياه وكل غصن من أغصان الروح فتحدث المعجزة، فإذا بها تلتئم ثانية بعد أن جرت في عروقي نبضات الحياة ملتحمة ببذور الأمل.

3

أوشكت أيام الدراسة على الانتهاء وبدأ الاستعداد والتدريب العملي لحفلة التخرج. كان اهتمام مدير الكلية وكل الضباط والجنود بهذا الحفل يسترعي اهتمام الطلبة ويجعل كلاً منا حريصاً على أن يبذل كل جهده حتى يؤدي دوره ويخرج الاحتفال على الصورة التي يتمناها الجميع ويليق بهذا الصرح العسكري الذي نتشرف جميعاً بالانتماء إليه.. كان كل شيء يسير على ما يرام وحافظت دائماً على تفوقي الدراسي سواء كان علمياً أو عسكرياً أو رياضياً وكنت أشعر أن كل جانب من هذه الأنشطة العلمية والبدنية يكمل كل منهم الآخر حتى أصبحت الرغبة في التزود بالمعلومات العسكرية أو ممارسة الرياضة البدنية أو الرغبة في التعرف على التفاصيل الدقيقة للأسلحة التي كانت أتعامل معها خصوصاً إذا ما ظهر سلاح جديد شيئاً شيقاً بالنسبة لي، ولا يمكن أن يمضي أسبوع دون أن أمارس كل الأنشطة سواء يومياً أو على مدار أيام الأسبوع.

وبعد مشاهدتي لفيلم "في بيتنا رجل" وقد عرضته لجنة التثقيف والوعي القومي بالكلية في مساء أحد أيام الخميس شعرت برغبة في قراءة المزيد من هذه الكتب التي تمجد أعمال الفدائيين بصفة خاصة ورجال الجيش بصفة عامة.

قبل بدء حفل التخرج بثلاثة أسابيع على وجه التحديد أسرع إليّ أحد أصدقائي بالكلية وكنت على وشك الخروج لأقضي الإجازة الأخيرة قبل أن أحمل أولى النجوم على كتفي مع أهلي وأخبرني أن "القائد المعلم" مريض وأنه يلازم الفراش بالكلية.. ودون تفكير ألقيت بحقيبتي الصغيرة على فراشي وجريت مسرعاً إلى استراحة الضباط. عند وصولي على الباب لاحظت أن قلبي يكاد يغادر موضعه لأنني قطعت المسافة بين عنبر الطلبة وعنبر الضباط في أقل من دقيقة دون أن أشعر بذلك كما لو كنت أتدرب على سباق من سباقات العدو.. استرحت قليلاً قبل أن أطرق الباب حتى أستطيع الكلام عندما أراه دون أن يلاحظ المجهود الذي بذلته.. وقبل أن أمد يدي نحو الباب إذا به يفتح من الداخل وأجد أمامي ودون سابق إنذار مدير الكلية وهو على وشك مغادرة المكان بعد أن كان فيما يبدو في زيارة للقائد المعلم للاطمئنان على صحته.. ويبدو أنه لم يلاحظ وجودي لأنه أكمل كلامه موجهاً الحديث إليه قبل أن يخطو خارجاً:

– اسمع هذا أمر.. إذا لم يستطع الدكاترة أن يعرفوا حالتك بالضبط خلال يومين بعد عمل الأشعة والتحاليل الكافية فسوف أستصدر أمراً من سيادة المشير بسفرك إلى روسيا حتى يتم علاجك وترجع تحضر العرض والاحتفال بتخريج الدفعة الجديدة كما عودتنا كل سنة..

وعند هذه الكلمة أدرك مدير الكلية وجودي فنظر إلي قبل أن يمضي خارجاً وقبل أن يسألني عن وجهتي كان القائد قد لمحني من خلال الباب ونادى علي باسمي حتى أدخل.. وبالطبع لم يفتني أن أؤدي التحية العسكرية لمدير

الكلية وخصوصاً أنني كنت بكامل هيئتي العسكرية، وقبل أن يبتعد نظر قائلاً وعلى وجهه ابتسامة:

- نراك في حفل التخرج يا "يحيى"

وفوجئت بذلك وإذا بي أستدر مرة ثانية بعد أن كنت أوشكت على أن أكون داخل الحجرة لأكون في خارجها في أقل من ثانية وقبل أن يمضي بعيداً رآني أؤدي التحية العسكرية ثانية وعلى وجهي ابتسامة قائلاً:

- إن شاء الله يا أفندم.. نكون كلنا عند حسن ظن سيادتكم..

وعند نهاية جملتي وجدت نفسي داخل الحجرة مقبلاً على سرير القائد المعلم فحاول أن ينهض ليصافحني إلا أنني بادرت بالانحناء عليه حتى لا يبذل أدنى مجهود في ذلك وقبل أن أنطق بكلمة نظر لي مبتسماً وهو يقول:

- افرح يا يحيى أنا سمعت المدير شخصياً وهو يقول "نراك في العرض يا يحيى".

- البركة فيك يا أفندم فهو قد سمع سيادتكم وأنت تناديني.

- أخبارك إيه.. مستعد للعرض العسكري.. أنا عرفت أنك سوف تكون في طابور العرض الرئيسي وهو الذي يكون أقرب واحد لسيادة الرئيس والمشير والقادة كلهم.

- فعلاً؟.. لم يخبرني أحد..

- لم يعرف أحد بصفة رسمية حتى الآن. وعموماً وجودك في هذا الطابور بناء على توصية مني لأنك تستحق ذلك.

- شكراً يا أفندم.. بصراحة لا أدري ماذا أقول لسيادتك.. المهم أخبار صحة سيادتك.

- أبداً:.. اليوم وأنا أستعد للخروج للعودة للمنزل شعرت بدوخة ولم أستطع أن أكمل ارتداء ملابسي وقد أخبرني دكتور الكلية بأنه لا بد من أن أستريح الليلة بالكلية على أن أذهب غداً إلى المستشفى العسكري، ويعملوا لي الفحص الشامل والأشعة والذي منه.

- لكني سمعت سيادة المدير يقول إنك يمكن تسافر للخارج..

- هو مُصر لو لم يتم علاجي في مصر أسافر روسيا.

- إن شاء الله لن يكون هناك سفر وتعالج هنا وسط أهلك وزملائك.

عند هذا الحد من الحديث أدركت أن هناك آخرين في الحجرة ولم ألتفت لوجودهم بسبب انشغالي بمرض القائد المعلم ورؤيتي لمدير الكلية على الباب. وعندما لاحظ القائد ارتباكي قام بتقديم الجالسين في الحجرة إلي وكانوا كلهم زملاء له بالكلية وإن بدا أحدهم وجهاً جديداً بالنسبة لي لم أره من قبل، واستمرت الأحاديث عن الصحة والعلاج بالخارج وأنه أفضل من مصر في بعض الأحيان، على الأقل المرضات هناك لونهم أبيض وشعرهم أصفر على رأي اليوزباشي "محمود" وكان أكثر الحاضرين ميلاً إلى المرح وروح الفكاهة.. قام الحاضرون معاً وحيوا القائد متمنين له الشفاء، كذلك سلموا علي بشكل ودي بعد أن لاحظوا أنه يهتم بي ويعاملني كأحد أبنائه..

- أستطيع أن أظل الليلة مع سيادتك قد تحتاج شيئا.. وأرجع المنزل غداً

عندما تذهب للمستشفى.

– أنا سوف أقرأ حتى أنام.. وأنت ماذا تفعل؟

– ممكن أن أظل على السرير المجاور حتى تنام سيادتك ثم أعود أنا إلى المنزل.

عندما رأى إصراري على مرافقته، أخذ القلم وكتب على ورقة رسمية عليها اسمه تصريحاً لي باسمي، يسمح لي بالخروج من البوابة الرسمية في أية ساعة من ساعات الليل أو الصباح، وأعطاني إياها قائلا:

– حتى تخرج في ميعاد غير رسمي لا بد أن يكون معداً لك تصريح

– شكرا يا أفندم.

– أما زلت تريد أن تعمل في الكلية بعد التخرج

– إذا لم يكن عند سيادتكم مانع أكون تلميذاً ومرافقاً لسيادتكم على طول..

– لكن هذا شغل يهد الحيل ويتعب القلب.

قال هذه الجملة الأخيرة وهو يعنيها.. وشعرت بأن كل كلمة بل كل حرف يخرج بصعوبة من صدره وأن مقاومته للمرض بدأت تلين وتضعف، فقمت من مكاني حتى لا يشعر بالإجهاد من الكلام واستأذنت في الانصراف.. وقبل خروجي وجدت نفسي أرتمي في حضنه، وكأنه كان ينتظر ذلك أو يتمناه فإذا بذراعيه تضماني بقوة إليه كما لو كان أراد أن يستمد من قوتي وعنفوان شبابي ما يعينه على تحمل آلام المرض واعتلال قلبه الذي أبى أن يستمر في رحلته بنفس الغربة التي بدأ بها عندما انطلق من محطته الأولى، فإذا به يتلكأ الآن في سيره

كما لو كان يعلم أن محطته الأخيرة فأخذ يمضي ببطء.. لا أدري حرصاً منه على ما تبقى من درب الحياة أم أنه فعلاً لا يستطيع أن يمضي أسرع وإلا سيتوقف فجأة ويترك صاحبه دون وداع.

سقطت الدموع رغماً عني وعندما شعر بذلك ساوره بعض الخجل فأبعدني عنه برفق ونظر قائلاً –وهو يبذل جهداً خارقاً حتى لا يبدو ضعيفاً أمامي–:

– ما هذا؟ هل هناك ضابط يبكي؟؟

وابتسم فشعرت بالحياة تنبض في جسده وإذا به ينهض من على السرير دون أن يبدي أي مظهر من مظاهر الضعف ومضى معي إلى الباب..

– يكفي هذا.. الساعة الآن العاشرة وأنا أريد أن أنام.

– حاضر يا أفندم.

وهنا قاطعني قائلاً:

– لا داعي لكلمة أفندم.. قُل أستاذي أحسن.

– حاضر يا.. أستاذي.. وإن كان هذا لن يمنعني من أن أؤدي التحية عند انصرافي.

– هذا أفضل.. عندما نكون بمفردنا، أنا أستاذك.. أو أخوك الكبير.. وسط الزملاء أنا قائدك.

– قائدي وأستاذي وأخي الكبير مع بعض.

وبدلا من أن يمد يديه ليصافحني كعادته عندما نكون بمفردنا إذا به يضمني ثانية إلى حضنه قائلا:

- إن شاء الله سوف تكون ضابطاً كبيراً ولكن، إياك أن تنسى الصغار.. هذه وصيتي إليك.

- حاضر يا أستاذي.

° ° °

- ماذا يا ولدي؟! ما الذي أخرك؟

- أبداً.. ظللت مع القائد المعلم لأنه مريض. وسوف يمضي الليلة في الكلية ويذهب في الصباح إلى المستشفى.

- ولِمَ لم يذهب إلى المستشفى الليلة؟!

- لا أدري، هذه كانت رغبته وأصر عليها واحترمها الكل. حتى مدير الكلية.. والساعة الثامنة صباحاً سوف يذهب إلى المستشفى مع دكتور الكلية.

- إن شاء الله سوف يتعافى من أجل أسرته والناس الذين يحبونه، وخصوصاً أنت.

نهضت مبكرا في الصباح على غير العادة في يوم الجمعة ورغم رغبتي في الاستمتاع بآخر أيام إجازتي كطالب قبل أن أحمل أولى النجوم على كتفي لأبدأ الحياة العسكرية في إحدى وحدات الصحراء أو في أحد المواقع البعيدة التي قدر لي أن أمضي شطراً من حياتي بها فإن قلقي على القائد قد استبد بي وأصبح كسحابة تظلل مظاهر البهجة التي أستمتع بها عادة يوم الجمعة، وبعد انتهاء الصلاة طلبت من أخي أن نذهب إلى المستشفى العسكري لزيارته ولكنه لم يحبذ الفكرة قائلا إنه سوف يكون بين يدي الأطباء وفي غرف الأشعة ومعامل التحاليل ولن

نتمكن من زيارته، ومن الأفضل أن أنتظر إلى السبت حتى أزوره.. اقتنعت برأيه وفي الطريق قال لي:

- ألا تريد أن تزور أحمد صاحبك؟

- ماذا تقصد؟

- أنا أقصد أحمد ولا أحد آخر وسوف آتي معك أيضاً.

- ما الداعي لكل هذا الكلام؟

- بصراحة هو مريض منذ عدة أيام ولم نخبرك بالأمس.. قلنا يكفيك مرض القائد.

- ماذا تنتظر؟ هيا بنا.

في الطريق قابلنا مصطفى الذي انضم إلينا وأخبرنا أن أحمد الآن أفضل حالاً وأن صحته تسير على ما يُرام.. بالطبع في الطريق كنت أمني نفسي أن أرى أمنية ولو لقاءً عابراً أستمد منه ما يعينني على تحمل متاعب الحياة التي بدأت تلوح في الأفق كسحابات متناثرة سرعان ما تتجمع وتتكاثر حتى تخفي عنا بهجة لون السماء أو تحجب عنا دفء شمس الشتاء.. لم أستطع أن أدرك كثيرا من الحديث بين أخي ومصطفى لأن تفكيري انصرف إلى أحمد وأمنية وهل سأراها أم ستظل بحجرتها ودعوت ربي الذي يعلم مقدار حبي لها ألا يحرمني من رؤيتها ولو حتى دون أن نجلس معاً أو تتحدث إليّ شخصياً، لا أنكر أنني كنت أحلم كثيراً بذلك اليوم الذي أضع فيه أول نجمة على كتفي معلنة أنني قد أصبحت ضابطاً بالقوات المسلحة وقد اشتريت فعلا نجمتين أودعتهما علبة صدف صغيرة حتى

أتي ذلك اليوم، إلا أنني كنت أحلم بنجمة أخرى أودعها قلبي.. كنت أسميها عندما أختلي إلى نفسي نجمة السماء لا أدري لماذا اخترت هذا الاسم لأمنية.. هل لإحساسي بأنها بعيدة عني مثل نجوم السماء.. أم لكي أفرق بينها وبين النجوم على الأكتاف والتي قد تقع صدفة على الأرض أثناء التدريب أو الحروب؟ فهي نجوم إن لمعت كثيراً على الأكتاف فإنها قد تسقط يوما على الأرض، أما نجمتي التي لن تسقط أبدا ما حييت فهي أمنية ولذا كنت أناديها عندما أختلي إلى نفسي وأود الحديث إليها بنجمة السماء.. قد يكون مزيج هذه الأفكار هو ما دعاني لأن أطلق عليها هذا القلب الذي لم أصارحها به حتى الآن ولكنني كنت موقناً بأني يوما ما سوف أطلعها على كل الأحاديث التي سررت بها إليها عندما كانت تشتد الظلمة وتأبى السحب إلا أن تخفي كل الأنوار عني إلا نور نجمتي نجمة السماء.

وقفنا عند باب المنزل.. وتقدم مصطفى الذي كان يزور أحمد كثيراً وطرق الباب وقبل أن يمد يده ثانية إذا به ينفتح وتطل منه أجمل ما رأت عيناي.

– أهلا تفضلوا.. أحمد في الصالون فهو يعرف أن هناك من يأتي لزيارته يوم الجمعة.

تقدم مصطفى ثم أشرت على أخي الأكبر أن يتقدم وأشار إليّ أنا بأن أتقدم بحكم أن أحمد صديقي أنا وإذا بأمنية تقول بأسلوبها الذي يشع بهجة ومرحاً:

– أقول لكم: أدخل أنا الأول وتقرران أنتما من يدخل بعدي، ولكن الأخير يغلق الباب وراءه.

قالت ذلك ثم نظرت إلى أخي الأكبر الذي لم يتعود على ذلك الأسلوب ثم

نظرت إليَّ وعندما لاحظت أنني أطيل النظرة إليها حتى أشبع عينيَّ وروحي وأعوض أيام الحرمان، وشمسها التي لا ترحم وليالي البعد وقمرها الذي يغيب كثيرا وراء السحاب.. عندما لاحظت ذلك وأدركت ما في نفسي نظرت إلى الأرض محاولة أن تخفي ارتباكها ثم أسرعت إلى الداخل.

تصافحنا جميعا وجلسنا بالقرب من أحمد الذي حدثني قليلاً عن مرضه وطبقاً لما قاله الدكتور فقد كانت نزلة شعبية أهمل علاجها فأقعدته الفراش لمدة أربعة أيام.. وأنه سوف يذهب إلى الكلية في الأسبوع المقبل.. قطع علينا الحديث دخول والدة صديقي وهي تحمل صينية الشاي إلينا.. صافحتنا جميعا وبدأت بأخي الأكبر ثم أنا ثم مصطفى قائلة:

- لا أدري ماذا كنت أفعل لو لم يكن مصطفى موجوداً.. كان يأتي يومياً ليرى صديقة ويرى ما نحتاجه نحن.

فرد مصطفى:

- يا خالتي لقد قلت لكِ ضعوا سريراً ثانيا في غرفة أحمد حتى توفروا عليَّ المشوار.

وهنا دخلت أمنية قائلة:

- وأنا أتولى ترتيب سريرك وأحضر لك الأكل وجائز تترك ملابسك هنا لكي أغسلها لك. ألا يكفي خدمة أخي؟ سوف تصبحان اثنين أنت وهو.

وهنا لم نتمالك سوى أن نضحك جميعاً، إلا أنني شعرت ببعض الغيرة من وجود مصطفى الدائم الذي لم يكن في دائرة تفكيري كغريم لي عند أمنية وإن قمت

بطرد هذه الفكرة سريعا حتى لا تنغص عليَّ ذلك اللقاء.. ويبدو أن والدة صديقي قرأت بعضاً من أفكاري وإذا بها تنظر إلي:

- يا ترى حضرة الضابط سرحان في إيه؟

- حضرة الضابط إيه يا خالتي؟ أنا مازلت طالباً؟ وحتى عندما أتخرج فليس من المعقول أن تناديني بحضرة الضابط.

- طبعا لا.. أنت مثل أحمد ابني ومثل مصطفى.. كلكم أولادي.

- وأنا لا؟

ردت أمنية..

- هو أنت ولد؟ أنا قلت أولادي وأنت ابنتي وأحلى بنت في الدنيا.

فرد أحمد:

- طبعا يا ماما.. على رأي المثل: الإيه في عين أمه غزال..

ولم تتركه أمنية يكمل جملته فإذا بها تنقض عليه فاستسلم قائلاً:

- أنا أقصد الغزال في عين أمه غزال.

- عموماً سوف أسامحك من أجل أصحابك.

واستمرت الجلسة حتى ميعاد الغداء وصممت والدة أحمد أن نتناول الغداء سوياً وعندما قلت ولكن أمي بالبيت تنتظرنا على الغداء ردت قائلة:

- عموما الأكل اليوم من صنع أمنية وأريد أن أعرف رأيكم تنفع تكون ربة منزل أم لا.

- يا ماما لقد اتفقنا على أن نقول اليوم ذلك بعد الأكل وليس قبله..

- أنا قلت ما لديَّ وأنت عليك إقناع أصحاب أخيك بالغداء معنا.

كم كانت سعادتي غامرة بهذه الجلسة التي لم أتوقعها أبداً.. لقد كان كل أملي أن أراها وأصافحها أو أنظر إلى وجهها أو عينيها حتى أستمد منها رحيق الحياة.. أما أن أجلس هكذا وهي تمر أمامي وتكلمني وتسألني عن رأيي في طعامها حتى ولو شاركني في ذلك آخرون مثل أخي ومصطفى وأخيها طبعاً.. فقد كانت مفاجأة سارة.. بل بدا لي الأمر كله وكأنه حلم يشاركني فيه البعض بهجة وجودي مع حبيبة القلب لأنني لن أحتمل أن أكون معها ولأول مرة بمفردها لمدة ساعات دون أن يشاركنا أحد. وعند مغادرتنا، وقبل أن أحدد موعداً قادماً للقائنا إذا بأمها تتوقف ثم تنظر إلينا وتوجه الحديث لي قائلة:

- نراك بعد التخرج يا حضرة.. لا داعي لذلك.. يا يحيى.

- طبعاً.. طبعاً.. إن شاء الله.. قبل أن أستلم عملي سوف آتي ومعي الوالد إن شاء الله لكي نزوركم.

ورد أخي الأكبر مؤمناً على كلامي

- طبعاً هذا شرف كبير لنا.

وعند هذه الكلمة نظرت الأم إلى ابنتها فانسحبت راجعة إلى المنزل بعد أن ودعتني ثم نظرت إلينا:

- طبعاً أمنية قالت لك إننا كنا نحتفل بك على طريقتنا قبل التخرج.

- طبعاً.. لكن لست في حاجة إلى طعام خاص.. يكفي وجودي معكم.

- صحيح.. أنت مثل أحمد وأنا أعرف أنك أكثر واحد يمكن أن يحافظ على

أمنية وإذا كنت أنت اخترت بشكل صحيح فأنا أيضاً واثقة من أن ابنتي اختارت الرجل الذي يحميها ويحافظ عليها مثلما يحمي البلد ويحافظ عليها.

ثم مدت يدها وصافحت أخي الأكبر وعندما مددت يدي أصافحها إذا بها تأخذني بين ذراعيها كما فعل القائد المعلم بالأمس فشعرت ببهجة غامرة وسألت نفسي أثناء عودتي إلى المنزل: هل أستحق أنا كل هذا الحب؟

عدت يوم الجمعة مساءً إلى الكلية وكلي رغبة أن تنتهي هذه الأسابيع الثلاثة بسرعة حتى أرى أمنية وأحقق أولى أمنياتي في الحياة بالارتباط بها كشريكة عمر في بدء حياتي العملية.. شعرت بالكلية بحركة غير عادية ولكني لم أهتم كثيراً.. فهذا يوم العودة للطلبة وللضباط والجنود الذين يقضون إجازاتهم بالمنزل.. ذهبت إلى سريري ووجدت زميلي الذي بجواري نائماً.. وعندما نظرت إليه ملياً عرفت أنه مستيقظ فقلت له:

- هل تريد أن تنام؟

- أنا أشعر بتعب وأريد أن أنام مبكراً.

- أنا أشعر أنني لن أستطيع أن أنام الليلة.

- طبعا لقد كنت مع حبيبة القلب.

- مبروك.. ألف مبروك.. حاول أن تنام لأني عرفت أن الغد يوم مشحون.

- سأحاول وإن كنت لا أستطيع أن أعدك بذلك.

وفعلت.. حاولت وإن كنت لم أحاول جاهداً فقد شعرت بأنني مازلت في حاجة لوقت حتى أستوعب أحداث هذا اليوم والتي سوف يكون لها تأثير على

حياتي ومستقبلي.. شعرت ببعض الزملاء يتهامسون مع زميلي الذي ينام على السرير الذي بجواري ولاحظت من طرف عيني أن الحديث يدور حولي ولم أهتم بذلك كثيراً.. يقيناً أن زميلي قد أخبرهم بموضوع الخطوبة وأنني سأكون موضوع نميمة هذه الليلة ولم يزعجني ذلك بقدر ما أسعدني وظلت أحلام اليقظة تراودني حتى أصابني سهم النوم دون أن أشعر بنصله وإن كان لم يحرمني أن أواصل تلك الأحلام أثناء النوم.

شعرت بوجود جميع ضباط الكلية وكذلك المساعدون والجنود وكانت هناك مائدة معدَّة في المكان الذي كان يقف فيه مدير الكلية إذا أراد التحدث إلينا في موضوع مهم وكان عدد المقاعد لمن سوف يجلسون عليها يزيد على العدد المألوف وأرجعت ذلك كله إلى أن اليوم سوف تتم مناقشة مظاهر حفل التخرج بالتفصيل وسيعرف كل ضابط وطالب وجندي دوره على وجه الدقة؛ لأن الخطأ غير مسموح به في تلك المناسبة.. لا أخطاء أمام الرتبة الأعلى.. فما الحال إذا كانت تلك الرتبة الأعلى القائد الأعلى للقوات المسلحة وزعيم البلد والأمة كلها؟! بعد الإجراءات الروتينية للتأكد من وجود الكل في موقعه بدأ مدير الكلية حديثه بآية من القرآن الكريم ولكنها ليست الآية التي تتحدث عن القتال وإعداد العدة لإرهاب عدو الله كما هي العادة إنما آية تتحدث عن الموت وفقد الأحبة ومكانة الشهداء.. قالها بتأثر واضح كمن ينعى صديقاً فُقد للتوِّ في المعركة.. في البداية لم أفهم سر ذلك وأنا أرجعته إلى أن أيا منا قد يموت أو يستشهد أثناء التدريب أو في المعركة، فهذا شيء وارد في الحياة العسكرية وهناك دائما نسبة من الشهداء في التدريبات

الميدانية، خصوصاً إذا تم استخدام الذخيرة الحية وقد عاصرت استشهاد أخ لأحد أصدقائي أثناء إحدى طلعاته الجوية.

بدا حديث المدير يخرج من العام إلى الخاص، مركزاً على أن الشهيد قد يموت في سريره وهو يُحتسب عند الله شهيداً إذا كان قد أدى عمله كما يجب ودون تقصير حتى لو لم تصبح طلقة واحدة.. هكذا جاءت كلماته محددة وقبل أن يكمل جملته "إننا اليوم ننعى أخاً وصديقاً وزميلاً ومعلماً" راحت أفكاري نحو القائد المعلم ونظرت بطرف عيني إلى زميلي في الطابور وجاري في السرير فرأيته ينظر نحوي دون أن يلتفت بوجهه مؤكداً أفكاري، بل رأيت دمعة قد هبطت من عينيه رغماً عنه.. إذاً فحديث الأمس وتهامس الزملاء حولي لم يكن مرجعه موضوع خطبتي كما ظننت.. لقد كانوا بالقطع يعلمون واستطاعوا أن يحجبوا ذلك عني حتى لا يفسدوا عليَّ فرحة اليوم.. يا ربي.. نعم إنه ينعى "القائد المعلم" قائدي وأستاذي وأخي الأكبر كما أخبرني بالأمس القريب.

نعم مازالت كلماته تتردد بين أضلعي وتعيها الذاكرة.. أنا أستاذك أو أخوك الأكبر عندما نكون بمفردنا.. وقائدك أمام الآخرين.. هذا هو ما أكده لي.. هل لي أن أفقد هؤلاء الثلاثة لحظة واحدة.. أستاذي وأخي وقائدي؟! نعم لقد كان مثالاً لكل هذا.. ما أشعرني أبداً أثناء تواجدي بالكلية بأنني أفتقد حنان الأب أو نصيحة الأخ الأكبر ورعايته أو اهتمام الأستاذ بتلميذه وحرصه على تفوقه الدائم.. اليوم بعد أن شعرت أن الحياة بدأت تبتسم لي بعد أن وضعت أولى خطواتي علي طريق المستقبل وظفرت بمن ستكون شريكة لي في رحلة الحياة

وتحقيق الأحلام.. اليوم أفقده.. لم أستطع أن أتبين كل كلمات مدير الكلية التي كان يرثي فيها أستاذي وقائدي.. وإن كنت لا أعتقد أن كلمات اللغة وقصائد الرثاء كلها لن تعطيه حقه.. ثم بدأ زملاؤه كل يقول كلمة يتحدث فيها عن عمله أو تواضعه أو أخلاقه سواء بين الزملاء أو مع من دونه علماً أو مكانة.. ودون سابق إنذار نودي على اسمي في الميكروفون حتى أقول كلمة نيابة عن الطلاب.. كانت دهشتي بقدر عدم رغبتي في الكلام.. ماذا أقول؟! صحيح أنني كنت أكثر الطلبة قرباً إليه حتى ظن الكثيرون أن هناك صلة قرابة بيننا أو نسباً بين عائلتينا إلا أنني آخر من يستطيع أن يرثيه.. لقد كنت معه أمس أول وظللت معه حتى العاشرة مساءً ولم أغادر حجرته إلا بعد أن أصرَّ هو على ذلك.. هل كان يعلم أنها نهايته؟ هل أصر على البقاء هذه الليلة في الكلية دون الذهاب إلى المستشفى حتى يموت في المكان الذي تعلم فيه وأحبه وكرس له وقته وحياته؟ هل كان يدرك أنها كانت ليلته الأخيرة فأوصاني أن أهتم بمن هم دوني في المرتبة عندما قال لي "لا تنس من هم أقل منك رتبة"؟ هل كنت أعلم أنا بذلك.. بأنني لن أراه ثانية فحرصت على أن أقضي أطول وقت ممكن معه؟

دارت تلك الأسئلة كلها في ذهني وأنا أتقدم إلى المنصة حريصاً على استجماع كل قوتي أمام كل هذا الحشد من القادة والجنود والطلاب.. لم أقل كثيراً رغم أن داخلي كان يموج بكل معاني الحب والإخلاص لهذا الإنسان، ولكن كيف يمكن أن تترجم تلك المعاني إلى كلمات مع أن حروف الأبجدية لا تسمح إلا بالتعبير عن مظاهر الحياة العادية والمشاعر الإنسانية؟ أما المشاعر العميقة فقد تحتاج لغة

أخرى وأبجديات أخرى. ولحظات يتعدى مجموعها كل أيام الإنسان على وجه الأرض.. لا أذكر ما قلته تماما ولكن تذكرت أنني قلت: لقد كان لي معلما وقائدا وأخا أكبر.. وكنت أتمنى بعد تخرجي أن أعمل معه وقد عبرت عن ذلك له مراراً.. وكذلك كل زملائي يعلمون تلك الرغبة.. أما الآن فلا أدري ماذا أريد فعلاً بعد أن رحل وستبقى ذكرى الساعات الأخيرة التي قضيتها معه بعد انصراف كل القادة هي رصيدي الذي أعتز به وأعتقد أنه كان مكافأة السماء ودليلا على مدى حبي وإخلاصي له.

وعند تراجعي للخلف بعد أدائي التحية العسكرية وفي أثناء عودتي حتى أقف مكاني سارع نحوي أحد ضباط الكلية وأخذني معه بناء على توصيه المدير إلى استراحة الضباط والتي كانت شبه خالية إلا من عامل البوفيه وهمس في أذنه بكلمات لم أتبينها ثم خرج.. دُهش الجندي في بادئ الأمر لرؤيتي ثم قال لي في وداعة:

- حضرة اليوزباشي أمر بأن تستريح هنا حتى ينتهي الطابور.. ماذا تريد أن تشرب؟

- شكراً.. مياه لو سمحت.

- لا.. يجب أن تشرب شيئا آخر. سوف أعمل لك كوبا من الليمون مثل الذي أجهزه لسيادة المدير نفسه.

- شكرا.

أعطاني كوب الليمون وتركني وحدي في ذلك العنبر الفخم نسبياً بالمقارنة

بعنبر الطلاب، ولا أدري هل أنهيت شرب الليمون أم لا، فقد كنت بحاجة شديدة إلى أن أكون بمفردي والحمد لله لم يكن هناك أحد بالعنبر وكل ما أذكره هو أنني خلعت حذائي وارتميت على السرير ويبدو أنني في تلك اللحظة فقط أدركت فقدي لهذا الإنسان العزيز فانهمرت مني الدموع وعلا صوتي بالنحيب ولم أبال إذا كان سوف يسمعني أحد أم لا، فقد كنت في حاجة إلى أن أخرج مخزون الحزن في نفسي قبل أن يتحول جسدي إلى قنبلة يؤدي انفجارها إلى احتراق الأخضر واليابس.

لقد كان الجميع كريماً معي.. الزملاء والضابط. لقد أحسوا جميعاً بفجيعتي في القائد المعلم ولأنه كان محبوباً من الجميع فقد كانوا يترجمون حبهم له في معاملتهم معي بعد أن علم الجميع بمقدار العطف الذي كان يوليني إياه.. ورغم أن أحد القادة أشار على مدير الكلية بأن يستبعدني من طابور العرض الرئيسي الذي سوف يكون الأقرب إلى القيادات فإنه رفض وقال بحسب ما أخبرني سكرتير مكتبة إن تلك كانت وصية القائد المعلم ولن أغيرها وأنا واثق أن يحيى سوف يكون عند حسن ظني.. بالطبع أسعدني ذلك كثيراً وصممت أن أكون دائما عند حسن ظن الجميع حتى إن تطلب ذلك مني مزيداً من الجهد والتدريب.

ذهبنا جميعا إلى العنبر مبكرين ساعة عن ميعاد النوم الرسمي حتى نكون في غاية النشاط عند الاستيقاظ في اليوم التالي.. كان كل شيء معداً على أتم وجه.. زينت جدران الكلية بصور الزعيم.. ومقتطفات من خطبه.. تمت كتابتها بعناية على أقمشة بيضاء وكانت تتمايل بين أحضان النخيل التي علقت عليه.. أما أرضيه

الكلية فتم غسلها بعناية مع وضع زهور مختارة بعناية في كل أركان الكلية بينما اختفت كل سيارات القادة التي كانت تجد دائما لها مكانـا حيـث تريـد أو يريـد سائقها.

بعد انتهاء البروفة النهائية طُلب منَّا أن نستريح ونظل في أماكننا ثـم نـزل مدير الكلية وضيفه وأخذا يتحدثان إلى بعض الضباط ومسئولي الأجنحة المختلفـة وقاما بالمرور أمامنا نحن في وضع الراحة وعندما ظهر أمامي فاجأني مدير الكليـة قائلاً:

- هل ستعمل معنا هنا في الكلية أم ستخدم بلدك خارج الكلية؟

ورغم أن السؤال فاجأني فإنني رددت سريعاً:

- سأعمل في المكان الذي تختارونه لي يا أفندم، أنا دائما تحت الأمر.

بدأ توافد الضيوف.. الرتب والشخصيات الأقل ثم الرتب الأعلى، وكان كـل يعمل في مكانه الذي خُصِّص له، وكذلك كانت هناك مجموعـة مـن ضـباط الكليـة لإرشادهم إلى أماكنهم.. ثم بدا توافد الضيوف من أهالي الطلبـة وضـباط الكليـة.. كنت أود أن أنظر إلى الحاضرين إلا أنـني كنـت قـد ابتعـدت كـثيراً عـن مقـصورة الضيوف فلم يعد بإمكاني تمييز أحد من الحاضرين سوى تلك الشخصيات المهمـة التي تجلس في المقدمة انتظاراً لوصول الرئيس.. بعد أن جلس الجميع وتأكد مدير الكلية بنفسه من النظام مرَّ على الحاضرين من القادة وبعض الشخـصيات المدنيـة المهمة من محافظين ووزراء وصحفيين وحيا كلاً على حدة.

نزل المدير ومعه بعض الضيوف واتجهوا إلى مكتبه ولم يمض وقـت طويـل

حتى ظهر الرئيس ومعه القائد العام ورئيسا الأركان وكان بصحبتهم مدير الكلية واتجهوا جميعا إلى المكان المخصص لهم في المقصورة الرئيسية وعند اقترابهم تعالت الصيحات والهتافات والتصفيق، خصوصا من المدعوين المدنيين، وهنا توقف الزعيم قليلاً ونظر إليهم وحيَّاهم بطريقته المعهودة وجلس مكانه ومعه كبار القادة. كان ذلك واضحا لي وظل مرسوماً في مخيلتي إلى الآن وكانت المرة الأولى التي أرى فيها القائد والزعيم رأي العين.

بدأ طابور العرض وكنت في الترتيب الخامس من حَمَلة الإعلام ومع كل خطوة وعلى أنغام الموسيقى العسكرية ومع اقترابي من مكان جلوس الرئيس كنت أشعر أنني أكاد أطير من على الأرض وأن وزن العلم المثبت بجانبي يقل شيئاً فشيئاً حتى شعرت أنه قد استحال إلى مظلة توشك أن تأخذني معها إلى عنان السماء.. عند اقترابي من مكان الرئيس استطعت أن أراه جيدا بطرف عيني.. نعم هو قائدنا الأكبر ومعلمنا الذي لا نرضى عنه بديلاً.. نعم هو وبجانبه سيادة المشير.. يبتسمان لنا ويرفعان أيديهما لتحيتنا.. إنهما أيضا فخوران بنا مثلما نحن فخورون بهما. استمر الطابور وواصلت السير وإن كنت قد تمنيت أن يتوقف الزمان قليلاً حتى ترتوي النفس من ذلك المنظر المهيب. الزعيم ومعه القادة جميعا يأتون لتحيتنا.. ياله من يوم عظيم.. نسيت معه كل شيء.. أهلي الذين يجلسون بين المدعوين.. قائدي المعلم الذي فقدته من وقت قصير.. حتى تلك النجمة التي تزين كتفي في هذا اليوم ولأول مرة تعلن انضمامي رسمياً لخدمة قوات بلادي المسلحة.. نسيتها.. اختفت كل صورة من مخيلتي.. تاهت كل الأفكار في رأسي.

لم يعد أمامي سوى صورة القائد الزعيم ومعه القائد العام.. حتى باقي القادة لم أتبينهم جيدا ولم أهتم بذلك الآن أستطيع أن أقول إنني أصبحت فرداً في هذا الوطن.. له دور عليه أن يؤديه.. له مكان يمكن أن يحتله به ولن يسمح لأحد أن يستولي عليه مهما كان الثمن فهذا هو ما تعلمناه في الحياة العسكرية.

4

بعد انتهاء العرض سُمح لنا بإجازة لمدة عشرة أيام نستريح فيها من عناء الدراسة والتدريبات الشاقة التي سبقت حفل التخرج على أن يتم توزيع كل منا في المكان الذي تراه الكلية أو الوزارة مناسباً طبقاً لاحتياجات الوطن كنت متردداً هل أقبل ما رأيته عرضا من المدير أن أخدم في سلك التعليم العسكري مقتفياً خطوات أستاذي القائد أم أخدم وطني في الميدان حيث سوف يمضي معظمنا.. العمل بالكلية في سلك التعليم هو شرف لا يناله إلا المتفوقون من أوائل الخريجين ويمتاز بالبقاء قريباً من الأهل والمسكن، كما أنه يسمح بالسفر خارج البلاد لزيادة التحصيل والتدريب على أحدث ما وصل إليه الفن العسكري سواء في العلم أو السلاح وإن كان لن يعطينا شرف المشاركة في الميدان إذا نشبت الحرب، خصوصا أن العدو كان بجوارنا، كما أن قواتنا المسلحة كانت تعتبر درعا للوطن العربي بأكمله.. لم أتخذ قرارا بذلك وحسبت أن لديَّ الوقت الكافي أو أن هناك من سوف يقررون ذلك ولن يكون عليَّ سوى أن أطيع الأمر كرجل عسكري.. عند عودتي مع والدي وأخي بعد انتهاء العرض لاحظت أن هناك شيئاً يحرصان على إخفائه عني؛ لأن مظاهر الفرحة التي توقعتها لم تكن طاغية بالشكل الكافي.. تحدثت

معهما في الطريق إلى المنزل ولكنهما أنكرا تماما أن هناك سرا أو ما يستدعي أن يخفياه. وبالطبع لم يفُتني أن أسأل عن أحمد صديقي و"أمنية" التي سوف تصبح خطيبتي في غضون بضعة أيام.. وعندما تحدثت مع والدي في ذلك أظهرا لي أنني أحسنت الاختيار وأنهما لا يمكنهما أن يجدا أفضل منها كشريكة حياة وإن كانت أمي ولأول مرة أعربت عن رغبتها في أن يتزوج أخي الأكبر أولا ثم يكون الدور عليَّ أنا.. بالطبع لم أعترض وإذا بي أقول موجها الكلام لأخي:

- يبدو أنك ستقف في طريق سعادتي.. ابحث لك عن عروس قبل أن يفوتك القطار.

- طبعاً سوف أجد عروساً.. وقد نتزوج في ليلة واحدة.

- يا رب يا أولاد.. يا رب.

لم أستغرق طويلا حتى ذهبت في نعاس طويل.. لا أعتقد أنني استيقظت أثناءه، حتى قرب ميعاد الصلاة.. بعد الانتهاء من الصلاة التقيت أحمد صديقي ولم نتحادث طويلا؛ لأنه أخبرني أنه كان عليه أن يعود سريعا لوجود أقارب له بالمنزل وأن والده غير موجود كالعادة.. لاحظت أنه لم يكن مرحاً كعادته.. كما أنه فقد الكثير من وزنه.. وإن كنت أرجعت ذلك إلى فترة مرضه السابقة قلت إنني سأراه الليلة بالمنزل.. فرد عليَّ أنه سوف يأتي لزيارتي؛ لأن منزله مزدحم بالكثير من أقاربه.. لم تعجبني الفكرة كثيراً.. كنت أتمنى أن أذهب أنا.. إلا أنني لم أستطع إلا أن أرحب بزيارته وقتما يشاء.

جلسنا جميعا بعد الغداء ولاحظت أن والدي قد أصر على أن تجلس أمي

معنا لتناول الشاي؛ حيث إنها تكون في ذلك الوقت مشغولة بترتيب المطبخ قبل أن تنال قسطاً من الراحة بعد صلاة العصر.

نظر والدي إليَّ قائلاً:

- لقد قلت بالأمس إن الزواج قسمة ونصيب.. صحيح أن كل شيء قسمة ونصيب في الحياة، والإنسان المؤمن يجب أن يرضى بنصيبه مهما كان.. إلا أنه في موضوع الزواج يكون موضوع النصيب واضحاً جداً.

- يظهر من كلام حضرتك أنك غير موافق على خطبتي الآن!

- أبداً.. أنا عندما عرفت الموضوع من أخيك الكبير بعد زيارتك الأخيرة.. كنت في غاية السعادة.

- ماذا حدث حتى تغيروا رأيكم؟

- حدث أن ربنا لا يريد ذلك.

- ربنا لا يريد ذلك! يعني أبوها اعترض.. أمها وأخوها كانا موافقين.

- يا بني أنا قلت ربنا وليس أباها.

- لا إله إلا الله.. أنا لا أفهم شيئاً!

- يعني يا بني ربنا استرد وديعته.. فهمت الآن. وهذه هي إرادته..والإنسان المؤمن يرضى دائما بنصيبه.

نظرت إلى أبي وأنا أتمنى أن أكون قد فهمته خطأ أو أنه لا يقصد ذلك المعنى.. ربنا استرد وديعته يعني.. أمنية ماتت؟ معقول؟ كيف؟ متى؟ لقد كانت في أتم صحة وعافية عندما تركتها منذ 3 أسابيع.. أبعدت الفكرة عن رأسي

ونظرت إليهم واحداً بعد الآخر حتى يقول لي أحدهم إن والدي لا يقصد ذلك أو إن الموضوع كله عبارة عن كابوس ثقيل وإنني مازلت في سريري أعاني متاعب الأيام الماضية.. نظر أخي إلى الأرض ولم يقل شيئا.. أما أمي فعندما نظرتُ إليها أستنجد بها كقارب نجاة في هذا البحر المتلاطم من الأفكار التي تعصف برأسي فقد فقدت تماسكها التي كانت تبدو عليه فإذا بها تهوي بآخر ما تبقى من قلوع مركبي الذي كنت متشبثا به وتلقي بي في خضم الأمواج حتى قبل أن أتمكن من التعلق بطوق النجاة الوحيد الذي كان على مرمى البصر ولكني انزلقت وهبطت إلى القاع قبل أن أتشبث به..ومثل الغريق الذي يطفو ثانية.. نظرت مرة ثانية إلى أبي حتى يعطيني تعليلاً لما يقوله فيستوعب ما تبقى من إدراكي معنى كلماته:

– يا بني.. أمنية ماتت من أسبوع.. النار اشتعلت في المطبخ وعندما أتت المطافي والإسعاف كانت عند ربها.. والحمد لله أنها ماتت بدلاً من أن تعيش وهي...

عند هذا الحد توقف أبي.. لم يرد أن يقول تلك الكلمة التي قد تؤذي مشاعري أو عقلي حتى لا أراها في شكل آخر غير ما اعتدت أن أراها عليه دائماً.. هذه المخلوقة البريئة التي لم أرَ أجمل أو أرق منها.. تموت..تشتعل فيها النيران.. لماذا؟ ماذا فعلت؟ لا أعتقد أنها قد آذت أحداً في عمرها القصير ذلك.. إن النيران هي شكل العذاب الذي أعده الله للعصاة والمجرمين يوم الحساب.. هل كانت من هؤلاء العصاة؟ إنني أعرفها منذ أيام الطفولة.. ولا أعتقد أنها يمكن أن تكون في زمرة هؤلاء المطرودين من رحمة الله.. ربي.. إذا كنت أردت أن تستردها

إليك فهناك وسائل عدَّة لمفارقة هذه الحياة.. كان من الممكن أن تموت وهي في سريرها أو في منزلها دون أن يصيب جسدها مكروه.. إنك أردت أن تعذبها بالنار قبل أن تستردها.. لماذا؟ ماذا فَعَلَتْ؟ هل من الممكن أن تكون قد عصتك بعيداً عن كل الأنظار فأخذتها أخذ عزيز مقتدر؟ هل يمكن لها أن تفعل ذلك؟ أدرك أخي مدى عذابي ورأى جيش الأفكار التي يزدحم بها عقلي فاقترب مني وضمني إلى جواره قائلاً:

- لا أحد يستطيع أن يغير المكتوب، وهذا مكتوب عليها ومكتوب عليك أيضا، وكلنا نعلم كم كنت تحبها وكل المطلوب منك أن تطلب لها الرحمة الآن وتدعو لها.

لا أدري لم استعمل أخي فعل الماضي عندما أشار إلى حبي لها.. كنت أحبها.. يعني أنا الآن لا أحبها! ألم أعد أحبها؟ بالطبع هو لا يقصد ذلك.. في تلك اللحظات التي مرت عليَّ كثيراً وكنت أرى أن الكلام لا يمكن أن يعبر عن مدى حبي لها لم أشعر بالضيق لعدم قدرتي على ذلك.. بل أحياناً كنت أشعر بالسعادة؛ لأن هذا يعني لي مدى صدق ذلك الحب وعمقه حتى إن كلمات اللغة تعجز عن أن تسبر غوره.. كنت أحلم بذلك اليوم الذي يمكن أن أستطيع أن أترجم بعضاً من مظاهر ذلك الحب فيه عندما نكون معاً.. كنت أحلم أن نظل معا إلى آخر العمر حتى تأتي لحظة الفراق والتي ما كانت ستكون طويلة؛ لأنه إذا مضي أحدنا فسوف يلحق به الآخر دون انتظار.. ورغم إدراكي أن الخطر هو جزء أساسي من عملي فإنني كنت على يقين بأن الله سوف ينجيني دائماً من كل معارك الحياة

حتى أعود دائماً إليها فتستقبلني بتلك الابتسامة التي كانت سر جمالها.

أنا أطلب لها الرحمة.. لقد كانت ملاك الرحمة لي ولكل من حولها فكيف لمخلوق مثلي أن يطلب لها الرحمة؟! لقد كانت تجسيداً لكل أشكال الرقة والرحمة.. وإذا كان الله يريد لها الرحمة فلِمَ أخذها بهذا الشكل الذي لا تبدو فيه مظاهر الرحمة.. شعرت بأن رأسي قد أصبح ميداناً لكل أنواع الأفكار وأن شياطين الأرض والسماء قد وجدت فيه مكانا رحيبا للتصارع وسوف أكون أنا أول ضحاياه.

وأخذني أخي إلى حجرتنا وقال:

- أرى أن تستريح الآن لأن أحمد سيأتي ليلاً ليراك.

نظرت إليه ولم أحر جوابا.. إلا أنه ساعدني في وضعي في السرير ولم يخرج إلا بعد أن اطمأن أن هناك كوباً من الماء بجواري وكذلك المصحف وقد تركه لي مفتوحاً وأشار إلى آية بعينها ما إن وقع عليها بصري حتى أدركت أنها الآن مع الشهداء.. فهي الآن حية عند ربها.. وأدركت في تلك اللحظة أنني قد شططت بأفكاري بعيداً.. كيف لم أدرك حكمة الله في استردادها لديه بهذا الشكل حتى تحظى عنده بكل أنواع النعيم الإلهي الذي ما كان لأحد أن يجود به عليها.. ورغم الراحة التي شعرت بها عندما علمت أنها هناك وأننا سوف نلتقي ومن يدري لعل يوم اللقاء قريب؟! رغم ذلك فإن الدموع التي كانت قد تحجرت في منابعها بدأت تجد طريقا لها ووجدتني أرفع يدي إلى السماء وبدلا من أطلب لها الرحمة وجدتني أطلب من الله لنفسي الرحمة والمغفرة، أما هي فهنيئاً لها ما أعده الخالق من جنات ونعيم.

أفقت من نومي على أذان المغرب وبعد أن أديت الصلاة جلست مع والديَّ اللذين سُرَّا كثيراً لذلك الهدوء الذي بدأ يسري بين جوانحي ولأنهما استطاعا أن يزيحا من على نفسيهما ذلك الهم الذي جثم عليهما طيلة أسبوع.

– هل عرفت ما الذي تنويه؟ تشتغل في الكلية أم في إحدى الوحدات؟

قال والدي وهو ينظر إليَّ وكأنه يقول لي إنني أعرف جوابك مسبقاً.

– أعتقد أني سوف أخدم في أية وحدة بعيدة عن هنا.

– عموما مازالت هناك عشرة أيام تقضيها معنا حتى نشبع منك قبل أن تسافر.

– طبعا.. طبعا.. وقلت في سري: لم يصبح لي مكان آخر أقضي فيه إجازتي ولا آخرون أستمتع بصحبتهم.. وكأنما أدركت أنني لم أعطِ والديَّ حقهما فتابعت قائلاً:

– سوف أقضي كل الوقت معكما لن أخرج إلا للصلاة في الجامع ومن أرادني من أصحابي فليأتِ إلى هنا.. هذا أقل واجب.

ونهضت من مكاني وقبَّلت يد والدي ثم يد أمي كتعبير عن الامتنان لما بذلاه معي ومع أخي الأكبر وإن كنت الآن قد أصبحت رجلاً يُعتمد عليه فذلك بفضل الله ورعايتهما.

– تعالَ يا أحمد.. ادخل.. يحيى في انتظارك.

بهذه الكلمات اصطحب أخي صديقي أحمد إلى الداخل حيث كنت جالساً مع والديَّ اللذين نهضا حتى نتحدث بشيء من الحرية.

نظرت إلى أحمد الذي نظر إليَّ بدوره وفي نفس اللحظة وقبل أن نجلس تعانقنا للمرة الأولى كما لو أننا لم نرَ بعضنا منذ سنوات.. كان عناقا طويلاً انسكبت فيه الدموع التي لم أدرِ كيف لم تنضب حتى الآن.. أراد كل منا أن يبث الآخر أحزانه.. أراد كل منا أن يفرغ تلك الطاقة الكامنة داخله قبل أن تصبح بركاناً يطيح بالنفس والجسد في آن واحد.

– لا داعي لمعرفة تفاصيل ما حدث؛ لأنها سوف تزيد أحزانك وأنا أعرف كم كنت تحب أختي وكنت أعرف أيضاً أنها كانت تحبك ولثقتي فيكما لم أتحدث مع أحد وكنت أتمنى أن تكون من نصيبها.

– ولكن ربنا أراد شيئاً أفضل؛ لأنها تستحق أكثر بكثير مما كان من الممكن أن أوفره لها.. مهما عملت.. ما كنت أستطيع أبداً أن أوفر لها النعم التي هي فيها الآن.. يكفي أنها مع الشهداء.

– فعلاً.. عندك حق، الكل يقول ذلك.. صحيح هي تعذبت فترة لكن الحمد لله أنها رجعت لخالقها.. لا أريد أن أقول ماتت لأن الشهيد دائماً حي.

– أعتقد أن كل أعمالها طيبة لا أعتقد أنها عملت شيئاً يمكن أن تحاسَب عليه.

– أنت كنت تحبها.. واحترمت صداقتنا وعلاقة الجيرة.. وهذا شيء غير موجود دائماً.

– ربنا يعلم.. أنا احترمت صداقتنا لأبعد حد.. كنت أنوي أن أخبرك ولكن في اللحظة المناسبة.. سبحان الله نتكلم لأول مرة في الموضوع.. متى؟ بعد رحيلها!

- صحيح هذا هو عبث الأقدار مثلما يقول الفلاسفة.

- أبداً.. أفضل أن أسميه المكتوب الذي لا يستطيع أن يهرب منه الإنسان.

- لقد كانت لأمنية رغبة أخيرة..

- ما هي؟

سكت صديقي قليلاً حتى يتماسك ويقوى على الكلمات وقص عليَّ أنه دخل يوما على أخته فوجدها تسارع بوضع شيء في درج مكتبها وعندما أصر على رؤية ذلك الشيء إذا به يجد تانك النجمتين وبالطبع فهو أدرك أنها قد اشترتهما لكي تهديهما إليَّ عند التخرج واحتفظت بهما طوال ذلك الوقت ولم تخبر أحداً.. وعندما سألها عن سبب وجودهما.. لم تجبه.. فنظر إليها وقال لها إنه يعلم ما بيننا ولا يعترض عليه ما دمنا لا نلتقي خارج المنزل والحب الشريف لا غبار عليه.. وبالطبع شعرت براحة شديدة وأكدت له أن حبنا من ذلك النوع.

- وبعد الحادثة تذكرت النجمتين فوجدتهما في مكانهما بالدرج.. فقررت أن أعطيهما إليك احتراماً مني لذلك الحب الطاهر الذي كان بينكما.

أخذت النجمتين وتفحصتهما بعناية بأطراف أصابعي كما يفعل صانع الجواهر مع قطعة نادرة أو ثمينة لديه وراح ذهني لتلك اللحظات عندما كانتا يوماً ما بين أصابعها.. وتذكرت يوماً أثناء انصرافي أنني رأيت شيئاً يلمع كالنجمة وهي في وداعي من خلف نافذة حجرتها وإن كنت لم أتأكد من هذا في ذلك اليوم.. يا ربي.. أأستحق أنا كل هذا الحب؟!

- لا أدري ماذا أقول لك.. سوف أحافظ عليهما أكثر من حياتي.

- لا طبعا.. حياتك أهم.. عموماً تستطيع أن تشكرها هي وتطلب لها الرحمة.

- أطلب لها الرحمة؟ هي التي تطلب لنا الرحمة.

نظر صديقي إليَّ وبدا لي أنه لم يفهم ما أقصده أو أنني من فرط مشاعري لم أدرك ما أقول.. من يطلب الرحمة لمن؟ لماذا دائماً الحي هو الذي يطلب الرحمة للمتوفَّى؟ لماذا لا يكون العكس؟

- لا أريدك أن تأتي الآن عندنا في المنزل حتى يسترد المكان حالته الأولى ونزيل آثار الحريق.

- طبعا.. فاهم.. عموما أنا موجود يوميا لمدة عشرة أيام وأتمنى أن أراك كل يوم.

- طبعا.. سأمر كل يوم بعد صلاة العشاء.

قال ذلك ونهض واقفا وعندما أصررت أن أرافقه لبعض الطريق رفض متعللا بأنني مازلت مجهداً وأنني بحاجة للراحة وودعني على وعد باللقاء في مساء الغد.

° ° °

وجدت نفسي مكلفا بالخدمة على الحدود المصرية عند آخر نقطة للجيش المصري بالمنطقة.. رغم أنني كنت من المتفوقين الذين يتم توزيعهم للخدمة في المناطق الحضرية أولا لتحقيق أقصى استفادة من إمكاناتهم إلا أنني قلت لنفسي: هذا أمر الله ولعله أراد أن يبعدني عن العمران وأماكن الذكريات إلى أقصى حد..

سواء ما يذكرني بالقائد المعلم أو برحيل رفيقة العمر.

كنت أشعر بضآلتي أمام البحر الممتد أمامي والأفق الذي يلامس بحنان منبع تلك المياه دون أن يحبسها بين طياته بل يتركها في حرية كاملة.. تبتعد ثم تعود في رحلة لا تشعر معها بالملل بل تتجدد دائماً.. تتحد تلك القطرات معاً فإذا بها تأتي أحياناً دون سابق إنذار وتشكل معا تلاً عالياً يأخذ شكل موجة عاتية تطيح بما هو على الشاطئ.. وأحيانا تأخذ معها ما بناه الإنسان.

- في ذلك المكان المنعزل تقريبا عن كل مظاهر الحضارة والعمران أمضيت سنتين من عمري.. لا أعتقد أنهما ذهبا هباء كما كان يقول بعض زملائي أو قائد الوحدة الذي كان يتمنى دائماً العودة إلى الحضر.. بدأت أشعر بمزيد من الهدوء الذي بدأ يحل محل الحزن والسخط على من فقدتهم من الأحباب.. بت أدرك وأنا مازلت في هذه السن الصغيرة أن هناك حكمة إلهية لكل أشكال الحياة وتصريفات الأقدار.. قد ندركها أحياناً بعقولنا المتواضعة فنرضى بحظنا ولا نتركها في معظم الأحيان فنسقط ونشعر أننا أصبحنا كحبات الرمل الصغيرة التي تبتلعها الأمواج وتأخذها إلى حيث لا تدري.. وجدت نفسي بعد مرور سنتين مطلوباً للخدمة في إحدى الوحدات الرئيسية التي لا تبعد كثيراً عن القاهرة.. وأتاح لي ذلك أن أرى أهلي بصفة يومية تقريبا وأن أزور أصحابي الذين ابتعدت عنهم مرغما أو طائعا.

وفي أحد الأيام وقبل انصرافي من العمل استدعاني قائد الوحدة إلى مكتبه.. لم يكن ذلك غريباً عليّ فقد كان يكلفني أحياناً بأعمال يغلب عليها الطابع الفني ويرى أنني الأقدر بالمقارنة بباقي الزملاء على إنجازها على أتم وجه.. بدخول

المكتب فوجئت بوجود مدير الكلية جالسا يتبادل الحديث مع الجالس بجواره، فأسرعت إليه بعد أن أديت له التحية.. وقال:

- أخبارك إيه؟ مرتاح هنا؟ أعتقد أنه أحسن من وحدة الحدود.

- أعتقد ذلك يا أفندم.. كنت محتاجاً بعد سنتين أن أرجع ثانية لأكون قريباً من أهلي وأصدقائي.

- كنت أعلم أنك محتاج لذلك.. ولذلك طلبت نقلك لهذه الوحدة حتى تكون قريباً من أهلك ومن الكلية؛ لأننا سوف نحتاج إليك في بعض الدراسات الخاصة بمشروعات الكلية.

- هذا شرف كبير لي يا أفندم.. وسيادتك عارف أنا تحت الأمر دائما.. يمكنني بعد انتهاء عملي هنا أن أذهب إلى الكلية.

- عموما سنناقش ذلك ونحن في الطريق سويا إلى الكلية.

انصرفت معه في السيارة وكان معنا أحد الضباط الكبار الذي لم ألتقه من قبلُ وعرفت من المدير أنه أحد المسئولين عن تدريب الضباط على الأسلحة الحديثة.

- أنا رشحتك للسفر لبعثة إلى موسكو.

- شكراً يا أفندم.. شكراً.. متى أستطيع أن أستعد للسفر؟

- بعد شهر.. وحتى ميعاد سفرك، فأنت ملحق على المكتب الفني بالكلية للاستعداد لذلك.

- هذه بعثة سنة ستتدرب فيها على نوع معين من الأسلحة بعدها تعمل في

الكلية وتأخذ مكان صديقك الذي رحل عنا فجأة.. إذا كنت مازلت تـذكره وأنـا لا أشك في ذلك يجب أن تدرس وتنضم لمعلمي الكلية.

- أعد سيادتك أنني سأكون عند حسن ظنك.

* * *

شعرت وأنا خارج الوطن بغربة شديدة بدأت منذ أن أقلعت الطائرة مغـادرة مطار القاهرة متجهة إلى موسكو.. كانت الطائرة تقريباً ممتلئة بالمصريين والروس الذين كانوا يعلمون في مصر، إلا أنني شعرت بلون من الحنين للوطن وأنا مازلت بين أحضانه وقد لازمني ذلك الشعور دائماً وكان يلهب ظهـري أحيانـاً.. وكانـت الخطابات التي كنت أتبادلها مـع أخـي وصـديقي أحمـد تقلـل مـن حـدة الغربـة أحياناً.. كنت أشتد على نفسي في التحصيل والتدريب حتى إذا أتى المساء لا أجـد صعوبة في النوم وإن كنت أحياناً لا أنجح في ذلك.. ورغم مظـاهر المدنيـة سـواء في السلوك أو المظهر خصوصاً لدى الجنس الآخر فإنني كنـت أشـتاق إلى ذلـك المكـان البعيد الذي أمضيت فيه عامين على حدود الوطن مع قلة ما فيه من مظاهر الحياة والعمران.. لا أعرف ما سر ذلك.. لقد لازمني ذلك الشعور دائمـاً في كـل أسـفاري التي تلت ذلك والتي كانـت لا تزيـد علـى شـهرين متتـاليين ومـع مـرور الوقـت شعرت أن تلك المدة -أقصد الشهرين- هي أقصى ما أستطيع أن أمضيه بعيـداً عـن بلدي.. نعم تأكدت من ذلك وكنت حريصاً على ألا تكون مدة غيابي طويلة أو كحد أقصى شهرين.. هل هو الانتماء في أبهى صوره؟ هل هو الإحساس بالغربـة الـذي كان يلازمني إذا رحلت ويمنعني من أن أستمتع بالكثير من مباهج الحياة خـارج

الوطن؟ هل الاثنان معا؟ كنت أفتقد كل شيء في بلدي.. حتى مظاهر الفقر والتعاسة التي كانت تبدو على الكثيرين من أبناء وطني سواء لقلة ذات اليد أو لمرض أو لهموم دنيوية أثقلت كاهل من يحملها كنت أفتقد ذلك أحياناً وأنا أزرع أجمل شوارع أو أحياء أوروبا أو أمريكا.

عند عودتي فوجئت بغياب مدير الكلية الذي طلب لأسباب صحية أن يتقاعد وقد أُجيب طلبه وتم تكريمه على النحو اللائق به.. بالطبع استطعت أن أحصل على محل إقامته واتصلت به شاكرا إياه على كل ما فعله من أجلي وقد طلب مني أن أزوره بمنزله ورحبت بذلك كثيراً لأني ما كنت لأجرؤ أن أطلب ذلك بنفسي.

* * *

- حمدا لله على السلامة يا يحيى.

- شكرا يا أفندم.. وشكرا على دعوتكم لزيارتي.

- أنت معك تليفون البيت والآن تعرف العنوان وتستطيع أن تأتي في أي وقت ولكن قبل العاشرة مساءً لأني معتاد على النوم مبكراً.

تحدثنا كثيراً عن بعثتي ودراستي بالخارج وعن أمنيتي في أن أؤدي واجبي نحو وطني بما يرضي ضميري ثم نهضت واقفا مستأذنا في الانصراف حتى لا أطيل عليه وشكرته ثانية على دعوته لي ووعدته بزيارات أخرى.. أصر على أن يقودني إلى الباب.. ومددت يدي أفتحه ويبدو أنه كان هناك من أراد أن يوفر علي هذه المهمة وإذا بالباب يُفتح من الخارج بالمفتاح وإذا دون مقدمات أجد نفسي أمام

وجه ملائكي ظننت للحظة أنه ضل الطريق فاختار ذلك المنزل الذي يتصف صاحبه بأخلاق الملائكة ولكني أفقت على صوت مضيفي قائلاً:

- علياء.. ابنتي الصغيرة.. وهي تقيم معي وترعاني بعد زواج أختها الكبيرة وموت أمها.

رفعت رأسي قليلاً حتى أتأكد أنني أعيش في الواقع وأنها ابنته فعلا وليست مخلوقاً من كوكب آخر أراد أن ينعم علينا بزيارته.. لم أستطع أن أطيل النظر إليها احتراماً لصاحب المكان وخجلاً أمام تلك النظرة النورانية التي تجلت في عينيها ولم أشعر إلا بنفسي وأنا أقول:

- أهلا يا أفندم.

وأتبعتها بالسلام على مضيفي وبينما أنا في طريقي إلى المنزل لم أشعر باللوم لأنني لم أطل النظر إليها احتراما لوالدها ولأنني حتى وإن أردت ما كنت لأستطيع لأنها كانت تحمل كل صفات اسمها.

أمضيت ثلاثة أعوام في وحدتي الجديدة.. كنت فيها مثالا للجندي الذي يخدم وطنه من منطق أن ذلك هو حلم حياته وليس من المنطق العادي وهو أنه يؤدي واجبه.. لم يكن لدي شيء آخر يشغل تفكيري سوى عملي.. زيارة الأصدقاء كانت دائماً بعد العمل إذا عدت من عملي قبل المساء.. أما إذا ظللت به حتى وقت متأخر فلا وقت للأصدقاء وإنما وقت الراحة حتى أكون في أفضل حال في اليوم التالي.. شيئان واظبت عليهما كل يوم تقريبا: قراءة بعض آيات القرآن في الصباح قبل أن أمضي إلى عملي.. وانهماكي في قراءة إحدى القصص أو الروايات

المترجَمة والتي تظل بيدي حتى يهجم عليَّ النوم وأحياناً أستيقظ والكتاب مازال بين يدي.. كان هناك شيء واحد يكاد ينغص عليَّ حياتي وهو رغبة والدي في أن أتزوج.. كان أبي يرغب في ذلك دون أن يتحدث فيه.. أما أمي فلم تجد حرجا في أن تبدي ذلك أمامي عندما نكون بمفردنا أو في وجود أبي حتى يستحثني هو الآخر على ذلك أو عند زيارة أخي الأكبر هو وزوجته وابنته التي كانت دون منازع فاكهة الأسرة ويبدو أنها كانت تدرك ذلك؛ لأنها لا تمل من الطلبات في وجودنا جميعا معها.

كانت أمي تخشى أن تموت دون أن ترى أبنائي.. هذا هو سر قلقها ورغبتها في أن أسرع بالزواج.. ولكن أبي كان يخشى أن أكون بعد صدمة أمنية قد قررت ألا أتزوج أبداً حتى لا أتعرض لمثل هذا الموقف ثانية.. كان أخي أثناء زيارات الجمعة يجلس معي كثيراً بمفردنا.. نسترجع أيام الطفولة والمرح ويعلن أيضاً عن رغبته في أن يراني مكبلاً بأغلال الزواج كما كُبِّل هو بها.. كان يقول ذلك ثم يعلق ضاحكاً: إنها أحلى قيود وإن الزواج هو أجمل سجن في الدنيا.. بالطبع كنت أشعر أنه يقول الصدق.. فما كان هناك سبب ليدعي الكذب.. كان يخشى أيضاً -شأنه في ذلك شأن أبي- أن أكون قد أُصبت بصدمة نفسية من الزواج أو من الجنس الآخر.

وفي إحدى الزيارات الأسبوعية وأثناء حديثي مع أخي في حجرتنا فاجأني قائلاً:

- افرح يا سيدي.. لقد وجدت لك عروسا.

- وجدتها أين؟ على الناصية ولا على الرصيف؟

- أنا جاد في كلامي إنها ابنة خالة زوجتي. لقد رأيتها في الإسكندرية الأسبوع الماضي.. وهي على جانب كبير من الجمال.

- جميلة فقط؟ أهذه هي كل مؤهلاتها؟

- طبعاً لا.. سألت وعرفت أنها في آخر عام في الجامعة.. وأبوها رجل طيب مثل والدنا تماما.

- شكراً.. أرجو ألا تكون قد تحدثت معها في شيء.

- طبعاً لا.. تكلمت فقط مع زوجتي كي أعرف إن كانت تصلح عروسا لك أم لا..

- أنا تقريبا وجدت واحدة..

ما إن انتهيت من جملتي حتى قفز أخي من على كرسيه قائلاً بصوت سمعه كل من بالمنزل:

- فعلا وجدت؟

وقبل أن يكمل وضعت يدي على فمه حتى لا يعرف الباقون بما يدور بيننا وأخبرته عن زياراتي التي كانت تتم مرة كل شهر تقريبا لمدير الكلية السابق.. وأنني رأيت هناك ابنته التي مازالت تدرس بكلية العلوم وأنني أعتقد إذا لم تكن هناك أسباب لا أعرفها أنها قد تكون شريكة حياتي.. سر أخي لحديثي وأنني أخيراً وجدت من تصلح شريكة لي، لكنه لم يحبذ فكرة أن أنتظر حتى تنتهي "علياء" من الدراسة ثم أتقدم لوالدها؛ لأنه من الممكن أن يخطفها أحد قبل ذلك،

خصوصاً إذا كانت على ذلك القدر من الجمال والبراءة على حد قولي.

– إنه شرف كبير لي أن أقيم معهُ وأخدمه أيضاً بنفسي.. هذا الرجل خدم الوطن أربعين عاماً كيف لا أخدمه أنا؟

– وهو يحبك ولن يجد أفضل منك زوجا لابنته.

– طبعاً يحبني إلا أنه من الممكن أن يجد أفضل مني بالتأكيد.

– خذ معك هدية ثمنها معقول في المرة المقبلة.. لا إحراج في ذلك ولو عرفت بذكائك الذي ورثته عني ماذا تحب ابنته تستطيع أن تشتريه لها.

– نعم أعرف أنها تحب السلاحف.. مرة قالت إنها تريد أن يكون عندها سلحفاة في البيت.

– ماذا؟ تحب ماذا؟

– سمعتها تقول ذلك وهي تقدم لنا الشاي تعليقاً على كلام أستاذ لها في كلية العلوم.. ورد والدها قائلاً أنا لا أمانع أن أشتري سلحفاة لكن طبعا أنتِ التي ستقومين برعايتها.

– عظيم.. هذه فرصتك الآن.. بعد انصرافنا اذهب وشاهد المحلات التي تبيع طيور الزينة والحيوانات الأليفة وكلها موجودة في شارع واحد في وسط البلد.

راقت لي فكرة أخي.. الحمد لله أننا استطعنا أن نكون صديقين وأخوين في الوقت نفسه.. هذه كانت رغبة أبي دائماً.. كان يقول لنا عندما دخلنا سن المراهقة وبدأنا نتشاجر كثيراً وبدون أسباب مقنعة: أتمنى أن تكونا صديقين.. وبالطبع لم نكن نفهم معنى تلك المقولة في ذلك الوقت.. كيف نكون صديقين ونحن أخوان؟!

وبمرور الوقت استطعنا أن ندركها وبحسن الرعاية والتربية أصبحنا فعلا صديقين وأخوين في الوقت نفسه.

° ° °

– أنت محظوظ يا أستاذ.. هذه آخر واحدة عندي.

نظرت إلى السلحفاة التي عرضها عليَّ البائع وبدت لي كمخلوق لا حول له ولا قوة.

– أمسك بها لا تخف إنها لا تعض.

أمسكت بالسلحفاة.. ماذا لو عرف ذلك البائع أنني ضابط بالقوات المسلحة؟ أذكر أنني أثناء خدمتي بالصحراء كنا نطارد الثعالب البرية ونصنع لها كميناً أحياناً ونصطادها كنوع من الترفيه وقتلا للوقت.. أما تلك المخلوقة البائسة، فإنها تخشاني دون حتى أن ألمسها.

قبل أن أمضي إلى مقصدي اتصلت بالمنزل لأتأكد من وجود سيادة المدير وأن الوقت مناسب للزيارة بالطبع.. رحَّب بزيارتي بل وأخبرني أنني سوف أتناول طعام العشاء معه.. في الطريق انتابتني أفكار مختلطة.. ماذا لو لم تكن تلك هي السلحفاة التي تريدها مهرتي الصغيرة؟ ماذا لو ماتت السلحفاة لأي سبب خلال أسبوع أو شهر؟ أقنعت نفسي أنه لا جدوى من كل تلك الأسئلة.. فالسلحفاة بيدي وأنا في طريقي إلى المنزل وليحدث ما يحدث.. ولو حدث مكروه –لا قدر الله– فسوف أصب غضبي على أخي الأكبر صاحب الفكرة.. الآن أفكر في علياء.. قلت لنفسي: أين أمنية؟ هل نسيتها؟ كلا.. أمنية تنتظرني في السماء.. أما علياء فهي

نصيبي في الأرض.. ومن يدري فقد تكون الملاك الذي سوف يحملني إلى أمنية في السماء؟!

اقتربت من الشارع وطلبت من سائق التاكسي أن يتوقف بعيداً عن المنزل.. أردت أن أمشي قليلاً حتى أستطيع أن أستجمع أفكاري قبل أن أدق الجرس.. وبعد دفع الحساب انطلقت ماشياً وإذا بالسائق يناديني:

– يا أستاذ.. القفص.. لقد نسيته.

واستدرت نحو الباب الخلفي وفتحته ثانية وأخذت القفص وأنا أشعر كطالب يتقدم لامتحان وقد نسي كل ما حصله وتبخرت كل المعلومات في ذهنه.

اقتربت من الباب واستجمعت شجاعتي ودون تفكير ضغطت على الجرس وبأسرع مما كنت أتوقع –أو بمعنى أدق أتمنى– فُتح الباب ورأيتها أمامي كما لو كانت في انتظاري وكانت ترتدي فستانا يصلح للخروج أو قضاء السهرة خارج المنزل أكثر من صلاحيته للجلوس داخله.. نظرت إليَّ قائلة:

– تفضل.. بابا في انتظارك.

دخلت وأدركت أن هناك شيئاً معي فنظرت إليَّ قائلة وهي تبتسم:

– طبعا.. هذه هدية لسيادة المدير.

وكان هذا اللقب التي تطلقه على والدها عندما تكون مبتهجة.

– بصراحة لا.. هذه هدية لحضرتك.

– لحضرتي؟ تقصد لي أنا؟ أخذت القفص مني وكان ملفوفاً بأوراق زاهية لا يرى أحد ما به وبسرعة أزالت كل الأوراق ونظرت داخله وكأنها لم تصدق

عينيها وشعرت بمدى سعادتها حتى إنها لأول مرة نطقت باسمي دون أن تسبقه بكلمة "كابتن" كالعادة قائلة:

- شكرا يا يحيى (وشعرت بالندم) فقالت: أقصد يا كابتن يحيى.. هذه أجمل هدية جاءت لي في حياتي.

5

عندما حضر أخي لزيارتنا في الجمعة التالية مع أسرته، كانت سعادته بالغة عندما أخبرته بزيارتي الأخيرة وسرور "علياء" بتلك الهدية التي ما كان لي أبدا أن أقدمها لها أو لغيرها.. ولكن للناس فما يعشقون مذاهب -كما يقول الشاعر- أراد أخي أن أتقدم رسميا إلى والدها قبل أن يسبقني أحد، خصوصا أن دعوتي على طعام العشاء وجلوسنا نحن الثلاثة لأول مرة معاً نتناول الطعام كانا يعنيان بالنسبة لأخي أنني قد أصحبت قريبا منها وقد اتخذوا الخطوة الأولى والخطوة التالية كان لزاما عليَّ أن أخطوها أنا.. وإذا بي أقول له إنني مازلت ضابطاً صغيراً. المفروض أن أنتظر قليلاً.. رد قائلاً: تنتظر عندما تصبح لواءً أو مديراً مثل أبيها؟!

- أبدا على الأقل عندما أحصل على النجمة الثالثة.. باقٍ عليها شهور.

- وما المانع أن تطلب يدها من والدها بصفة ودية فقط.. وعندما تصبح يوزباشي تخطبها رسميا؟ عموماً أنا أستطيع أن أذهب معك -لو أردت- في الزيارة المقبلة.

- لا.. انتظر أنت الآن.. من الجائز ألا يوافق.. يعني حتى لا يكون هناك

إحراج لك.

- عموما لو غيرت رأيك.. أنا تحت أمرك دائماً يوم الجمعة.

- شكرا سأخبرك قبل أن أذهب حتى تدعو لي بالتوفيق.. ولكن أرجوك ألا يعرف أحد الآن، خصوصا والدينا.

اقتنع أخي برأيي كما اقتنعت أنا بفكرته أن أتقدم بشكل غير رسمي حتى إذا لم تتم الموافقة فلن يكن هناك إحراج لأحد وإن كان هذا سوف يعني أنني لن أراها ثانية ولن أستطيع زيارة مديري السابق والذي كنت دائماً أسترشد بآرائه وأستفيد من خبراته بما كان يقص لي من أحداث مرت عليه طوال فترة خدمته بالكلية إلى أن أصبح مديراً لها.

لفت انتباهي في زيارتي الأخيرة أن علياء قد وضعت كل شيء على المائدة وحددت لي مكانا قريبا منها، أما مكان والدها فقد بدا لي أنه ثابت ولا يغيره سواء أكان بمفرده أم يجلس مع آخرين.. على عكس أمنية التي لم تجلس لتتناول الطعام معنا وكانت تحضّر لنا كل ما نحتاجه وزيادة طبعاً وهي تشعر بسعادة بالغة وهي تقوم على خدمتنا في ذلك اليوم.. هذه المرة كان كل شيء معداً وموضوعاً في مكانه بحيث يكون في متناول الجميع، خصوصا أنا.. لاحظت أنها أعدت نوعا من الخضار المسلوق لأبيها ووضعته أمامه.. وقد لاحظ المدير صمتي وشعوري بنوع من عدم الألفة على المائدة فأراد أن يحطم ذلك الصمت وتلك الغربة عندما قال:

- اسمع يا يحيى.. أنت الآن مثل ابني، يجب أن تتذوق كل هذه الأصناف حتى تعلم إذا كانت علياء طباخة ماهرة أم لا.

- أكيد يا أفندم هي طباخة ماهرة.. الشكل واضح.

- لا داعي للمجاملة. أريد الحقيقة.. أنا الآن معظم أكلي مسلوق بأمر الدكاترة.. لا أستطيع أن أحكم، أخبرني أنت.

قال ذلك ناظراً إلى ابنته التي ردت:

- عموما هو ليس لديه اختيارات، أعجبه أم لم يعجبه.. فسوف يأكل منه.. هذا هو قدره.

- لا والله.. واضح أنه يفتح الشهية ولكني عادة أتناول شيئاً خفيفا في العشاء.

- المرة القادمة ندعوك على الغداء.

- شكرا يا أفندم.. هذا كرم كبير منك ومن الآنسة علياء.

- المرة القادمة سوف تكون مائدة حقيقية وقت الغداء وتخبرني رأيك في طريقة إعدادي للطعام.

- أمرك يا أفندم.

- "أفندم" إيه؟ أفندم هذه تقولها لسيادة المدير.. (ونظرت إلى أبيها ضاحكة).. أما أنا فاسمي علياء.. صحيح هو اسم طويل قليلاً ولكن له معنى.

- كما تريدين.. حاضر يا آنسة علياء.

ودون أن أدري سقطت السكينة من يدي وانحنيت لألتقطها ولا شعوريا رأيت ساقيها تمتدان تحت المنضدة ولأول مرة منذ دخولي هذا المنزل أدركت أن جسمها وليس وجهها فقط على جانب كبير من الجمال واستطعت أن أخفي

مشاعري وإن لم أخفِ اضطرابي إلا أنها نظرت إليَّ لتهدئني قائلة:

- عادة ما تقع الشوك والسكاكين أثناء الأكل.

ومضت لتحضر لي سكينا أخرى ومرة أخرى وجدتني أنظر إليها وكانت في اتجاه بصري وهي تمضي إلى المطبخ وتيقنت فعلا أنها آية في الجمال وإن لم أتنبه إلى ذلك من قبل وقد يكون ذلك لإحساسي بأنه ليس من حقي أن أنظر إلى ابنة الرجل الذي أكرمني ودعاني إلى منزله وغمرني دائماً بعطفه.

وعندما نهضت للانصراف سلمت على مديري الذي طلب من ابنته أن تصطحبني إلى الباب وقبل أن أخرج نظرت إليَّ قائلة:

- الجمعة المقبل سوف تأتي على الغداء.. هل تود أن تأكل شيئاً معيناً؟

- لا داعي لذلك أعتقد يكفي طعام اليوم هذا كثير جداً.

- أنا لاحظت أن أبي يكون في غاية السعادة وأنه يعاملك مثل ابنه لدرجة أنني أحياناً أغير منك.

- هذا شرف كبير لي يا أفندم.. أقصد يا آنسة علياء.

- إيه رأيك لا داعي لكلمة آنسة وكابتن؟!

- كما تريدين حضرتك.

- وحضرتك أيضاً.

- حاضر يا علياء.

- هذا أفضل يا يحيى.

قالت ذلك ونظرت إليَّ فشعرت أن أجمل نجوم السماء قد تخلت عن موقعها

بين أقرانها من النجوم والكواكب وأنها قررت أن تسكن هنا في قلبي.. نظرت إليها شاكراً ومدت يدي مصافحاً وكأنما كانت تنتظر تلك اللحظة فتركت يدها بين أناملي حتى شعرت بالحرج فتركتها قائلاً:

- أراك الجمعة المقبل على الغداء إن شاء الله.

* * *

دارت أحداث ذلك اليوم بذهني وأنا في طريقي إلى منزل نجمتي الصغيرة كما لو أنها قد حدثت بالأمس.. في هذه المرة اشتريت بعض الفاكهة وطعاما للسلحفاة التي يبدو أنها قد قربت نجمتي كثيراً إليّ وشعرت بأنني أهتم بها وبما تحب.. كنت قد عزمت على أن أتكلم مع سيادة المدير طالباً أن أتقدم لخطبة ابنته عندما أضع النجمة الثالثة على كتفي، كان ذلك الأمر يجعلني أشعر وكأنني مقدم على امتحان لا أستطيع أن أتكهن بنتيجته.. امتحان ليس فيه جيد أو جيد جدا وإنما ناجح أو لا قدر الله راسب.. يا ربي مازالت هناك اختبارات أخرى في الطريق بل إنها أصعب من تلك التي اجتزتها من قبل، هل من الممكن أن يرفض طلبي؟ لِمَ؟ هل لأنني مازلت صغيرا أم لأنها لا تريد أن تترك أباها وتود أن تظل دائماً في خدمته ولا يشاركها في هذا أحد؟ هل هذا معقول؟! بالطبع سأكون معها في خدمته وهو يستمتع كثيراً بصحبتي وهي تعلم ذلك وأخبرتني بذلك المرة السابقة.. هل يمكن أن يمضي هذا الحلم دون أن يتحقق كما مضى حلمي السابق؟ وماذا لو رفض؟ لن آتي ثانية إلى هذا المنزل الذي أحببته حتى قبل أن تسكن هي بين ضلوعي.. والآن سوف يكون عليَّ أن أخسر قائدي وحبيبتي في لحظة واحدة..

يا ربي كن معي.. إنني أريدها زوجة لي وأريد أيضاً أن أخدم هذا الرجل الذي أعطى كل عمره للوطن.. أهذا كثير؟ وإن كان كثيراً عليَّ فليس كثيراً عليك.. نعم ليس كثيراً عليك واطمأنت أفكاري عند هذا الحد وشعرت بنوع من الطمأنينة كنت في حاجة إليها في ذلك اليوم.

– أهلا يا يحيى.. تفضل.. اتفقنا لا توجد ألقاب.. بابا في انتظارك، ولكن مازال عندي شغل في المطبخ.

– شكرا يا علياء.

قلتها بسرعة متحاشيا النظر إليها ومسرعاً إلى المكان المفضل الذي يجلس فيه المدير بالمنزل.. رحب بي كعادته وهو جالس ورأيت أمامه بعض الكتب القديمة وإن كان قد تمت إزالة الأتربة من عليها.

– هذه مجموعة كتبي وأنا أعرف أنك تهوى القراءة، ممكن أن تستعيرها وعندما تعيدها تأخذ غيرها.

– شكرا يا أفندم سأحضرها الأسبوع.. أقصد المرة المقبلة.

– لا داعي للاستعجال.. أنا لا أعطي كتبي إلى أي أحد وهذا معناه أنك عزيز عليَّ وأنا واثق أنك سوف تعيدها.

– طبعاً عندما أنتهي منها حتى آخذ غيرها.

– يعني لو أعجبتك ممكن تأتي كل يوم وإن لم تعجبك ممكن ألا تأتي هنا مرة ثانية.

قال ذلك وهو ينظر إليَّ مبتسماً.

- اليوم علياء جهزت لك وليمة.

حاولت أن أتذوق كل شيء إرضاءً لها ولأبيها، ولها على وجه الخصوص وشعرت فعلاً بسعادتها وأنا لا أترك شيئاً إلا وأمد يدي إليه وأحيانا أسأل في خجل عما هو ليس واضح أو قد يتماثل مع صنف آخر من أنواع الطعام المعروفة وإن كان يختلف في طريقة الإعداد والمكونات.. عرفت أنها تهوى إعداد الطعام وتجد نوعاً من البهجة في تجهيز ألوان مختلفة منه وقد تقضي ساعات في ذلك مادام ذلك لا يتعارض مع وقت المذاكرة.. فهي ليست من عشاق القراءة مثلي أو مثل والدها كما أنها ليست من هواه ذلك الجهاز الجديد الذي بدأ ينتشر على مهل في البيوت وكان يستحوذ أحياناً على اهتمام الأسرة كلها، خصوصا مساءً، عند إذاعة بعض المسلسلات أو الأفلام السينمائية.. جاهدت أن أرضيها وأتذوق كل الأصناف مع الإبقاء على بعض من جسدي نشيطاً حتى أستطيع أن أعبر عمَّا بداخلي من كلمات قليلة ولكن مقنعة عندما يحين الميعاد.

بعد الأكل جلست بشكل يساعدني على التركيز والكلام أملا أن يساعدني فنجان القهوة على عملية الهضم والبقاء مستيقظاً؛ لأنه ليست لدي فرصة لغفوة قليلة بعد هذه الوجبة الدسمة.. وفوجئت بمضيفي ينهض قائلاً: أنا سأستريح قليلاً لأنني أكلت كثيراً وأنت تستطيع أن تقرأ أو تشاهد التليفزيون.. نهضت متظاهرا بأنني أنوي الانصراف ولكنه أصر على بقائي حتى نتحدث بعد أن ينهض من إغفاءة قصيرة.. لم أملك سوى الجلوس ثانية وقلت الحمد لله على تمسكه ببقائي وإلا لما أتيح لي أن أخبره بما أنوي عليه.. تظاهرت بمشاهدة

التليفزيون وأنا أتمنى أن أتناول فنجاناً من القهوة وإن كنت لست من المعتادين عليها.. وكأنما استجاب الله لدعائي فإذا بعلياء تخرج من المطبخ ويبدو أنها لم تنهِ عملها بعدُ قائلة: ما رأيك في فنجان قهوة؟

– أكون شاكرا إذا لم يعطلك عن عملك في المطبخ.

– حاضر من عيني.

قالت ذلك وهي تقف في مواجهتي حتى حالت بيني وبين شاشة التليفزيون ويبدو أنها أدركت ذلك فاعتذرت ودخلت إلى المطبخ بسرعة.. بعد فترة رأيتها تمر بجواري وبيدها صينية عليها فنجانان من القهوة، ثم جلست حتى لا تحجب عني الشاشة قائلة:

– أنا عملت فنجاناً لي مع أني لا أشرب القهوة إلا مرة في السنة.

– نحن الآن في شهر يناير 1967 يعني الفنجان التالي سنة 1968.

قلت ذلك على سبيل الفكاهة.

– لكن يجب أن تأتي دائماً لزيارتنا حتى تتأكد من ذلك.

– سوف أزوركم كي أتأكد من ذلك ولكي أتناول الغداء.

– يعني أنا طباخة ماهرة؟!

– طبعا.. ألا ترين كيف أجلس؟ لقد أكلت أصنافاً عمري ما أكلتها في حياتي.

– أنا بصراحة أهوى المطبخ لكن بابا فعلا لا يشجعني أن أعمل أصنافاً كثيرة لأنك كما ترى صحته ليست على ما يرام.

- عموما عندما تحبين أن تعملي أصنافاً كثيرة أو جديدة أخبريني وسوف آتي بالأسرة كلها وما يتبقى من طعام سوف نأخذه معنا.

- فعلاً سوف يأتون معك المرة المقبلة؟

- إن شاء الله سوف يأتون للزيارة أنا كلمت أخي عن سيادة المدير وهو يتمنى أن يراه ولكن لا أدري متى تماماً.

- ألم تحدث أخاك عني؟

قالت ذلك بصوت خافض أقرب إلى الهمس منه إلى الكلام حتى إنني صمت محاولاً أن أدرك جيداً ما تعنيه عندما لاحظت صمتي شجعتني قائلة:

- أقصد عن بابا الذي يعيش بمفرده وعنده ابنة واحدة تقيم معه لأن الثانية متزوجة وهي رافضة مبدأ الزواج لأنها تخشى أن تتعارض مطالب الزواج مع خدمتها لأبيها.

استمعت إليها وقلت لنفسي: ماذا تريد أكثر من ذلك؟ تكلم يا صنم.. وإذا بي وكأنما آن لشلال الفكر أن يتحرك ولصخور الصمت أن تتوارى أمامه وتنسحب إلى ضفة النهر مخلفة مجراه وقد بدا ناعماً لا يحوي سوى الطمي الذي طال انتظاره حتى تحمله المياه بقوة اندفاع عاتية.. تعوض ما فاته من سنوات الانتظار وهو في القاع بعد أن فقد القدرة على التخصيب والإنماء.. نظرت إليها وانتابني شعور الجندي في الميدان وهو الآن في وسط المعركة إما النصر وإما الاستشهاد.

- ألم يتقدم أحد ووافق على هذا الشرط؟

- طبعاً جاء أكثر من واحد وجلست معهم وحدي وأحياناً في وجود بابا

ولكني كنت دائماً أشعر أنهم موافقون ولكنهم غير صادقين في مشاعرهم تجاه بابا.

– ومشاعرهم تجاهك.. ألا تهمك؟

– هذا يعني أننا في حاجة لإنسان يحبني ويحب بابا.. وهذا شبه مستحيل.

– وإذا كان هذا الشخص موجوداً فعلا هل توافقين عليه؟

– طبعاً أوافق.

– وهل سيوافق عليه سيادة المدير؟

– طبعاً أمنية حياته أنني أتزوج حتى لو تركته بمفرده.. يقول دائماً إنه يستطيع أن يخدم نفسه وانه سوف يجد من يساعده في الأشياء الصعبة التي لا يقدر عليها ولم يعتد عليها.

– يعني أنت حتى الآن لم تجدي هذا الشخص؟

قلت ذلك بتأنٍ ونظرت إليها حتى تدرك ما أعني.. لقد تخطى الشلال الصخور الصعبة وما تبقى من شظاياها لن يصمد طويلا أمام اندفاعه.. وكأنها أدركت الآن بفطنتها معنى الكلام فصمتت قبل أن تجيب:

– أعتقد أنه موجود ولكني غير متأكدة من شعوره تجاهي وإن كنت متأكدة من شعوره تجاه بابا.. وهنا أدركت أن الشلال قد وصل إلى منتهاه ولم يعد هناك ما يمكن أن يقف في طريقه.

– وأنت متأكدة من شعورك؟ أقصد يعني من الممكن أن توافقين عليه؟

- أكيد.

قالت ذلك بصوت منخفض وهي تتحاشى النظر إليَّ.. في تلك اللحظة نسيت كل ما التهمته من طعام وشعرت أنني أستطيع أن أحلق بجناحي الحب حتى أصل إلى نجمتي الصغيرة.. أصل إلى ماذا؟ قد وصلت فعلا رغم تلك الوجبة الدسمة التي سرعان ما تبخرت بعد أن أدركت أنها تبادلني المشاعر نفسها.. نسيت أن جهاز التليفزيون مازال منطلقا يتحدث.. إلى من؟ إلى آخرين وليس إلى عاشقين لا يسمعان إلا صوتهما أو بمعنى أدق همسهما الذي يعلو على كل الأصوات.. نعم إنها تبادلني المشاعر نفسها.. ماذا تريد الآن؟ إنها اللحظة التي كنت تتوق إليها.. نعم الآن.. اطلب يدها من والدها.. هو يحبك كابنه وهي تحمل لك مشاعر الحب وإلا لما قالت أكيد.. هل أدخل إلى غرفة والدها وأوقظه قبل أن يتطاير ذلك الحماس الذي جعلني أشعر أن قدري مازال يخبئ لى ما ظننت أنه قد يكون مستحيلاً.. وعندما شعرت أن لغة الكلام قد توقفت نهضت مستأذنة تكمل عملها في المطبخ.. ولكن لن أتركها تمضي عني فإذا بي أسارع قائلاً:

- وأنت هل من الممكن أن تتزوجين وأنت مازلت في الجامعة؟

- والله إذا كان زوجي لن يعارض في تعليمي فأنا لن أمانع.

- معنى ذلك أن تتزوجين وتخدمي والدك وأنت مازلت في الدراسة؟ أليس هذا بكثير؟

- أعتقد بالنظام وأفضل استغلال للوقت، كل شيء ممكن.

- صحيح هذا شيء متوافر في هذا البيت، أكيد أنت تعلمت النظام

والاستفادة من الوقت من السيد الوالد.

– طبعا.. ومن ماما الله يرحمها كانت أيضاً منظمة.

– يرحم من؟

نهضت مرة واحدة لأرى سيادة المدير وهو يتقدم ليجلس أمامي ويغلق جهاز التليفزيون قائلاً وهو ينظر إلى ابنته:

– أكيد تقصدين ماما.. الله يرحمها كانت فعلا نعم الزوجة.. عموما هي رحلت وتركت لي أحلى ابنتين في الدنيا أليس كذلك يا كابتن؟

– طبعا.. لماذا كابتن يا أفندم؟

– أبدا يا بني كابتن على سبيل التغيير.

ثم أردف قائلاً وهو ينظر إلى ابنته التي كانت لاتزال جالسة: أين القهوة يا عسل؟

نهضت مسرعة وهي تشعر بالخجل من كلماته فقد كانت تلك أول مرة أسمعه وهو يقول لها تلك الكلمة.. عرفت منه أنه لا يقولها إلا إذا كان نفسيته على ما يُرام وفي أحسن حال.. قلت لنفسي أكمل ما بدأته، فمزاجه أيضاً يشجعك على الكلام.. إن حالته النفسية مرتفعة.. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ قلت لا داعي أن أنتظر القهوة.. أطرق الحديد وهو ساخن.. نظرت إليه بعد أن استجمعت كل أطراف شجاعتي قائلاً:

– أنا أريد أن أطلب من سيادتك طلباً وعندي أمل كبير أن سيادتك توافق عليه.

– قل يا بني.. أنا موافق قبل أن تطلب.. فرصة.

– أنا أطلب يد الآنسة علياء.

– لكنك تعلم أنها أغلى ما لديَّ.. ولكن هل تستطيع أن تدفع مهرها؟

سكت قليلاً لينظر رد فعلي.

– سيادتك تعلم.. إن كان بمقدوري فلن أتأخر.

– لكني أعتقد أنك تقدر عليه.. مهرها أنها لا تنام ليلة واحدة وأنت غاضب منها أو هي غاضبة منك.

– عندما تكون غاضبة مني أعد سيادتك بأني سوف أرضيها ولكن إذا كنت أنا غاضباً منها وهي حزينة لذلك ماذا أفعل؟

– ترضيها أيضاً.. لا يهم من أغضب الثاني.. المهم أن الرجل هو الذي يبدأ بالصلح.. لقد كان هذا هو سر سعادتي مع أمها.. رحمة الله عليها.. فكر قبل أن ترد.. أنت الآن يحيى الضابط الذي يتكلم والرجل يكون على قدر كلمته ويفي بما يعد.. هذا هو مهر ابنتي.. أما باقي الحاجات مثل المهر النقدي والشبكة وخلافه فهذه شكليات وابنتي والحمد لله عندها كل شيء وهي نفسها لا تهتم بالمظاهر.

سكت قليلا.. إنه فعلا مهر لم أسمع به من قبل ولم أتوقعه.. كنت أتوقع أن يغالي في القيمة المادية للمهر والشبكة أو مؤخر الصداق أو ما يفعله معظم الآباء بحجة تأمين مستقبل بناتهم.. أما ذلك فلم يخطر لي على بال.. قلت لنفسي: هل تستحق ذلك؟ أقصد أن أعتذر أنا إليها عن خطأ تكون هي قد فعلته بغير قصد حتى لا تذهب إلى مخدعها حزينة.. نعم إنها تستحق ذلك.. ولكن هل أستطيع

أنا ذلك؟ إنه يعرف أنني ذلك الرجل الذي لا يتراجع عن كلمته مهما كانت الأحوال، يريد أن يحصل على ذلك المهر لابنته.. هي تستحق وهو أيضاً يستحق ذلك.. نعم أليس هو من أفنى شبابه وحياته لتخريج أجيال من خير جنود الأرض؟ ألا يستحق كنوع من التكريم في شيخوخته أن يكون ذلك مهرا لابنته.. إنه أقل شيء يمكن أن أقدمه له ولقائدي المعلم الذي مضى دون أن أرد له شيئاً من معروفه تجاهي.. لاحظ صمتي فنظر إليّ قائلاً:

– صمتك معناه أنك إنسان محترم.. وأنك تحترم كلمتك قبل أن تنطق بها.. وهذا شيء أنا أقدره وأنا أعرف أن طلبي صعب ولأني لا أريد أن أخسرك عدني أنك سوف تحاول بقدر استطاعتك وبكل جهد أن تنفذ ذلك وإذا لم تستطع فسوف أسامحك حتى ولو كنت في رحاب الله.

– أعد سيادتك أني سأبذل كل جهدي بأن أجعلها سعيدة وألا تذهب لفراشها وهي غاضبة بصرف النظر عمن كان السبب في ذلك.

نظر إليّ ثم مد يده وقال: الآن نقرأ الفاتحة والتفاصيل فيما بعد وأنا مطمئن لابنتي معك.

فقاطعته قائلاً:

– ألن تسألها عن رأيها؟

– هل تعتقد أنني يمكن أن أوافق من غير أن أكون متأكد أنها موافقة.. وعند هذه اللحظة دخلت ابنته فنظرت إلينا ونحن نقرأ الفاتحة وفهمت وإن لم تستطع أن تتحرك وعند إنتهائنا نظر إليها أبوها قائلاً:

ضعي القهوة وادخلي اعملي شربات.. مبروك يا ابنتي.

• • •

تداعت الأحداث بسرعة ومع اقتراب موعد خطبتي "لنجمتي الصغيرة" وكان محددا لها شهر يوليو أي بعد حصولي على النجمة الجديدة، كانت القيادة السياسية مشغولة بأحداث وقعت في سوريا وأدت في نهايتها إلى منع السفن الإسرائيلية من المرور في خليج العقبة، ما اعتبرته إسرائيل بمثابة إعلان الحرب عليها، خصوصا بعد طلب مصر سحب قوات الطوارئ الدولية التي كانت تتمركز على الحدود بين مصر وإسرائيل.. بالطبع نحن العسكريين كنا نتابع الأحداث وكنا جزءاً مهماً فيها، خصوصا أن الزعيم ما كان يتخذ قراراً مهماً دون العودة إلى القائد العام للقوات المسلحة وكان بينهما لون من الصداقة لا يخفى على أحد.

تم إعلان حالة الطوارئ بين أفراد الجيش وأصبحت أقضي معظم الوقت بالمعسكر وأبيت فيه أحياناً.. قلت زياراتي لمنزل السيد المدير وبالطبع لم يكن هو بعيداً عن الأحداث وكذلك كانت خطيبتي تقدر ظروف عملي وتقول لي دائماً إنها تعودت على نمط الحياة العسكرية.. شعرنا كجنود في القوات المسلحة أن البلد على وشك الحرب وأن الجميع بمن في ذلك من هم خارج الجيش ينتظرها حتى يلقن ذلك العدو المتعجرف القابع على أنفسنا وحدودنا درساً يهدأ بعده ويفكر ألف مرة قبل أن يعتدي على حدودنا بل ونسترجع فيه أراضي فلسطين السليبة من براثن اليهود.. بنهاية شهر مايو لم يعد متاحا لي أن أغادر وحدتي وأصبح التليفون هو وسيلة الاتصال بأهلي وكذلك خطيبتي.. كانت روحنا المعنوية على

أشدها.. كنا نشتاق فعلا للقتال ونشعر أن الوقت قد حان حتى نثبت للعالم أجمع أننا فعلا خير أجناد الأرض.

بحلول شهر يونيو تأكدنا كأفراد في الجيش أن الحرب واقعة لا مفر منها وأن المسألة مجرد توقيت حدوثها، أو من سوف يشعل شرارتها.. كنا نتمنى كأفراد عسكريين أن نبدأ نحن حتى نضمن أن نحقق نصرا حاسما دون مفاجأة.. بالطبع لم يكن ذلك الأمر بأيدينا كضباط صغار وإنما تحدده القيادة العليا.. بحلول اليوم الخامس بدأ العدو شن الحرب مستخدما سلاح الطيران الذي استطاع أن يتوغل في أراضينا محدثا أضرارا جسيمة بطائرتنا وهي مازالت قابعة على الأرض.. وبالتالي فقدت قواتنا التي كانت في سيناء ذلك الغطاء الجوي الذي يساعدها على التقدم واكتساب أراض جديدة.. كنت في ذلك الوقت قد نقلت إلى وحدة متقدمة على الشاطئ الشرقي للقناة.. وبدلا من أن نتقدم إلى الأمام عند نشوب الحرب أصبحنا نتقهقر إلى الخلف في محاولة للعودة إلى شاطئ القناة والذي كان يمثل نقطة أمان لنا.. عشت ثلاثة أيام لا أدري كيف كان يومي يمضي وقتها.. نهارا نحاول أن نختبئ خلف التلال حتى نحمي أنفسنا من نيران العدو وطيرانه الذي امتلك ناصية السماء.. كانت شمس السماء تلهبنا بأشعتها التي لا ترحم، بينما طيران العدو ودباباته تصب علينا جحيما من النيران.. بالطبع أوشكت المئونة التي كانت معنا على النفاد مع حرصنا الشديد واقتصادنا في استهلاكها، خصوصا المياه.. وإذا جنَّ الليل بدأنا في الزحف باتجاه القناة متخذين منها ستاراً لتحركاتنا وحتى نستفيد من رطوبة الجو في الحركة، ما يخفف من

المجهود الذي نبذله.

في الليلة الرابعة شعرنا بقوات تتقدم نحونا دون أن تحاول الهجوم فأيقنّا أنها لابد أن تكون إحدى وحدات الجيش المصري التي ضلت طريقها في الصحراء.. اقتربنا منها أكثر بحذر وأيدينا على ما تبقى لنا من السلاح الذي كنا نحمله وقبل أن نتمكن من أن نطلق نيران بنادقنا وجدنا أنفسنا محاصرين من ثلاث جهات ولم يتبقَّ لنا سوى جهة واحدة أصبحت تمثل لنا طريقا للنجاة.. ما إن تقدمنا نحوها باتجاه الشرق حتى وجدنا دبابة في انتظارنا جاهزة لإطلاق النيران.. لم يكن أمامنا سوى أن نحاربهم وهذا يمثل نوعا من الانتحار أو أن نستسلم ونترك مصيرنا للأقدار وقبل أن نفكر كثيراً تقدم قائدنا رافعاً يديه دون سلاح علامة على الاستسلام ولم يترك لنا خيارا آخر.

ثم نُقلنا بعربات تابعة للجيش الإسرائيلي إلى إحدى النقاط التي استولى عليها، وهناك تم فصل الضباط عن الجنود.. كنا أربعة من الضباط: القائد وثلاثة آخرين، كنت أنا أصغرهم في الرتبة العسكرية.. أخذونا نحن الأربعة في سيارة جيب تحت حراسة اثنين من جنود العدو وفي الطريق تحدث معنا أحدهم باللغة العربية باللهجة الشامية التي تعلمها وهو في الجامعة؛ حيث إنه يدرس الآداب الشرقية وتخصص في الأدب العربي الحديث والمعاصر. كان سعيدا بحديثه باللغة العربية التي يجيدها وسرد بعضاً من أشعار شوقي وكان يعشق سامي البارودي لأنه كان يطلق عليه رب السيف والقلم ويتمنى أن يصبح مثله ولكن في خدمة دولة إسرائيل.. في الطريق قدموا لنا المياه وبعض الخبز الجاف وما كنا نستطيع أن

نرفض ذلك إذا كنا نود أن نبقى على قيد الحياة.. تناولت بعض الخبز ثم نظرت إليه جيدا ووجدت أنه نفس الخبز الذي نتناوله في الوحدة.. لقد أخذوه من إحدى وحداتنا في سيناء ليعطوه لنا.. هؤلاء الملاعين. من يدري قد تكون المياه من أرضنا أو من نيلنا.. نظر كل منا إلى الآخر وبذهننا سؤال واحد: أين يأخذوننا؟ هل يعدون لنا مأدبة حافلة بما لذ وطاب من أشكال التعذيب حتى ينتزعوا منا ما يريدون من معلومات ثم يلقوا بنا في الصحراء لنموت عطشا أو نصبح طعاماً للذئاب.. بالطبع هذا هو المصير الذي ينتظرنا، إنهم أعداؤنا ولن يفعلوا إلا ذلك.. قد تأخذهم شفقة بنا ويقتلوننا رميا بالرصاص حتى لا يطول عذابنا.. دار بذهني شريط حياتي منذ كنت أذهب إلى المدرسة برفقه أخي الكبير ثم خلال مراحل التعليم المختلفة حتى دخولي الكلية الحربية.. أهذا هو المصير؟ أن أموت دون أن أطلق رصاصة واحدة على العدو.. أعبث كل ما تعلمته وحرصت على التفوق فيه؟ وكيف حدث هذا؟ أين الزعيم؟ أين القائد العام؟ أهو أيضاً أسير لدى العدو؟

ينتظرنا هناك حتى يلقي علينا آخر أوامره قبل أن يتلقى رصاصة في قلبه تنهي حياته.. أين مديري السابق؟ أمازال في بيته يتابع أخبارنا من الراديو أو التليفزيون؟ أين علياء؟ هل تفكر فيَّ الآن؟ هل الحياة قصيرة إلى هذا الحد؟ وهل اللحظات السعيدة دائماً أقصر مما نظن ونعتقد؟ بعد أيام أو ساعات سوف أغادر هذه الأرض.. أعتقد أنني سأموت شهيداً.. نعم شهيد وألحق بأمنية هناك.. إذا لم تكن من نصيبي على الأرض.. فسوف تكون حتما من نصيبي في السماء.. وسوف تجد علياء رجلاً آخر وهي تستحق ذلك.. تجد رجلاً أفضل مني لا يفكر في أخرى

بينما هي تنتظر عودته.. اعذريني.. إن أنفاسي معدودة.. وأنت لست من نصيبي وإنني أتمنى لكِ عمراً مديداً، وحياة تستحقينها كابنة بارة وحبيبة مخلصة.. على الأقل حتى هذا اللحظة لا أحد غيري في قلبك، أما أنا فسوف أصعد إلى من سبقتني إلى السماء وأتمنى أن تكون هناك في انتظاري.. استمرت الرحلة ساعات لم يعد يهمني عددها، إلى أن وصلنا إلى أحد معسكراتهم، وهناك وجدت عشرات من ضباط الجيش المصري في انتظارنا وقد سبقونا إلى هناك.. كلهم أسرى ولكنني دهشت لأنهم لم يكونوا مقيدين بحبال أو سلاسل أو محددة إقامتهم في الزنزانة.. كانوا يتحركون بحرية في المعسكر الذي كانت تحيطه حراسة من كل الجوانب.. بل إن معظمهم كان مازال يحتفظ بزيه العسكري دون النجوم التي على الأكتاف.. إنها أول شيء نتخلص منه إذا شعرنا أننا سوف نُقتل أو نقع في الأسر.. كانوا يجلسون في جماعات لا تزيد على خمسة أفراد حسب الأوامر الإسرائيلية.. يتحدثون معاً محاولين أن يجدوا تفسيراً لما يحدث.. بعضهم آسر الوحدة فجلس في ظل خيمة أو نخلة يتأمل الصحراء والسماء دون أن يبدو على وجهه أي مظهر للسعادة أو التعاسة وإنما فقط الحيرة التي تظهر أحياناً في جبين مقطب أو شفاه ممدودة. عند وصولنا نزلنا من السيارة وتم اقتيادنا إلى مكتب بدا لنا أنه مكتب القائد.. وقفنا جميعا بالخارج انتظاراً لدخولنا إليه.. تقدم أحد الجنود ونظر إلينا قائلاً بمساعدة ذلك الضابط الذي يجيد العربية:

– من القائد؟

سكتنا جميعا لحظات لا ندري ماذا نقول ولكن قبل أن يتطوع أحدنا

فينتحل صفة القائد والذي قد يكون أول من يُقتل أو يعذب إذا بالقائد يتقدم ويعلن عن نفسه.. نظرنا إليه جميعا مشفقين عليه بعد أن كنا نلومه على استسلامه دون مقاومة وقبل أن يدخل نظر إلينا قائلاً:

- لو لم نلتقِ ثانية فأرجوا أن تسامحوني لأني استسلمت من غير مقاومة.. لكنني عملت الذي يمليه عليَّ ضميري وأنا غير نادم على ذلك؛ فالقائد يجب أن يحافظ على أرواح جنوده حتى آخر لحظة.

مضت فترة من الوقت، قبل أن يُفتح الباب ويخرج القائد بصحبة أحد الضباط اليهود الذي كان بالداخل وسارا معاً دون حراسة أو أغلال حتى اختفيا عن الأنظار.. وتوالى دخولنا.. كان كل منا يتقدم حسب أقدميته وعرفت بذلك أنني سوف أكون الأخير فاستسلمت لقدري ووقفت منتظراً.

وجدت نفسي في غرفة كبيرة نسبياً لموقعها في معسكر في قلب الصحراء وكان بها ما يوحي بأنها غرفة مكتب ونوم في الوقت نفسه؛ حيث امتد سرير في أحد أركانها بينما توجد منضده تتسع إلى عشرة أفراد في الجانب الآخر قد تكون لتناول الطعام أو عقد الاجتماعات.. عند دخولي كان القائد اليهودي جالسا منهمكا في الحديث بالعبرية مع اثنين يجلسان أمامه بينما على يمينه ضابط مشغول بكتابة ما يدور مع الأسرى.. حانت مني التفاتة إلى المترجم فوجدت أنه فتاة وليس رجلاً ولكنها ترتدي ملابس عسكرية ولم يبدُ لي لأول وهلة أنها فتاة ولها ملامح شرقية مثلنا بل إن الشعر الذي يبدو من الكاب الذي على رأسها أسود فاتح. ولدهشتي كانت تتحدث العامية المصرية ويبدو أنها لاحظت دهشتي فمالت

عليَّ قائلة:

- أنا وُلدت في الإسكندرية ثم هاجرت مع أمي سنة 1950 كي نعيش في أرض الميعاد.

قلت في سري "أرض الميعاد" ميعاد ماذا يا ملاعين؟ هل تعتقدون أننا سوف نترككم تنعمون بالحياة هناك؟ إنكم فعلاً واهمون.. أفقت على سؤال القائد الذي لم أفهمه جيداً.

- ماذا ستعمل عندما ترجع مصر؟

سكتُّ قليلاً محاولاً أن أفهم ما يرمي إليه.. وماذا يعنيه هو إذا كنت سأعود إلى الخدمة أو أقدم استقالتي.. نظرت إليه وإلى الكاتب بجواره فوجدته يترقب إجابتي.. إن هذا هو السؤال الذي قد يترتب عليه عودتي أو إعدامي.. إذا أخبرته الحقيقة فسوف يقتلني دون محاكمة، طلقة واحدة من مسدسه تكفي.. نظرت إلى أرضية الغرفة فلم أجد عليها نقطة دم واحدة.. وتذكرت أن رفاقي خرجوا جميعا سالمين. هل جبنوا جميعاً وكذبوا عليه وأعطوه الإجابة التي يتمناها فتركهم يخرجون أحياء؟ لا أعتقد.. إنهم لم يكذبوا لقد قالوا الحقيقة وهم مازالوا أحياء.. إنني أعرفهم جميعا. لن يجبن أحد منهم أمام العدو مهما كلفه ذلك. صحيح أنه قبض علينا أثناء الانسحاب ولكن كانت هذه هي أوامر قيادتنا العليا وليس للجندي أن يخالف أمر قائده مهما كان ومهما كلفه.. لقد قالوا جميعا الحقيقة.. نحن لم نكن جبناء عندما أطعنا الأمر بالانسحاب وكان السلاح مازال معنا ولن نكون جبناء أمام العدو ونحن عزل من السلاح.

– عند عودتي إن شاء الله سوف أرجع إلى وحدتي وأسلم نفسي إلى القائد وسوف يقرر هو ما أفعل.

– يعني سترجع الجيش مرة ثانية وفي الحرب المقبلة ممكن أن نتقابل، هل تعتقد أننا سوف نكون معكم رحماء في المرة المقبلة؟

– طبعاً لا ولكن في المرة المقبلة يمكن أن تتغير مواقعنا.

نظرت إلى المترجمة وقد ظهر الغضب على وجهها فقلت لنفسي إن ترجمة هذه الجملة قد تعني نهايتي ولكني لن أتراجع عما قلت.. انتهى الاستجواب، وطلبت المترجمة أن تصحبني هي، وليس أحد العساكر، وأذن لها قائدها.. خرجت وراءها حتى هبطنا سلما قصيرا ثم طلبت مني أن أسرع الخطى وأسير بجوارها.

– هل من الممكن أن أعرف إلى أين تصطحبينني؟

– أنت المفروض ألا تتكلم ولو حتى تكلمت فأنا غير ملزمة أن أجيب عن سؤالك.

قالت ذلك ثم تابعت السير.. سارعت الخطى وسرت بجوارها حتى أحافظ على ما تبقى لديَّ من كرامتي كجندي.. فنظرت إليَّ وهي تقول دون أن تتوقف:

– هل تعرف أني أتمنى أن أرجع الإسكندرية مرة ثانية؟ عندما تركتها كان عمري 10 سنين مازلت أذكر البحر وعندما كنا نخرج من المياه نجد ماما قد جهزت سندوتشات نأكلها بسرعة حتى ننزل المياه مرة ثانية.

– تريدين أن تذهبي إلى الإسكندرية؟ زيارة أم احتلال؟ نظرت إليَّ وزالت

عنها ابتسامتها قائلة:

- هل تعلم أنك ضابط عنيد؟ لا أدري كيف تم أسرك؟ مثلك يقاتل حتى آخر نفس.

- صحيح.. لكن لا أنا ولا غيري أتيحت لهم فرصة القتال.. لقد هزمنا دون أن نحارب.

- عموماً بالنسبة لنا.. النتيجة واحدة نحن انتصرنا وعموما أريد أن أذهب إلى الإسكندرية في زيارة مثل باقي السياح الذين يذهبون إلى مصر.. أريد أيضاً أن أزور الهرم وحديقة الحيوان بالجيزة.. لقد زرتها وأنا صغيرة.. عندكم أماكن جميلة كثيرة في مصر.

- عموما نحن لا نعترض.. طالما ستأتين للزيارة فأهلا وسهلا فأنت قد ولدت في مصر ومن حقك أن تزوري بلدك.. أقصد بلد مولدك.

- فعلا.. أمي أيضاً تتمنى أن تزور الإسكندرية وتزور أصحابها وجيرانها اليهود وغير اليهود.. ودائماً تقول لي إنها متأكدة بعدما تنتهي الحرب أنها ممكن أن ترجع إلى الإسكندرية.

- والوالد.. ألا يريد أن يزور الإسكندرية أيضا؟

- الوالد رجع، لكن إلى بلد جده فرنسا.. لم يستطع أن يعيش في أرض الميعاد، بعدما غادر الإسكندرية شعر بغربة شديدة واختلف مع أمي فرجع لكي يعيش عند أعمامه في مارسيليا.

- عموما مارسيليا ليست بعيدة عن الإسكندرية.. يستطيع أن يأخذ مركباً

ويزور الإسكندرية ويرجع مرة أخرى في اليوم نفسه.. وإذا كان سباحا ماهرا فيمكن أن يصل إليها عائما.

توقفت عن السير ونظرت إليّ فشعرت بأنني قد تجاوزت حدودي كأسير حرب ولكنها ابتسمت ومدت يدها فخلعت عنها الكاب الذي كان يغطي شعرها الأسود الفاحم فبدت كفتاه إسكندرانية فعلاً تتمتع بذلك الوجه المائل إلى اللون البرونزي والشعر الأسود والذي رغم قصره بحكم عملها كان ينسجم مع لون عينيها الفاحمتين.

– تعرف أنك خفيف الظل؟!

– عموما المصريون كلهم كذلك.. القدر أخذ منا أشياء كثيرة وأعطانا خفة الظل.

– صحيح وماما كثيراً ما تقول لي إنني أخذت الجمال منها وخفة الظل من أبي.

– هل تودين أن تقولي إنك خفيفة الظل أيضا؟

– طبعاً.. هل لديك اعتراض؟

– وهل لي أن أعترض؟ ألا ترين السلاح الذي بجانبك؟

نظرت إليّ وهي تبتسم وفجأة ضربتني بقبضة يديها في كتفي دون أن تفارق الابتسامة وجهها..

– لقد وصلنا..

نظرت أمامي فرأيت بعض الخيام ذكرتني بخيام البدو التي كنا نراها

أحياناً عندما انسحبنا وقد هجرها أصحابها.. وبالوسط يوجد مبنى خشبي واضح أنه لا ينتمي إلى المكان.. اتجهنا مباشرة إليه ثم نظرت إليّ وهي تمد يدها وقالت:

- من هنا سيتم ترحيلك بواسطة الصليب الأحمر إلى شاطئ القناة.. لا تنس تحياتي إلى الإسكندرية وكل أهالي الإسكندرية.

لم أملك سوى أن أشكرها، قائلاً:

- لم تخبريني باسمك.. أنا يحيى.

فردت قائلة:

وأنا سارة وأكيد أن هناك صلة قرابة بيننا.

لم أدرِ ماذا تعني بكلمة قرابة.. ما تلك القرابة التي تعنيها سوى أنها ولدت بمصر بلدي؟ قلت لنفسي إنها تعني ذلك وهذا دليل على أن هناك شيئاً ما يربط بين كل المصريين.

وقفت على الباب قليلاً ثم فتح دون أن أنتظر وخرج منه جندي يبدو عليه أنه ذو سحنة أوروبية وهو يقول باللغة العربية الركيكة:

- أدخل الكوماندو بالداخل.

استغرقت عملية ترحيلنا من معسكر إلى آخر حوالي أسبوعين. وفي اليوم الثامن من شهر يوليو كان اسمي قد دُون في خانة المغادرين.. خرجت ومعي عشرة ضباط آخرين وأنا لا أصدق نفسي وكان معنا مشرف من الصليب الأحمر وضابط وجندي إسرائيليان أخذونا بالسيارة إلى منطقة تكاد تلامس المياه وهناك نزلنا..

وكان بانتظارنا مشرف آخر من الصليب الأحمر الذي أخذنا بمساعدة اثنين آخرين كانا ينتظران في قارب داخل البحيرة.. ما إن نزلنا به حتى انطلق الثلاثة بنا باتجاه الغرب فحاولت أن أغمض عيني ولا أفتحهما إلا عند وصولي حتى أتأكد من زوال ذلك الكابوس ولكني لم أستطع وكنت في كل مرة أفتح عيني أنظر خلفي حتى أتأكد أن المسافة بيني وبين العدو تتباعد.. وما إن وصلنا إلى الشاطئ الآخر حتى هبطنا جميعا بسرعة من القارب خشية أن يغير قائده رأيه ويعود بنا إلى أرض المعاناة.. حتى إن أحدنا قفز بملابسه في المياه ولم ينتظر اقتراب القارب من الشاطئ ويبدو أنه كان سباحاً ماهراً فقد وضع قدمه على أرض الوطن التي لم يدنسها العدو قبل أي فرد آخر.. ولا شعورياً ما إن تأكدنا أن أرجلنا باتت على ضفة البحيرات حتى سجد كل منا شاكرا فحتى لو كانت هذه النهاية فليمت بين أحبائه عزيزا مكرما وليس كضحية لا حول لها ولا قوة قد خارت قواها فاستسلمت وتركت نفسها فريسة سائغة بين أنياب الذئاب.

6

لم يصدق والدي عينيه عندما رآني أمامه على الباب.. بالطبع كنت قد فقدت كل شيء أثناء الحرب بما فى ذلك مفاتيح المنزل ولكني لم أقف أكثر من لحظة على الباب بعد أن قرعت الجرس.. فتح والدي الباب وكأنما كان واقفاً خلفه يترقب عودتي وعندما رآني فتح ذراعيه وتركني ألقي بكل همومي وبكل أثقال الحياة على كتفه، أراد أن يتحمل عني كل أعباء الشهور الماضية مثلما تحمل أعباء كل السنوات التى مضت من عمري.. أخذني بين ذراعيه وأخذ يضمني بشدة إليه حتى يتأكد أنني هو ابنه الذي كان يترقب عودته كل يوم بل كل ساعة وكل لحظة.. ترك لنفسه العنان حتى تخرج بعض مشاعر الحنان الأبوي تجاه الابن الذي كان مفقوداً وكان يعد بين الأموات أكثر من اعتباره بين الأحياء.. لأول مرة شعرت بدموع والدي وهي تغادر عينيه ويستقر بعضها على ذراعي أو على وجهي.. اختلطت الدموع وتعانقت المشاعر في لحظة انتظرناها طويلا وكنا من فرط اليأس قد فقدنا الأمل ألا تأتي.. جلست على أول مقعد صادفني وشعرت بلذة أن تكون في منزلك.. في المكان الذي شهد لحظات ميلاد ولحظات سعادتك الأولى.. في المكان الذي تنتمي إليه وينتمي إليك.. كم أوحشني ذلك المكان.. وأوحشني على

الأكثر الذين يسكنون فيه وقبل أن أفتح فمي لكي أسأل عن أمي بادرني قائلاً:

- إن أمك بالداخل فهي منذ فراقك قد أقعدها المرض، وأصبحت تتحرك بصعوبة ولكنها بخير وسوف تسترد صحتها بعد أن تراك ولكن دعني أمهد لها أمر عودتك حتى لا تفاجأ وتراك دون مقدمات أمامها.

تركته ينسحب إلى الداخل بينما أخذت أتحسس بيدي المقعد الذي أجلس عليه حتى أتأكد أنني في عالم واقعي ولست في حلم.. هناك صورة وحيدة لجدي، والد أبي، قد وُضعت بمفردها على الجدار المقابل في منتصفه تماما كأنما ينظر إلينا جميعا وعين حاله تقول: انتبه يا بني، انتبهوا يا أحفادي.. إنني أراكم وأتتبع خطواتكم.. صحيح أنني قد تركت الحياة منذ زمن ولكن روحي هنا في هذا المكان الذي نشأت فيه ترفرف عليه وتحميه من كل غريب ومن كل معتدٍ.. حافظوا عليه كما حافظت أنا عليه.. لا تدعوا أحدا يغتصبه منكم.. لا تتركوه وحيدا مهجورا فترعى فيه الذئاب والحيات.. إنني معكم أشد أزركم وأترك مكاني في الفردوس كي أزوركم من وقت لآخر وأطمئن أنكم في أحسن حال.

نظرت إلى الصورة ملياً وأنا أقول له: أين أنت الآن يا جدي؟ أين كنت عندما كنتِ وحيدا أصارع الموت بين تلال الرمال وتحت سياط الشمس المحرقة؟ صحيح أنك ساعدتني في النهاية ودعوت الله أن يوصلني لبر الأمان.. وهآنذا بين الأحبة وأحب المخلوقات إلى قلبي.. ولكن أين كنت في البداية؟ أين كنت عندما شن اليهود هجومهم المفاجئ علينا؟ لماذا لم تخبرنا قبل أن يبدأوا؟ لماذا تركتنا في ذلك اليوم المشهود وكنا أشد ما نحتاج إليك فيه؟ أهذه هي الساعة التي يترك فيه الجد

حفيده؟ كنت في حاجة إليك.. إلى كلماتك، حتى تشد من أزري.. كنت في حاجة إلى عينيك حتى أبصر بهما العدو الرابض خلف التلال في انتظاري، كنت في حاجة إلى يديك حتى أحيط بهما عنق عدوي فلا أتركه إلا وهو جثة هامدة.. كنت في حاجة إلى قدميك حتى أتحسس بهما وضع قدمي فلا أخطو على لغم عن طريق الخطأ أو أسير في طريق ليس له نهاية.. أين كنت يا جدي؟ أهذه هي اللحظة التي يتخلى فيها الحبيب عن حبيبه؟ أتتركني أنا وكل أفراد الجيش المصري وأنت تعلم أنك ملاذنا الوحيد بعد الله سبحانه وتعالى؟ هل غفوت قليلاً وعندما استيقظت كان المحظور قد وقع، كانت الحيات قد تركت أوكارها وأخذت تنهش في أجسادنا كما تنهش الذئاب في أجساد الحملان والشياه بعد أن غفل الراعي عنها وأخذ يغط في نوم عميق.. وعندما استيقظ لم يجد سوى بقايا أجساد من الضحية كي تلتهمها الدماء بينما أكلت الذئاب وشبعت وأخذت معها بقايا أجساد من الضحية كي تلتهمها في وجبة العشاء، ومن تبقى حيا من أفراد القطيع قد ترك المرعى الأخضر وأخذ يعدو إلى الصحراء فقد يجد بين تلالها الصفراء ما لم يجده بين المراعي الخضراء؟ أين كنت يا جدي؟ ألست أنت الراعي؟ ألسنا نحن الشياه؟ نحن لم نحيد عن الطريق الذي رسمته لنا.. كنا نسير عليه وأنت دائماً أمامنا وأحياناً تترك أحدنا في المقدمة ولكنك تظل بجوارنا.. في وسطنا.. عن يميننا.. أو عن يسارنا.. ولكنك لم تكن أبدا خلفنا.. كنا نرعى ونمرح ونعود كل يوم مع غياب الشمس إلى نفس الذي نأوي إليه كل ليلة.. لم تتركنا يوما بمفردنا.. لم نعتد على ذلك.. ولكنك في تلك الأيام السوداء التي لن تنمحي من ذاكرتي تركتنا.. نظرت أمامي فلم أجدك.. بجواري لم أجدك..

قلت قد تكون خلفي.. خلفي لم أجدك.. توقفت قليلاً عن السير وقلت قد تكون تخلفت قليلاً عنا لتعب قد أصابك فلأنتظر قليلاً حتى تلحق بي.. انتظرت.. وانتظر معي كل الرفاق.. ولكنك لم تظهر وفي اليوم التالي لم تظهر ولم يبدُ لي أي آثار على الرمال.. وبدلا من أن تأتي أنت، وترشد حفيدك.. أقصد أحفادك كلهم، ومعهم أبناؤك إلى الطريق، إذا بجيوش الظلام تظهر وقد علت الرمال والأتربة بفعل آثار أقدامها فغطت المكان وحجبت الرؤية عنَّا للحظات.. ولكنها كانت لحظات كافية لأن نجد أنفسنا قد سقطنا جميعا صرعى.. لا جد.. لا راعي.. لا مرعى.. لا مياه.. أين كنت؟ أين كنت يا جدي؟

ويبدو أن هذه الجملة قد أفلتت مني بصوت عالٍ لأنني وجدت أبي وهو بجواري ويربت على كتفي ويقول:

– هل تحادث جدك يا بني؟

– أنا؟

– نعم لقد سمعتك الآن وأنت تقول: أين كنت يا جدي؟

– لا تؤاخذني يا والدي.. إنني متعب.

– أعلم.. أعلم ذلك يا بني.. والآن تعالَ معي فأمك في انتظارك وهي متشوقة إلى رؤيتك.

كان لقاءاً عاصفاً.. يمكن لكل منكم أن يتخيل أن قد عاد لها ولدها بعد الموت. وفي المساء اجتمعنا جميعا على مائدة الطعام، طبعاً جاء أخي وزوجته وابنته ليرحبوا بي ويساعدوا أمي في إعداد الطعام.. قلت متأثراً ونحن على

المائدة:

– أطال الله في أعماركم جميعا.. لا أدري ماذا كنت أفعل بدونكم.

– دوننا نحن فقط أم أن هناك شخصا آخر يجب أن يضاف إلى القائمة؟!

قالها أخي بطريقته التي تجعلني أعجز عن الكلام دائماً ولكنه أكمل حديثه:

– عموما أنا اتصلت بالسيد المدير عندما علمت بقدومك، وهو سوف يأتي غدا بعد المغرب لزيارتنا.

– شكرا يا أخي.. جزاك الله كل خير.

– من يدري؟ قد لا يأتي بمفرده.

رد أبي قائلاً:

– سواء جاء بمفرده أو معه ابنته فسوف نكون جميعا في استقباله.. فالرجل له أفضال كثيرة على أخيك.

– نعم يا أبي.. إن أفضاله لا تعد ولا تحصى.

– أعلم يا بني.. وعندما يأتي غدا سوف أطلب منه بصفة رسمية أن نحدد موعدا للخطوبة والزواج.

– شكرا يا أبي.. أطال الله في عمرك أنت وأمي.

– وأنا.. نسيتني الآن بعد أن اطمأننت على حبيبة القلب؟

– طبعاً لا.. أنت أخي.. أنا لا أفعل شيئاً دون مشورتك وهذا حقيقي، آراؤك دائماً خير معين لي بعد آراء والدي.. هذه حقيقة.. أطال الله في عمرك أنت

وزوجتك وابنتك.

نهضت مستأذناً.. وقبل أن أدخل إلى حجرتي نظرت ثانية إلى صورة جدي على الحائط فوجدت هناك مسحة حزن قد علت وجهه بل إنني شعرت بأن هناك قطرة دمع توشك أن تغادر عينيه.. أهو حزين؟ حزين مني؟ هل أسأت الأدب عندما تحدثت معه دون إذن والدي؟ هل ارتفع صوتي وأنا أحادثه دون أن أدري؟ لا أعلم السبب في هذا الحزن.. أم أنه حزين لأنه تخلى عني في اللحظة التي كنت أريده فيها؟ يا ربي رحماك.. كل هذه الأسئلة تطن في رأسي.. إنني أريد أن أتخلص من خلية النحل التي وجدت طريقا لها إلى عقلي قبل أن تعشش في قلبي وتترك سكانها ينهشون روحي.

• • •

فتحت الباب فوجدت المدير أمامي، مددت يدي لأصافحه فأخذني بين ذراعيه وضمني إليه كابن غائب لم يره منذ سنوات.. تركني بلطف وكان والدي يقف خلفي مباشرة حتى يرحب به، ونظرت خلفه لأرى أجمل وجه في الوجود.. وجه طالما افتقدته وطالما حلمت به وتمنيت أن يعطيني الله عمرا فوق عمري حتى لا أحرم منه.

- هل ستتركني أقف هكذا على الباب؟

قالت وهي تمد يدها إليّ، فقلت:

- طبعاً لا.. ولكنني كنت أود أن أمتع نفسي قليلاً قبل أن نجلس مع الآخرين وتتوهين مني وسط الزحام.

- وهل ستتركني أتوه منك؟

- طبعاً لا.. كنت أجدك دائماً وأنت بعيدة هناك.. بين أترابك من نجوم السماء.. فكيف أتركك تتوهين مني وأنت معي الآن على الكوكب نفسه.

- كوكب؟ أتتحدثان في علم الفلك الآن؟ أهذا وقت العلوم؟

قال أخي ذلك وهو يتقدم إلى علياء ويسلم عليها:

- أنا طبعاً..

- طبعاً أعرفك جيدا.. لقد حدثني يحيى عنك كثيراً.

- وهل قال لك إنه يأخذ دائماً بمشورتي وإنني صاحب فضل عليه؟

- نعم.. هو يقر بذلك دائماً.. ولا يفعل شيئاً دون مشورتك كما يقول.

- وهل أخبرك أنني أتفوق عليه في كل شيء: الذكاء وحسن تقدير الأمور وحل المشاكل وخلافه؟

- نعم.. أخبرني بكل ذلك.. إنه دائماً يمتدحك.

نظر أخي الأكبر إليَّ وعلى وجهه ابتسامة كبيرة:

- أحسنت يا أخي، ولكنك أخيراً تفوقت عليَّ في شيء واحد.

- ما هذا الشيء؟

نظر أخي إلى علياء ثم نظر إليَّ وقال:

- لقد تفوقت عليَّ في اختيار شريكة حياتك، ولكن طبعاً هذا سيبقى سراً بيننا نحن الثلاثة.

ابتسمت علياء خجلاً ونظرت إلى الأرض كعادتها بينما أخذته أنا من ذراعه

امتناناً له على هذا الاعتراف وسرنا نحن الثلاثة إلى حيث كان يجلس والدي مع المدير، أما أمي فكانت في المطبخ مع زوجة أخي لإعداد طعام العشاء.. ما إن رأى والدي علياء حتى نهض إليها وضمها إلى صدره قليلاً ثم نظر إليها وقال:

– ما شاء الله.. لقد أحسنت الاختيار يا بني.. أحسنت اختيار الأسرة أولا.. وأحسنت اختيار العروس ثانيا.. بارك الله لكما.. لقد اتفقنا على أن يكون الخميس المقبل هو موعد الخطبة وسيكون ذلك في منزل سيادة المدير.

* * *

في اليوم التالي للخطبة ذهبت إلى منزل حماي بناء على دعوته لي؛ لأنه كان يريد أن يتحدث معي بمفردنا.. بادرني قائلاً:

– هل مازلت تريد الاستمرار في مكانك الذي أنت فيه؟

– وهل لي مكان آخر غير القوات المسلحة للعمل؟

– لم أقصد أن تترك الجيش، ولكن أقصد أن تترك السلاح وتخدم في سلاح آخر.

– أنا لم أفكر في ذلك.. وهل سأنجح في سلاح آخر غير الذي تخصصت فيه؟

– هناك أسلحة لا تحتاج إلى تخصص دقيق بقدر ما تحتاج قدرات أخرى مثل العمل بدون مواعيد وأحيانا بدون إجازات محددة أو الدقة المتناهية في التنظيم.. كرئاسة الجمهورية على سبيل المثال.

– رئاسة الجمهورية؟ وما الذي يمكن أن أفعله هناك؟

– هناك العمل يمثل قمة الانضباط في الجيش ويحتاج إلى قدرات خاصة

وأعتقد أن هذا يتوافر لديك.

- شكراً على ثقتك الكبيرة فيَّ يا عمي.

- إذا كنت مستعداً لذلك فإنني أستطيع أن أتصل باللواء "فهمي" قائد الحرس وهو صديق لي وإذا كانت هناك فرصة فلن يحرمك من ذلك.

- أعتقد أن الخدمة في الرئاسة شرف عظيم لكل ضابط وجندي فيكفي أننا سنكون في شرف خدمة الزعيم الذي نحن في أشد الحاجة إليه الآن حتى نستطيع أن نعيد بناء قواتنا المسلحة.. في يوم ما اعتقدت أنه تخلى عنا وتركنا في رمال الصحراء وسط الذئاب.. بل وسمحت لنفسي بأن أعاتبه على ما فعل بنا.

- أعلم ذلك.. إنها لحظات عصيبة عشناها جميعا، خصوصا من شهدوا المعركة مثلك، والزمان هو خير علاج لما خلفته لنا من آلام.

° ° °

في موقعي الجديد كان العمل يتطلب مني دقة غير عادية أثناء عملية تنظيم ملفات الضباط العاملين بالسلاح.. فقد كنت مسئولا عن ذلك ويعاونني ضابط آخر أصغر مني رتبة.. كانت مسئولية كبيرة، تتطلب ثقة متناهية فيمن يقوم بها، فكل أسرار الضباط تحت يدي، أقوم بقراءتها وإبداء بعض الملاحظات عليها قبل عرضها على قائد الحرس حتى يقوم بوضع اللمسات الأخيرة عليها.. ثم أقوم بحفظها في ملفات جديدة.

كانت هناك عمليات تجديد وتحديث تتم في كل مواقع القوات المسلحة، سواء أكانت مواقع ميدانية أم مكاتب أم إدارات مسئولة عن تنظيم كل هذه

الأعمال.. في أقل من شهر تم عمل ملف جديد لكل ضابط بالسلاح، وُضعت بترتيب معين في المكتب يسهل الاطلاع عليها إذا أراد المدير ذلك.

ذات يوم وأنا جالس منهمك في عملي فُتح الباب ورأيت المدير أمامي.. دهشت من وجوده وقمت على الفور مرحباً به.. بالطبع هو لم يكن يأتي إليَّ.. كنت أذهب أنا إليه عندما يريدني وأطلعه على ما يريد ثم أعيد الأوراق إلى مكانها.

– طبعاً أنت مندهش من وجودى؟ قال ذلك بعد أن جلس وأغلق الباب خلفه وأعطى تعليمات للجندي الواقف على الباب بألا يزعجنا أحد.

– يا أفندم سيادتك تشرف عندما تريد.. خيراً؟

– خير.. لا تقلق.. لقد جئت هنا حتى أستطيع أن أتحدث دون إزعاج فأنت تعلم أن مكتبي دائماً يعج بالزوار.

– طبعاً.. أعلم ذلك.

– لقد كنت بالأمس في زيارة إلى اللواء عبداللطيف رئيس الديوان، ورأيت أن هناك الكثير من العمل المطلوب لديهم، لإعادة تنظيم مكتب السيد الرئيس وكذلك الملفات الكثيرة الموجودة هناك.. وقد سألني إذا كان هناك أحد يستطيع أن يساعده في ذلك.. ورشحتك للعمل هناك.

– يا أفندم إنه شرف كبير لي أن أخدم في أي مكان في رئاسة الجمهورية.

– أعلم ذلك.. صدقني.. ما كنت أريد أن أستغني عنك ولكني أعلم أنهم يحتاجون إليك هناك أكثر مني.. ويمكن طبعاً أن ترجع ثانية بعد أن تؤدي

مهمتك.

- أنا تحت أمر سيادتك.. وشكرا على هذا الترشيح والتقدير وأتمنى أن أكون جديرا بهما.

- لا يخالجني شك في أنك جدير بهما.. وإذا كان العمل هنا يتطلب السرية والكتمان فالعمل هناك يتطلب المزيد من السرية والكتمان.. سوف تكون مسئولا عن ملفات وأوراق لا يقرؤها إلا الرئيس واللواء عبداللطيف طبعا.

- أعلم ذلك.. يمكن أن تعتمد عليَّ.

- تستطيع أن تبدأ عملك هناك من يوم السبت وسوف أعلمهم بذلك.. وسوف تكون السيارة بانتظارك بالمنزل السابعة صباحا، لتذهب بك إلى هناك مباشرة.

° ° °

كنت مدعواً في ذلك اليوم على الغداء عند حماي وقبل أن أدق الجرس فتح الباب، وعندما رأيت علياء دُهشت، قالت:

- كنت جالسة في "البلكونة" أترقب حضورك فقررت أن أفتح الباب قبل أن تدق الجرس.. إيه رأيك؟

- رأيي أن كل ثانية تمضي دون أن أراك فيها ليس لها معنى.

- إنني أكتشف فيك أشياء جديدة دائماً.

- اكتشافات حلوة؟

- طبعاً حلوة.. وأتمنى أن تظل هكذا.

كنا قد وصلنا إلى الصالون فوجدت عمي جالساً بانتظاري.. بعد أن حييته، قلت على الفور:

- لقد تم ندبي لمكتب ديوان الرئيس ابتداء من يوم السبت المقبل.

- شرف كبير لك يا ابني أن تعمل في مكتب السيد الرئيس شخصياً.. ولا شك في أنك كفء وإلا ما تم ترشيحك لذلك.. عموما أنا أعلم ذلك لقد أخبرني اللواء فهمي تليفونياً اليوم.

- ولماذا لم تخبرني بذلك يا بابا؟

صاحت علياء على سبيل العتاب لأبيها.

- لأني أردت أن تعلمي ذلك من خطيبك بنفسك، وهو يخبرنا بذلك الآن قبل الآخرين.

- يعني سوف ترى الرئيس يومياً؟

- لا أعتقد ذلك.. ولكني من المؤكد أنني سوف أراه إذا ما عرضت عليه بعض الملفات التي قد يطلبها.. وإن كنت أعتقد أن رئيس الديوان هو الذي يتولى ذلك.

رد حماي قائلاً:

- طبعاً إنه رئيس الديوان الذي يفعل ذلك، ولكن في حالة عدم وجوده فقد يتولى مساعده عمل ذلك أو من ينوب عنه.

- عموما هذا خبر سار.. قالت علياء ذلك ثم أردفت شبه هامسة وهي في طريقها إلى المطبخ حتى لا يسمعها والدها:

- ويجعلك تستحق كل ما أعددته لك من طعام.

بعد الغداء، فاجأني عمي بسؤاله:

- متي ستتزوج يا كابتن؟

- حضرتك قلت عندما تنهي علياء دراستها.

- صحيح.. لكنها أقنعتني أنها تستطيع أن توفق بين الزواج والدراسة.

- أنا بصراحة أعتقد أنه ممكن.. لكن الرأي الأخير والأول لحضرتك طبعا، ولعلياء.

قلت ذلك ونظرت إليها ويبدو أن الموضوع كان محرجا لها، فقامت حتى تحضر المزيد من الشاي والحلوى.

- أنا ليس لديَّ مانع، ولكني أريد منك كلمة شرف بأنك لن تحمِّلها فوق طاقتها، أو تجعل الزواج يشغلها عن دراستها.

- أعدك بذلك يا عمي.

- أنا الآن مطمئن ولا أرى هناك مانعاً من الزواج الشهر المقبل إن شاء الله.

- شكراً يا عمي.. دائماً ما تغمرني بفضلك.

- وأنا متأكد أنك ستعامل ابنتي بنفس الطريقة.

- طبعا، وأعد سيادتك ثانية بأن علياء ستظل دائماً موضع رعايتي واهتمامي.

- وأنا لا أريد منك أكثر من ذلك.. وسيكون الفرح في نادي الضباط، وندعو المقربين لنا لأننا لو دعونا كل من نعرف سنجد كل أفراد القوات المسلحة هناك.

° ° °

7

انتهى الأسبوع الذي كنت قد حصلت عليه إجازة بمناسبة زواجي أو شهر العسل كما يُقال.. لم يكن للظروف التي تمر بها البلاد ونحن في مرحلة إعادة بناء القوات المسلحة، أن أحصل على أكثر من ذلك.. ورغم أن حماي قد انتقل لفترة مؤقتة للإقامة عند صفاء، ابنته الثانية، تاركا لنا المنزل حتى نكون فيه أكثر حرية، في أيام الزواج الأولى، إلا أننا كنا دائماً نذهب إلى زيارته والاطمئنان عليه بشكل شبه يومي.. كان الرجل كريما معنا إلى أقصى حد.. ترك لنا حجرة مكتبه لتكون حجرة نوم لنا؛ لأنها كانت كبرى حجرات المنزل، وقام بمساعدتنا طبعاً بنقل أثاثها وكتبها إلى حجرته الخاصة وحجرة ابنته، والباقي وجد مكانا له في الصالون الذي كان أيضاً حجرة معيشة بالنسبة للجميع، ومكانا لاستقبال الضيوف.

اتفقنا على أن تظل حجرة علياء كما هي بأثاثها مكانا يمكن أن نستضيف فيه من يمكن أن يقضي الليل عندنا وكذلك لتكون مكانا لضيوف المستقبل من الأولاد، كان اليوم يمضي سريعا بين إعداد الطعام واستقبال المهنئين بالزواج، أو الخروج بعد غروب الشمس لقضاء بعض الوقت خارج المنزل مستمتعين بنسمات المساء

المنعشة.. كنا نذهب إلى نفس النادي، الذي شهد عرسنا، وكان يتميز بموقعه الفريد على شاطئ النيل، كنا نتناول أحياناً طعام العشاء هناك، وذلك عكس رغبة زوجتي التي كانت تريد أن نأكل في المنزل إلا أنني كنت أحاول أن أريحها بقدر الإمكان من العمل في المطبخ وتجهيز الطعام وما يستلزم ذلك من مجهود.

لم يكن هناك أسعد منا حالا سوى أهلي وأهلها.. شعرت بمدى فرحة والدي عندما عبر لي عن ذلك بقوله إنه يشعر الآن بأنه قد أدى رسالته في الحياة، ومستعد أن يلاقي ربه دون شعور بالذنب أو التقصير في تنشئة ولديه وقيامه بواجبه نحوهما، أما أمي فقد كانت لها أمنية أخرى هي أن ترى أولادي قبل أن تموت حتى تشعر بالرضا الكامل، بالطبع كانت تلك أمنية والدي أيضاً، وإن لم يعبر عنها معتبراً أن ذلك أمر خاص بيني وبين زوجتي، ويجب أن يتم الاتفاق بيننا دون تدخل أحد حتى ولو كان أقرب الناس إلينا.. كنت أتمنى أن يتأخر الإنجاب حتى تنهي زوجتي دراستها، ولا يؤخرها شيء عن ذلك، أو تزيد المسئوليات عليها انشغالاً بذلك الضيف الجديد، والحمل ومتاعبه، كانت تلك رغبتي، وعبرت لها عن ذلك رأفة بها، أما هي فكانت تقول دائماً إن ذلك من الأمور التي يجب أن نتركها لله وهو الذي سوف يقدرها كيف يريد، وكانت ترفض أن تجيب صراحة عن سؤالي: هل تريدين أطفالا الآن أم لا؟

بالطبع كان ذلك نوعا من الرضا بقضاء الله، والذي يعكس إيمانا داخليا لم أكتشفه فيها، إلا بعد الزواج، بالطبع شعرت أيضاً بالسعادة لأنني رغم تعبيري عمًا بداخلي، فإنني كنت دائماً مؤمناً بألا شيء يحدث للإنسان في كل أرجاء

الكون بدون علم الله وتدبيره، كان هذا هو إيماني ولا يتغير، صاحبني في لحظاتي البهيجة، وفي أيامي المعتمة، كنت بالطبع أفعل ما هو مطلوب مني دون تقصير، ثم أترك النتائج لتدبير العلي القدير، وحتى لو لم أرضَ بالنتيجة حال استقبالها، إلا أنني كنت أستطيع أن أقنع نفسي بأن ذلك خارج إرادتي، وعدم تقبل النتيجة لن يغير من الأمر شيئاً إلا أن يزيدني هما وحزنا، والأفضل أن أتقبلها وأصبر، خصوصا إن كانت نوعا من البلاء أو الابتلاء، كما حدث أثناء المعركة التي انتهت دون أن تبدأ.. رغم أننا أظهرنا بعض الاختلاف بخصوص موضوع الإنجاب، أو بمعنى أدق التوقيت المناسب لذلك، إلا أننا نحن الاثنين كنا مقتنعين من داخلنا بأن الله لن يريد لنا سوى الخير في النهاية، وسوف نتقبل ذلك عن رضا.

* * *

في اليوم الاول لاستلامي العمل مع اللواء عبداللطيف مدير مكتب الرئيس كنت أشعر كأنني تلميذ مقبل على امتحان لا يمكن له أو لآخرين -بما في ذلك واضع الامتحان- أن يتكهن بنتيجته.

كان المكان ضيقا وهو عبارة عن حجرتين منفصلتين، وإن كان بإمكان الجالس في أي منهما -إذا استرق السمع- أن يصل إلى أذنيه ما يدور في الحجرة الأخرى.

كانت الكبيرة منهما مخصصة للمدير، والأخرى الأصغر مخصصة لمساعده.. أي: لي، رغم صغرها فقد كانت منسقة بها مكتب يمكن أن يوضع فوقه الكثير من

الأوراق والملفات وكان بالفعل معظمه مشغولاً، وكذلك ما يشبه الدواليب المعدنية المثبتة في الحائط، مثل التي توجد في المطابخ عادة، ولكن تُفتح بشكل جرار حتى لا تشغل مساحة كبيرة من الحجرة، وبها شباك واحد صغير يسمح بكمية كافية من ضوء النهار للعمل دون الحاجة إلى الأباجورة المثبتة على منضدة صغيرة تبدو عليها آثار أكواب الشاي وفناجين القهوة، طلبت من زوجتي أن تدعو لي بالتوفيق في هذا الامتحان، بالطبع ذكرتني بنصيحة والدها عندما تحدثنا عن المدير الجديد.

إنه رجل عسكري رغم أنه لا يرتدي سوى الثياب المدنية، بحكم عمله، أما رأسه فهو من إنتاج أصلب أنواع الحديد الذي تم تصنيعه في المصانع الحربية، صحيح أنه طيب، بمعنى أنه لا يذكر أنه قد تسبب في حرمان أحد من حقه، أو استغنى عن أحد من مرءوسيه دون سبب، ولكن لا يسامح أحداً قصَّر في أداء واجبه ولا يوجد لديه ما يسمى بالغلطة الأولى التي قد يعفو عنها، الغلط عنده لا يُغتفر.. دخلت إليه بعد أن قمت بالتعرف على مكتبي ومحتوياته حتى أعلم المزيد عن مهمتي الجديدة، جلست بناء على طلبه ولم يتركني كثيراً لأفكاري:

- أنا أقوم بتجهيز الملفات التي يود أن يطلع عليها سيادة الرئيس بشكل يسهِّل له مهمته؛ لأن لديه الكثير لعمله.. وأحيانا يأتي لي هو بأوراق تصل إليه من المسئولين ويطلب مني ترتيبها ووضعها في ملفات حديثة تُحفظ هنا لدينا.. وطبعا أنت تعلم أهم حاجة في عملنا إيه..

- طبعاً يا أفندم.. السرية المطلقة.

- بالضبط.. وأنا واثق من أن ما يُقال هنا لن يصل إلى مسامع أي مخلوق آخر.

- اطمئن يا أفندم.. إني أدرك ماذا تقصد سيادتك.

- عظيم.. أنا أعرف حماك جيدا.. صحيح لم نخدم معا في نفس السلاح، لكن طبعاً يكفيه فخرا أنه أخرج أجيالاً من الكلية الحربية.

- وهو أيضاً أثنى كثيراً على سيادتك.

- ألم يقل شيئاً آخر؟

- قال إن سيادتك لا تسمح بالخطأ في العمل.

فجأة نهض من مكانه، فقمت بدوري لألتفت إلى القادم الذي جعله ينساني تماماً.. فإذا به الزعيم وهو يدخل علينا من باب الحجرة.. تسمرت لحظات في مكاني فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي ألتقي فيها "الريس" وجهاً لوجه.. أدركت حرج الموقف فانسحبت مؤدياً التحية، وانتظرت حتى دخل الرئيس المكتب، أولا حتى لا أزاحمه على الباب، وقبل أن أستدير تماما منصرفا إلى مكتبي ناداني سيادة المدير:

- لحظة.. انتظر.

وقفت مكاني دون حراك.. أراقب المدير وهو يعرض بعض الملفات على الزعيم، وهما مازالا واقفين وتبادلا كلمات قليلة لم أحاول أن أتبين معناها، وإن كنت لم أتمالك أن أمنع نفسي من مشاهدة الزعيم وهو على بعد لا يتجاوز ثلاثة أمتار مني، كانت لحظة استمتاع لي قررت ألا تفوتني، من يدري متي أراه المرة المقبلة؟

لا أدري كم مرَّ من الوقت فقد كنت مشغولاً بملاحظة الزعيم وهو يستمع إلى بعض الملاحظات أو يدلي بـبعض ملاحظاتـه.. تحولـت إلى تمثـال في مكـاني، لا أتحرك ولا أرمش حتى بعيني، فالموقف كان أكبر من أن يفوتني أو يمضي دون أن تسجله ذاكرتي بأدق التفاصيل.. انتبهت على صوت المدير وهو يقدمني:

– اليوزباشي يحيى مساعدي الجديد، مثلما قررت سيادتك أن أبحـث عـن أحد يساعدني.

ما إن أنهى جملته حتى سارعت لأداء التحية فقد كنـت مرتـدياً ملابـسي العسكرية وفوجئت بالزعيم خارجا يقف بجواري، ثم يمد يده مصافحاً يدي التي امتدت دون أن يتحرك أي جزء آخر من أجزاء جسمي، وإذا به يبتسم وهو خارج موجها كلامه لي:

– لا تنسَ.. العمل هنا صعب، خصوصا مع اللواء فهمي.

– إن شاء الله سأكون عند حسن ظن سيادتك وسيادته.

وما إن انصرف بعيـداً حتـى طلـب مـني المدير أن أجلـس حتـى نواصـل.. واستغرق العمل منا ساعات لم نشعر بطولها ولم يكن أي منـا ينظـر إلى سـاعته أو يعرف له مهمة أخرى، من وقت لآخر كـان يقـوم بـالرد علـى التليفـون ويحـدد بعض المواعيد والمقابلات للريس، في أجندة خاصة علـى مكتبـه ثـم يواصـل عملـه ليطلعني على الملفات الأكثر أهميـة في المرحلـة الحاليـة والـتي يمكـن أن يطلبهـا الرئيس في أية لحظة، فيجب أن تكون بـين يديـه أو علـى مكتبـه دون تـأخير.. طلب لنا بعض السندوتشات التي لم أشعر أنها أُعدت بعنايـة كافيـة وإن لم أهـتم

بذلك ويبدو لي أنني قارنتها بتلك التي كانت تعدها زوجتي أحياناً وتضعها لي في حقيبة المكتب التي أحملها معي كالتلميذ، التي تصر أمه على أن يأخذ شيئاً معه يأكله وقت الراحة، وبالطبع كانت المقارنة في صالح ما تعده زوجتي.

° ° °

في اليوم التالي وصلت إلى المكتب مبكرا قبل السابعة صباحا، مع أن ميعادي في الثامنة حتى أتمكن من تجهيز بعض الأوراق في حجرتي قبل وصول رئيس المكتب.

كانت معي نسخة من المفاتيح، فدخلت إلى مكتبي مباشرة، وأثناء انشغالي بالعمل، شعرت بحركة في غرفة المدير، وخرجت لا شعوريا أستطلع الموقف، ما إن وصلت إلى الباب حتى وجدته شبه مفتوح، وقبل أن أطرق بإصبعي، سمعت صوت المدير وهو يقول لى: تعالَ يا يحيى.. دخلت.

– هل ترى ذلك الرف؟ وأشار إلى أحد الأرفف في أقصى جانب الغرفة من على يمين الداخل، وكان يتعامل مع شباكها الوحيد.

– نعم يا أفندم.. أراه.

– محظور الاقتراب منه، حتى لو طلبت منك أحد الملفات التي به، تحضره لي دون أن تفتحه.

– أمرك يا أفندم.

– ألا تريد أن تعرف نوع الملفات التي عليه؟

– هذا أمر يخص سيادتك.. إذا أخبرتني سوف أستمع إنما لن أسأل أبدا عن

محتوياته.

– طبعاً وأنا واثق منك تماما، وأثناء سفري سأتركك بالمكتب بمفردك، لكن هذه أوامر الرئيس ألا يقترب أحد من هذه الملفات.

– عموما أنا ليس لديَّ آفة حب الاستطلاع.

– هي فعلا آفة، هذا أجمل وصف سمعته عنها؛ لأنها من الممكن أن تذهب بصاحبها لما وراء الشمس.

انتهينا من الحديث ونحن نتناول الطعام والقهوة، وبدأ يرشدني إلى بعض أماكن الملفات التي يمكن أن يحتاجها الرئيس ويفتح بعضها ويعطيني ملخصا عما فيها.

ooo

ذات يوم من أيام سبتمبر، شعرت بأن المدير يتحرك كثيراً ويذهب من مكتبه إلى مكتبي أحياناً ويرد على الكثير من المكالمات التليفونية، وكانت إحداها من الرئيس نفسه.. وأثناء تناولنا القهوة والسندوتشات المعتادة.. نظر إليَّ وهو ينفث غضبه في سيجارة بين أصابعه وكان لا يدخن إلا عندما تشتد به العصبية ويزيد عليه الضغط:

– لا أفهم ما الذي يفعله الرئيس.. إنه لا يستريح أبداً.. فعلاً هذا كثير.. أكثر من طاقتنا على العمل.. إني آخذ أوراقا معي إلى المنزل أسهر عليها قبل أن يراها.

ويبدو أنني فهمت ما يعنيه فقلت محاولا أن أزيل بعضا من الألم الجاثم

على صدره:

- هذا هو قدرنا يا أفندم.. وسيادتك كنت دائماً على قدر المسئولية.

ويبدو أنه أدرك أنني لم أفهم قصده.. فنظر إليَّ وقد زاد من غضبه ما أظهرت من غباء دون قصد.

- أنا لا أتحدث عن أنفسنا.. نحن لسنا على هذا القدر من الأهمية.. نعمل ليل نهار.. نتعب.. نذهب إلى المستشفى.. نموت.. سوف يأتي غيرنا.. أنا أقصد هو.. إنه ينتحر.. هذا كلام الدكتور نفسه وليس كلامي أنا، لو حدث له مكروه البلد كله سوف يغرق.. أتفهم ذلك؟ كله.

ويبدو أن الانفعال قد أخذ منه ما تبقى من طاقته العصبية فإذا به يخر جالسا على كرسيه ويأخذ رأسه بين يديه مسندا نصفه الأعلى على المكتب دون حراك لفترة خشيت منها أن يكون قد أصابه مكروه.. فنهضت من مكاني واقتربت منه، دون أن أزعجه محاولا التأكد أنه مازال يتنفس، وعندما شعر بي رفع رأسه قائلاً:

- لو رأيت الريس هذا الأسبوع ستفهم معنى كلامي.

ويبدو أنه لم يكن يحتاج أن يؤكد ذلك؛ إذ رن جرس التليفون فأشار عليَّ أن ألتقط السماعة.. وسمعت صوتاً قال إنه من ضباط الحرس الجمهوري.. يقول في صوت يغلب عليه البكاء:

- البقاء لله.. الريس مات.

° ° °

مع بداية عملي مع الرئيس الجديد، شعرت أن هناك أشياء كثيرة تتغير وأحيانا كان يبدو التغيير سريعا، أسرع مما يستطيع أن يستوعبه عقلي أحياناً.. كثير من القادة والمسؤولين الذين كانوا يصنعون معظم الأحداث تمت إزاحتهم سواء بإرادتهم أو رغما عنهم، بل ذهب بعضهم إلى السجن بتهمة الخيانة أو المؤامرة.. لم يكن الرئيس الجديد ضعيفا كما تصور الكثيرون.. صحيح أنه لم يكن من صانعي الأحداث في عهد الزعيم ولكن يبدو أنه كان مراقبا جيدا ويفهم كل ما يدور في البلد حتى إذا وجد نفسه في موقع القيادة –وهذا ما حدث– إذا به يمسك الدفة بيد تعرف المناورة ويبسط أشرعة السفينة كبحار ماهر حتى إذا سكنت الريح وتوقفت في عرض البحر تجده قد أمسك بالمجدافين بيد من حديد ويشرع في تحريكهما.. فإذا بالسفينة تواصل مسيرتها إلى المرفأ الذي أراده هو لها وليس إلى الميناء الذي جهزه الآخرون.

ظللت في عملي لمدة عشرة شهور تقريبا مع مديري نقوم بنفس المهمة مع اختلاف أن الرئيس الجديد لم يكن يمر علينا بالمكتب وإنما يرسل أحد ضباط الحرس ليأخذ ما يريده من ملفات ويطلب منا أن نجهز له ما يرى الرئيس أنه في حاجة إليه.

وفي أحد أيام شهر مايو وعندما ذهبت إلى المكتب وجدت هناك ضابطا من الحرس الجمهوري لم أره من قبل جالسا على مكتب المدير وهو يقلب في بعض الأوراق وعندما رآني قال:

– أنت طبعاً المقدم يحيى؟

- تمام يا أفندم.

- لقد أرسلني الريس بخصوص بعض الملفات ويبدو أنها ليبست موجودة.. هل تعرف مكانها؟

- ما نوع الأوراق التي بها؟

- أوراق خاصة ببعض المسئولين وكانت محفوظة هنا بالتأكيد، لكن اللواء فهمي يقول إنها ليست هنا.. لا يوجد هنا شيء خاص بالمسئولين.

- إنه يعرف المكان طبعاً أحسن مني، يمكن لسيادتك أن تسأله.

- لقد قدم استقالته.. مؤكد أنك تحب تكمل مع الريس.

- هذا شرف لي يا أفندم أن أخدم مع سيادة الرئيس.

- سأرجع مرة أخرى.. ابحث عنها.. حاول أن تجدها.

- حاضر سأبحث في المكتب هنا لأنني أعرف كل الأوراق التي في مكتبي أنا.

وانصرف زائري الغريب حتى دون أن يفصح عن هويته وأدركت بالتأكيد أنه حتما سيكون من حرس الرئاسة أو أحد مستشاري الرئيس الجديد.. نظرت لا شعوريا إلى ذلك الرف الذي كانت عليه الملفات التي طلب مني المدير ألا أعرف محتوياتها فلم أجدها في مكانها، فأدركت أنها لابد أن تكون هي الملفات التي يتم البحث عنها.. فكرت أن أطلب سيادة المدير بمنزله لأسأله ولكني خشيت من عواقب ذلك، فقد يكون الآن من المغضوب عليهم وقد تطيح تلك المكالمة بكل الحسنات التي في ملف خدمتي، جلست قليلاً لا أدري ماذا أفعل، فكرت أن

أتصل بحماي حتى أستشيره، ولكني لم أحبذ الفكرة حتى لا أسبب لـه متاعب، هو في غنى عنها.. قمت بعملية بحث سريعة ولكن مركزة في غرفة المدير ولكني لم أجد شيئاً يتعلق بالمسئولين المغضوب عليهم، بالطبع أنا لم أذكر شيئاً من ذلك إذا تم التحقيق معي، فأنا فعلا لم أرَ محتويات تلك الملفات حتى وإن علمت بوجودها، وهي الآن ليست في مكانها لأنها لم تكن من مسئولياتي.

شعرت بنوع من القلق الذي يصعب معه التفكير في الأمور المهمة، فذهبت إلى حجرتي المجاورة حتى أجلس قليلاً إلى مكتبي وأتناول ورقة وقلماً وأقوم بتدوين بعض الملاحظات، ما قد يساعدني على تجميع أفكاري، جلست إلى مكتبي ونظرت إلى الملفات المكدسة، والتي كانت تتزايد مع الوقت وإن كنت أعلم بكل محتوياتها.. جال نظري بكل أرجاء الغرفة محاولاً تجميع شتات أفكاري وأنا ممسك بالقلم والورقة لكي أفرغ جزءاً من الطاقة العصبية التي كانت تمنعني من عملية التركيز عسى أن تهبط عليَّ فكرة تخرجني مما أنا فيه وتطلعت ببصري إلى السماء طالبا العون، فاصطدم بسقف الحجرة وارتد لي ثانية، وإذا به وهو في منتصف الطريق بين السقف والمكتب يلمح شيئاً وُضع على عجل ويبدو أنه ليس مكانه، نهضت من مكاني ومددت يدي فالتقطت حوالي عشرة ملفات تبدو غريبة على المكان ولا أذكر أنني وضعتها هنا، دققت النظر إليها فتذكرت أنها هي التي طلب مني المدير ألا أفتحها حتى إن طلب مني أن أسلمها له أو للرئيس.. أوشكت أن أفتح أحدها لأرى ما بداخله ولكني استطعت أن أمنع نفسي في آخر لحظة.. شعرت بالراحة وقبل منتصف النهار حضر إليَّ نفس الرجل فأخبرته أنني

وجدتها، ولكني لا أستطيع أن أسلمها له لأن ما بها من معلومات قد يكون خطيرا، والتعليمات التي لدي هي أن أسلمها إلى مديري أو سيادة الرئيس، نظر إليَّ قائلاً:

– مديرك قد قدم استقالته وقبلت.

– إذن سيادة الرئيس شخصيا، أو سيادتك تتصل بسيادة الرئيس ويبلغني أن أسلمها لسيادتك.

نظر إليَّ الرجل وشعر أنني ضابط عنيد وأعرف مهام عملي بالضبط.. جلس إلى المكتب وطلب رقما لم أعرفه، طبعاً طالباً منه أن يوصله لسيادة الرئيس.. علمت من مكالمته أنه ضابط شرطة برتبة عقيد، بعد دقائق دق جرس التليفون وسمعته يقول وقد نهض من على الكرسي:

– حاضر يا أفندم.. حاضر.. أوامر سيادتك يا ريس.

وضع السماعة ونظر إليَّ قائلاً:

– الرَيس يريدك حتى تسلمه الملفات بنفسك.

° ° °

كان يوماً شاقاً.. رجعت إلى المنزل وجدت حماي وزوجتي بانتظاري وهما في أشد حالات القلق:

– ماذا حدث؟ اتصلت بالمكتب وعرفت أنك خرجت مع واحد من الرئاسة.

قصصت عليهما ما حدث طوال اليوم، خرجت مع ذلك الزائر الذي لم ألتقه من قبلُ إلى أن وصلت إلى منزل الرئيس ومعي الملفات أحملها في حقيبتي الخاصة،

بالطبع انتظرت فترة ليست طويلة في صالون ملحق بالمنزل، ويبدو أنـه مخـصص للزائرين الذين لن يمضوا وقتا طويلا في المكان.. أدركـت ذلـك مـن بـساطة أثاثـه، وعدم وجود ما يدل علي إمكانية استخدامه كمكتب أو قاعة للاجتماعات.. تركني رفيقي ودخل عبر باب شاهدت من خلاله ممرا طويلا يفضي إلى حجـرات كـثيرة على جانبيه ويبدو أنه ينتهي بالصالون الرئيسي للمنـزل، وقبـل أن تـذهب بـي أفكاري إلى أكثر المناطق ظلمة داخل رأسي.. فتح الباب.. فقفزت من مقعدي عندما رأيت الرئيس أمامي.

– الرئيس بنفسه؟

قاطعني حماي فقلت:

– فعلاً.. الريس، وكان معه ضابط آخر برتبة لواء ولكني لم أره مـن قبـل.. لم يطلب مني الجلوس وطلب الملفات فناولته إياها، تصفحها بسرعة وعلت علـى وجهه علامات الدهشة أحياناً والاستنكار أحياناً أخرى، ونظر إلـيَّ وأنـا مازلـت واقفاً وهو يقول:

– عظيم أنك وجـدت هـذه الملفـات.. فيهـا معلومـات كنـت أريـدها سـوف تفضحهم كلهم بالطبع.

لم أعقب على كلامه فتابع حديثه قائلاً:

– ألم تجهز تلك الأوراق بنفسك؟

– لا يا أفندم.. الملفات كانت في عهدة سيادة المدير وطلب مني ألا أتـصفحها لأي سبب، ووجدتها اليوم في مكتبي وليس في مكتبه، لا أعرف من الذي وضعها

عندي.

- ألم ترَ ما فيها؟

- لا يا أفندم.. كانت هذه أوامر مديري بناء على تعليمات الريس.

رأيته ينظر إليّ مستغربا ثم نظر إلى اللواء الذي كان بصحبته وهمس في أذنه بما لم أتيقنه ثم غادر بسرعة وهو يقول لي:

- شكراً يا حضرة المقدم، تستطيع أن تنصرف الآن وتأتي صباح الغد تقابل سيادة اللواء وسوف يخبرك بالمطلوب منك.. تركني بسرعة وفي أثره مرافقه دون حتى أن يراني أو أن أؤدي له التحية.

نظر إليّ حماي محاولاً أن يفهم جيداً كلماتي ويدرك معناها وقد ذهبت من على وجهي كل آثار النوم.

- يعني أنت فعلاً لا تعرف محتويات هذه الملفات؟

- أبداً.. لم أفتحها أبداً.. وكانت الملفات في مكتب اللواء فهمي حتى إنني نسيتهما تماماً.. بصراحة لا أعرف من نقلها إلى مكتبي.

- أكيد اللواء فهمي أراد أن يتخلص منها.

نظرت علياء وكانت صامتة طوال الوقت تستمع إلينا بينما تدير وجهها ناحية أبيها تارة وناحيتي تارة أخرى، وهي تحاول جاهدة أن تفهم فحوى حديثنا ويبدو أنه قد أعياها التفكير فنظرت إليّ قائلة:

- الآن ما موقفك؟ أين ستعمل؟

- بصراحة لا أعرف حتى الآن.. ولكنني سوف أسلم نفسي غداً لمرافق

الرئيس اللواء.. إنني حتى لا أعرف اسمه.

نهض حماي من مكانه ونظر إليَّ قائلاً:

- خير إن شاء الله.. لو كان هناك شيء ضدك كانوا طلبوا أن تقدم استقالتك في الحال أو أحالوك إلى الاستيداع.

ثم نظر إلى ابنته:

- جهزي شيئاً لزوجك، أكيد هو في حاجة لبعض الطعام.

- فعلا لم أتناول شيئاً طوال اليوم.

قلت ذلك وأنا أنهض مستأذناً من عمي حتى أتوجه إلى الحمام عسى أن تذيب المياه الدافئة بعض تلك الأفكار التي تجمدت في رأسي وأبت أن تغادره بسهولة.

* * *

في اليوم التالي كنت أقف عند مدخل منزل الرئيس، عند البوابة الجانبية التي يبدو أنها مخصصة لدخول العاملين.

- أنا المقدم يحيى.. عندي ميعاد مع سيادة اللواء.

لم أكن أعرف اسمه إلا أنني كنت متيقنا أن هناك شخصا واحدا بالمنزل بهذه الرتبة فعدم ذكر اسمه لا يعني شيئاً بالنسبة للضابط الواقف على مدخل البوابة، نظر إلى دفتر أمامه ثم حياني:

- تفضل يا أفندم.. هو في مكتبه.. سيادتك تعرف مكانه؟

- لا أتذكر مكانه تماماً.

- ثالث مكتب على اليمين.

- تمام.. شكراً.

دخلت من نفس المكان وعبرت الغرفة الصغيرة التي كنت بها بالأمس إلى الممر الطويل، وبالطبع لم تكن هناك صعوبة في الوصول إلى مكتب اللواء، كان الباب شبه مفتوح، مددت يدي، وطرقت دون إزعاج، محاولاً أيضاً ألا أفتحه كاملا دون استئذان، سمعت صوته وهو يقول:

- أنا بانتظارك، تفضل.. أنا اللواء فتحي عبدالجواد.

في ثوان كنت بالداخل وأدهشني كبر المكان وحسن تأثيثة بأكثر من مكتب وجهاز تليفون وكذلك تليفزيون صغير وثلاجة وكنبة مريحة، تصلح أن تكون سريرا عند اللزوم، نهض من مكانه وتقدم نحوي وأدرك من عيني إعجابي بالمكان فقال دون تفكير:

- أيعجبك المكتب؟

- طبعاً يا أفندم.. المكان لائق بسيادتك.

- من اليوم سيكون مكتبك.

- مكتبي أنا؟ أهذا معقول؟

- طبعاً.. الريس سُرَّ منك لأنك سلمته اللفات من غير أن تفتحها احتراماً لتعليمات مديرك وتعليمات الرئيس، وهذا هو أساس العمل عندنا.

- طبعاً يا أفندم، الحمد لله أني عرفت مكانها.

- سيادة الريس طلب مني أن تكون مساعدا لي، سوف تخدم معي وسيكون

معنا أيضاً اثنان من الضباط: واحد جيش وواحد شرطة.

– هذا شرف كبير لي يا أفندم، عموما الجندي يخدم في أي مكان.

– سيكون مكتبك هنا في بيت الرئيس.. وسيكون معك ضابط جيش يساعدك، وأنا سأنقل عملي إلى القصر الجمهوري، وسيكون معي العقيد فكري من الشرطة.. سنكون دائماً على اتصال، وتعليماتك ستكون مني أنا مباشرة.

– لو هناك استفسار مهم ولم أستطع أن أصل لسيادتك؟

– من الممكن أن تسأل العقيد فكري إذا لزم الأمر.. نحن الأربعة سنكون فريق عمل مهمتنا تجهيز كل ما يحتاج إليه الريس من معلومات تساعده على إدارة شئون الدولة.

– أتوجد هنا ملفات أو أوراق ليس من المفروض أن أطلع عليها؟

– هنا.. هذا مكتبك.. كل الأوراق التي تكون فيه ستكون في عهدتك، تنظمها بالشكل الذي يسهل للرئيس عملية الاطلاع عليها إذا طلب.

نهض من مكانه وبدأ يعرِّفني بأماكن الملفات والأوراق والطريقة التي جُمعت بها وفتح لي بعضها واطلعت على بعض محتوياتها، دُهشت من أن الكثير منها كان جديدا بالنسبة لي، لم أره من قبل.. هل تم عمل كل ذلك في فترة تقل عن العام؟ ومن جهزها بهذا الإتقان؟ كانت بعض الملفات القديمة قد نُقلت من مكتبي ومكتب مديري إلى هذا المكتب وتعرفت على تلك التي كانت عليها ملاحظات دونتها بخط يدي.

– الآن سأمضي إلى مكتبي الجديد بالقصر الجمهوري.. عندك أيضاً كنبة

تُستخدم كسرير وقت اللزوم، وحمام خاص، ولو احتجت لشيء.. أكل.. شرب.. اطلب من ضابط الأمن وسيصلك ما تريد.

- تمام يا أفندم.. سؤال أخير بعد إذنك: هل هناك مواعيد محددة للعمل هنا؟ هذا منزل الريس.

- لا توجد مواعيد.. كل المطلوب منك ألا تزعجه بشيء.. عندما يريدك سيطلبك، وطبعا عندما تكون غير موجود زميلك الثاني يجب أن يكون موجوداً، وهذا كارت مكتوب عليه كل أرقام التليفونات الخاصة بي وبالعقيد فكري، وهذا كارت آخر خاص بالأماكن التي يمكن أن يتواجد فيها الريس وتليفوناتها، لكن هذا في وقت الطوارئ فقط.

- إن شاء الله لا أحتاج هذا الكارت.

- أتمنى ذلك.. سأتركك الآن يا بطل.. ابدأ عملك.

ومد يده وهو يغادر المكتب وفاجأني وهو عند الباب: لا تنسَ أن ترسل سلامي إلى حماك اللواء عبدالعزيز، كان أستاذي في الكلية وأنا أدرس فيها.

- حاضر يا أفندم.. سأبلغه ذلك.

بمجرد خروجه من المكتب استلقيت على الكنبة وكانت فعلا مريحة، وتدعو إلى النوم أكثر من العمل أو الجلوس، كنت في حاجة لدقائق من الراحة قبل أن أبدأ مهمتي الجديدة، وإن كانت لا تختلف كثيراً عن السابقة، صحيح أن الريس تغير والمكان تغير وكذلك المدير الجديد، إلا أن طبيعة عملي تكاد تكون دون تغيير، كل ما تستدعيه هو الكتمان ثم الكتمان، والحمد لله كانت تلك هي

فضيلتي الأولى.

كانت السنوات الأربع الأولى من عملي في مكتبي الجديد هي أصعب أيام.

كانت هناك الكثير من القلاقل والمظاهرات والتي كانت دائماً تطالب بشن الحرب على إسرائيل لاستعادة أرضنا السليبة، وكثيرا ما أعلن الرئيس أننا بصدد ذلك، وأننا لن نفرط أبدا في أرضنا، ولكن اتخاذ قرار الحرب لم يكن بالأمر السهل، فقد جربنا الحرب دون استعداد كامل لها، وعرفنا نتائجها، ولا أعتقد أن أحداً من المسئولين وخصوصا الرئيس يمكن أن يغامر بمعركة أخرى دون التأكد من النصر، وإلا لو حدثت هزيمة أخرى لا قدر الله فلا يمكن لأحد أن يتخيل ما يمكن أن تسفر عنه من نتائج سيئة، لن ترحم أحدا سواء أكان رئيسا أم راعي غنم في الصحراء.

بالطبع بحكم قربي من الرئيس كنت على يقين أنه سوف يحارب، وأنه فقط كان ينتظر اللحظة المناسبة، وتوقيت المعركة -كما يدرك العسكريون- لا يحدده ضغط من جماعات سياسية أو أحزاب أو حتى مظاهرات الجامعة التي كانت تمثل ورقة ضغط وصراعا مستمرا لرجال الشرطة والسياسة على السواء.

كان يقول أحياناً: أدخل حرب والبلد غير مستعد؟ هل يمكن أن نتحمل نكسة أخرى؟ بالطبع كان لابد من تجهيز الجيش بمعدات وكذلك إقامة المنشآت الكفيلة بصد هجمات العدو وغارات طيرانه فوق البلاد، كان كل ذلك يتم بتعاون بين الجيش وكل مؤسسات الدولة التي يمكن أن تسهم في ذلك ولكن أحياناً كثيرة ما كان يمكن أن يتم الإفصاح عن ذلك أو نشره في الصحف، حتى يعلم الجميع أن

الاستعداد للمعركة على قدم وساق، كان الرجل يعلم ما يريد ويسعى ويخطط له، ولكن كانت السرية هي أضمن سلاح لكسب المعركة القادمة، كان أحياناً يمر على مكتبي وهو في طريقه إلى المنزل ليجلس قليلاً كي يسترد أنفاسه ويغلق باب المكتب خلفه وأحترم صمته ولا أتحدث إلا إذا بادرني هو بالكلام، كان كثيراً يتحدث إليَّ دون أن يعنيني أنا بالكلام، وإنما فقط يريد أن يفرغ تلك الشحنة الانفعالية التي تراكمت بين جنباته قبل أن يلتقي أسرته، كان يعلم أنه يستطيع أن يقول كل ما يريد، أن يصب جام غضبه على أي فرد وهو يعلم أن كلماته لن تغادر تلك الحجرة، كان ذلك مبعث همي وحزني عندما أراه في تلك اللحظات الكئيبة والتي كان لا يود أن أحدا يراه فيها، إنها لحظات الضعف الإنساني التي تجتاح كلاً منا وتأسرنا أحياناً داخلها دون أن نستطيع منها فكاكا، لحظات يدرك فيها المرء أيّاً ما كان موقعه حتى ولو كان رئيس الجمهورية أنه إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة أحياناً وإن كان لا يستطيع أن يُظهر ذلك أمام أحد حتى أقرب الناس إليه الذين ينسون أنه إنسان قبل أن يكون رئيسا أو ملكا، في حاجة لأن يشكو همه وحزنه دون أن يكون موضع رثاء في حاجة أن يدع تلك المشاعر الكئيبة تنطلق مع أناته قبل أن تكمل بناء أعشاش لها بين جنبيه متخذة من ضلوعه سقفا لها، ومن خلاياه جدرانا تحتمي بها، كنت أتركه يتحدث دون أن أقاطعه، حتى إذا فرغ من حديثه، سمحت لنفسي أن أعلق على كلماته بما يريح من نفسيته المتعبة.

مرت فترة طويلة تصل إلى شهر لم أره أو يمر عليَّ في مكتبي، لم يقلقني ذلك على العكس أيقنت أنه لابد أن يكون في أفضل حال، فهو لا يزورني إلا في

أسوأ حالاته النفسية، بالطبع شعرت بأن هناك ترتيبات غير عادية، تتم في القوات المسلحة، وذلك عن طريق الأوراق التي كانت تصلني أو تُطلب مني أحياناً.

دعوت بيني وبين نفسي أن يكون الوقت قد حان، كنت لا أنسى أبدا أنني ضابط جيش أولاً وأخيراً، جندي يتمنى أن يكون له شرف المشاركة في الميدان، ولو للمرة الأولى والأخيرة، لقد حُرمت من ذلك دون إرادتي، ولكنها إرادة الله الذي أراد لنا الهزيمة لأننا لم نكن نستحق النصر، كنا نريده طبعاً.. ولكننا لم نسعَ إليه، لم نخطط له، اعتقدنا أن رفع أيدينا للسماء للدعاء يكفي لتحقيقه، ونسينا أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، وإنما التخطيط السليم والتدريب الذي يسيل حبات العرق من على الجباه هما اللذان يحققان النصر، عندما نتمكن من ذلك يمكن أن ترفع يديك إلى السماء، وهنا سوف ينصر الله من ينصره.

° ° °

مضي أسبوع من شهر رمضان وكنت أحياناً أتناول طعام الإفطار في مكتبي بمفردي أو مع زميلي الذي كان يساعدني، كان هناك الكثير من المعلومات المطلوب منا تجهيزها، بعضها كان عسكرياً صرفاً وبعضها لا علاقة له بالجيش إطلاقاً.

دخل عم ابراهيم حاملاً صينية عليها طعام الإفطار ووضعها على المنضدة المخصصة لذلك ونظر إليها ليتأكد أنها لا ينقصها شيء، شكرته وأغلق الباب خلفه حتى يتركني أتناول طعامي في هدوء، كان الطعام يأتي دائماً على أساس أن هناك اثنين سوف يتناولانه، ولكنه كان يكفي على الأقل خمسة أفراد، بعد أن تأكدت أنني بمفردي، غيرت ملابسي استعدادا للصلاة والإفطار، وقبل أن ينتهي أذان

المغرب الذي يأتي من مسجد قريب من المنزل، سمعت طرقا على الباب فقلت أكيد عم إبراهيم نسي شيئاً فأتى لإحضاره وإن كان منظر الطعام أمامي لا يوحي بذلك.

– ادخل يا عم..

وقبل أن أكمل عبارتي، فُتح الباب ووجدت الرئيس أمامي، ارتبكت من منظري بالبيجامة فاعتذرت عن ذلك واستأذنت لأغير ملابسي فقال لي:

– لماذا تغير ملابسك؟ هذا ميعاد أكل، وأنا قادم كي أفطر معك، الأولاد مدعوون وأنا لا وقت عندي للدعوات، فقررت أن آكل معك حتى لا أفطر بمفردي.

– تشرف يا أفندم، لكن اسمح لي أن أبدل ملابسي.

– لا.. أنا سأرتدي الجلابية وأنت بالبيجامة.

ومد يده للتليفون وفي دقائق كان يرتدي الجلابية دون العباءة وقمنا بالصلاة بعد تناول بعض التمرات وأصر على تقديمي للإمامة وتناولنا الإفطار معاً لأول مرة ولاحظت أنه لم يأكل كثيراً فقد كان متلهفاً على البايب ثم جلس على الكنبة وهو يشعر بالارتياح وهو يدخن البايب بمتعة، ولاحظت أن حالته النفسية كانت على ما يرام، على عكس ما كان دائماً يحضر إليَّ، ونظر إليَّ قائلاً:

– يا سلام على رمضان، لو مر رمضان هذا على خير كل شيء سيكون تماماً.. لم أفهم معنى كلماته ولكني لم أسأل كالعادة وإنما أكدت نفس المعنى.

إن شاء الله.. كل شيء سيكون تماماً مثلما تريد سيادتك وأحسن بفضل هذا الشهر الكريم.

8

كانت حرب أكتوبر بالرغم مما شابها من نقد، خصوصا فيما يتعلق بموضوع الثغرة، إنجازا بكل المقاييس.. يكفي أن الجيش الإسرائيلي عرف وأدرك أنه جيش يمكن أن يُهزم، بل أن يقهر وذلك باعتراف بعض قادته، يكفي أننا دخلنا حربا فعليا لا شكلية أو رمزية، وأننا أثبتنا أننا من أفضل جنود الأرض، إن لم نكن أفضلهم، صحيح أنا لم أشارك كجندي في ميدان المعركة وإنما شاركت بعملي في مكتب الرئيس الذي اتخذ القرار وحدد ساعة الصفر بما يتفق مع أفضل المعطيات المتاحة، وكان متواجداً دائماً مع قادته في غرفة العمليات، كان الموضوع دائماً في وجدانه ولكنه كان ينتظر الوقت المناسب، كان رجلاً سياسياً وعسكرياً أيضاً فعندما رأى أن العدو قد استعان بقوات أكبر قوة عسكرية وبدأت المعدات تصل إلى الميدان وتشارك في المعركة وافق على وقف إطلاق النار، أدرك أننا يمكن أن نحارب إسرائيل ولكننا لم نكن مستعدين لأن نحارب أمريكا، كان الاستمرار في الحرب هو الانتحار بعينه، وهو لم يدخل المعركة ليقذف بأبنائه في أتون النار كي يصبحوا وقوداً لها دون مقابل، دون أن ترجع أرضنا لنا.. استطاع أن يستعيد الجزء الأكبر من سيناء وما تبقى فكان من نصيب المفاوضات أن تعيده إلينا دون

إراقة دماء، كان الرئيس زعيماً أيضاً بمعنى الكلمة وإن اختلفت وجهات النظر عندما تتحدث عنه، البعض رآه خائنا قد باع قضية العرب الأولى، «مقابل استعادة أرضه، وكان يستحق الإعدام على ذلك، والبعض رآه رجلاً قد سبق عصره بأفكار لم تكن عقول العسكريين ولا حتى رجال السياسة مستعدة لها، وبين هؤلاء وهؤلاء كان في نظر البعض سياسيا يتمتع بقدر كبير من الذكاء يجعله يغتنم الفرصة إذا أتيحت له كي يحقق أكبر قدر ممكن من المكاسب الشعبية.

مع تصاعد الأحداث أو حدوث الأزمات كان العمل يثقل أحياناً، ورغم أنه كان هناك ثلاثة معاونين لي في المكتب فإنني كنت أكلف نفسي أحياناً بما لا تطيق، مدركا حجم المسئولية الملقاة على عاتقي، وتلك الثقة التي شرفني بها الرئيس حتى إنه كان يتناول معي الطعام عندما يكون بمفرده.

في أحد الأيام، طلبت مني السيدة حرمه أن أنتظرها حتى أرافقها إلى الجامعة، بالطبع لم أستطع أن أعترض رغم ما ورائي من عمل، وقلت لنفسي ماذا أفعل؟ أنا مع سيدة مصر الأولى، وكان هذا هو اللقب الذي تفضله، كنت أعلم أنها تقوم بالدراسة في كلية الآداب وأنها تود أن تعوِّض تلك الفترة التي لم يُتَح لها أن تكمل فيها دراستها الجامعية وهي الآن رغم تعدد أنشطتها لديها بعض الوقت لذلك، في الطريق إلى الجامعة، نظرت إليَّ بعد أن رفعت نظارتها الشمسية السميكة من على عينيها قائلة:

– ماذا ترى في الأحداث التي تمر بها البلاد الآن؟ أدركت أنها تعني ذلك الغليان الذي يحدث بين صفوف من يطلق عليهم قوى المعارضة سواء أكانوا من

الشيوعيين أم من التيار الإسلامي، والذين كان يطلق عليهم الرئيس "القلة المنحرفة"، نظرت باتجاهها دون أن أحاول النظر إلى وجهها كنوع من التوقير والاحترام قائلاً:

– أحياناً لا أدري يا أفندم ماذا يريدون بالضبط، ولكن هذا يحدث في كل البلاد.. دائماً ما يكون هناك معارضون لكل نظام.

– صحيح، ولكني لا أستطيع أن أفهم سر نقدهم الشديد للريس ولي أحياناً مع أنني لم أفعل ما يستوجب ذلك.

– هم لا ينتقدون سيادتك شخصيا حتى إن بدا لسيادتك ذلك، إنهم ينتقدون حرم سيادة الرئيس أيا ما كان اسمها.

– ولكنك سوف ترى اسمي معلقاً على بعض اللافتات المنتشرة في الجامعة، هذا يعتبر إساءة أدب ومظهراً من مظاهر عدم فهمهم لما يجري في البلد.. هل هم يعتقدون أنني أدير البلاد فعلاً بحكم اشتراكي ومساهمتي في بعض الأنشطة الاجتماعية التي تهدف إلى مصلحة الجميع؟

– يبدو أن البعض منهم يعتقد ذلك يا أفندم.

– كيف لهم أن يفكروا في ذلك؟ ألا يعلموا أن الرئيس نشأ في الريف ويتمسك دائماً بمبادئ وأخلاق القرية؟ فكيف له أن يترك أمور الحكم في يد زوجته، حتى ولو كانت تتمتع بقدر كبير من الذكاء والفطنة؟

– هذا غباء منهم يا أفندم.. هم أحياناً يحكمون بالمظاهر.

شعرت بأنها لم تسترح إلى جملتي الأخيرة ولكنني استدركت قائلاً:

– أقصد عندما يرون سيادتك في اجتماع مع بعض الوزراء وهم يشيدون بما تقومين به من إنجازات على كل المستويات، ينسون أن سيادتك تفعلين ذلك باسم الرئيس وليس باسمك شخصيا.

– فعلاً.. أفعل ذلك باسم الرئيس ولمصلحة البلد ولكن لا يبدو أنهم يفهمون.

– ولن يفهموا ذلك أبدا.. لا تعيريهم كثيراً من الاهتمام حتى لا يعوق ذلك الجهودَ التي تبذلينها سيادتك من أجل المرأة والمجتمع.

– لك حق.. يجب ألا أعيرهم أدنى اهتمام.

هبطت من السيارة وكان بانتظارها رئيس القسم وظللت أنا بجوار السيارة منتظراً وأنا أرقب تلك اللافتات التي ازدحمت بها الطرقات ومداخل المباني الرئيسية وأحيانا على جذوع النخل في الحدائق كانت كلها معارك كلامية سواء أكانت ضد الحكومة أم النظام بشكل عام.. وبعضها ضد الرئيس شخصيا أو حرمه.. كان بعضها فعلا مستفزا، وشعرت أنها لها حق فيما أبدته من اعتراض على فكر هؤلاء الذين يمثلون المعارضة بجناحيها أقصى اليمين وأقصى اليسار.

رجعت السيدة حرم الرئيس وكان معها أيضاً على ما يبدو رئيس القسم أو عميد الكلية الذي فتح لها باب السيارة وشكرته، وهي تخبره بأنها سوف تتصل به في أقرب فرصة.

في طريق العودة لم تقل كلمة واحدة، وكانت مشغولة بمطالعة بعض الأوراق في يدها ولم أجرؤ أن أنظر إليها أو أوجه لها حديثاً.. عند وصولنا إلى المنزل ظللت بالسيارة حتى دخلنا من البوابة الرئيسية ونزلت منها، توجهت إليها قبل أن

تتجه إلى مدخل المنزل مستأذناً في الانصراف، نظرت إليَّ ثم قالت:

– هل رأيت اللافتات المكتوبة؟ أفهمت ما أعنيه؟

– نعم يا أفندم.. رأيت بكل أسف.. وهذا شيء يدل على عدم وعي من يقومون به، ولكن هذه هي ضريبة الديمقراطية التي ينادي بها الرئيس.

– نعم.. لا أعتراض على الديمقراطية، ولكن هذه اللافتات لا تدل إلا على قلة أدب من كتبوها أو سمحوا بها، وعموما أنا كلمت رئيس الجامعة حتى يزيل اللافتات.. الجامعة للعلم.. للعلم فقط.. وليست للمسخرة.

قالت ذلك وانصرفت في حالة مزاجية سيئة، حتى إنها لم تعر اهتماما بأن تحييني قبل أن تنصرف، نظر إليَّ الحارس الخاص قائلاً: لا تشغل بالك يا أفندم، هي دائماً هكذا عندما تعود من الجامعة، كل مرة تقول لن أذهب إليها ثانية ولكنها تذهب، عندما تدخل وتنشغل بما ينتظرها من أنشطة.. سوف تنسى ذلك.

– أتمنى هذا.. والآن لأذهب أنا أيضاً إلى مكتبي فلديَّ الكثير من العمل.

° ° °

عند جلوسي على مائدة الطعام مع زوجتي وحماي كان محور حديثنا هو زياتي للجامعة مع حرم الرئيس.. لم يفهم أي منا ما سبب دعوتي لتلك الزيارة ولم أكن بحاجة لتلك الزيارة حتى أتأكد من ذلك لديَّ على مكتبي عشرات التقارير التي تأتي إليَّ بصفة يومية وأقوم بقراءتها وتحليلها وعرض ما أراه مناسبا على سيادة الرئيس حتى يعلم أيضاً ما يحدث في البلد أو يتخذ القرار

المطلوب بخصوص أمر معين، نظر حماي إليّ:

- لابد أن يكون هناك سبب لذهابك مع حرم الرئيس إلى الجامعة.. إنها سيدة تعرف جيدا ما تفعل.

- بالطبع.. ولكنها لم تخبرني بشيء.. كانت تتحدث فقط عن تلك اللافتات وأنها مظهر يدل على عدم الاحترام وقلة الذوق.

- أعتقد أن هذه هي الرسالة، التي أرادت أن توصلها إليك حتى توصلها بدورك إلى سيادة الرئيس.

- وهي.. ألا تستطيع أن تفعل ذلك؟ إنها تستطيع أن تعطي أمراً إلى رئيس الجامعة فيزيل تلك اللافتات ويمنع وضع غيرها دون الحاجة إليّ أو إلى الرئيس.

- صحيح.. ولكن يبدو أن الرئيس له رأي آخر، فأرادت أن يستمع إلى وجهة نظرها ولكن من شخص آخر يقدره ويحترم وجهة نظره، فاصطحبتك اليوم لترى بنفسك وتحدث الرئيس.

- وأنا أيضاً من وجهة نظر بابا.

نظرت إلى زوجتي وحماي اللذين أدركا ذلك، فهمت الآن معنى كلام حرم الرئيس عندما قالت أنا كلمت رئيس الجامعة حتى يزيل بعض اللافتات، لم تقل: كل اللافتات.. ولو كان في مقدورها أن تفعل ذلك لفعلته، إنها تريد من الرئيس أن يفعل ذلك.. أن يصدر أمره بذلك، عندما أتحدث إليه عن زيارتي للجامعة وعدم رضائي عما رأيت، فسوف يكون ذلك معضدا لرأي زوجته.. كان الرئيس يحترم رأي زوجته كثيرا، ويترك لها مساحة كبيرة من الحرية ومزاولة

الكثير من الأنشطة التي يرى أنها تعود بالنفع على البلد في آخر المطاف.. أحياناً كان يختلف معها في القيام ببعض المهام التي كانت ترغب فيها.. كان يوافقها الرأي ثم يطلب منها عدم القيام بذلك.. ليس عن عدم اقتناع منه بما تفعله ولكن على ضوء بعض التقارير التي كانت تأتي من بعض الأجهزة الأمنية أو الرقابية والتي كانت تمر أولا على مكتبي قبل أن يراها الرئيس.. كانت بعض هذه التقارير تحبذ عدم اشتراك السيدة حرمه في افتتاح مؤسسة ما أو نادٍ معين حتى لا يُساء فهم ذلك ويشعر الناس أن الرئيس نفسه ينتمي إلى ذلك المكان أو يحبذ هذا النشاط الذي لا يتلاءم مع مكانته.. بالطبع كان إقناعها بذلك متروكا للرئيس وليس لي.. كانت مهمتي هي إعداد التقرير النهائي الذي يقرؤه الرئيس، أما اتخاذ القرار فهو مسئوليته هو وحده أو من يستشير من أصدقائه أو المسئولين.. كان أحياناً يطلب مني رأيي الشخصي في الموضوع وكان ذلك من أصعب الأمور على نفسي.. كنت أحاول أن أنأى دائماً عن إعطاء وجهة نظري فقد تعجبه ولا تعجب الآخرين فأتحمل أنا مسئولية ذلك وإن لم يخبرني بذلك.

نظرت إلى زوجتي التي كانت تبدو صامتة ومتعبة طوال الوقت:

– تبدين اليوم متعبة.. عموما تستطيعين أن تنهضي وتستريحي.. أنا..

قاطعني حماي قائلاً:

– زوجتك ليست مجهدة من العمل ولكن من..

سكت قليلاً ثم اقترب مني وقال في أذني هامساً:

– من الحمل.. زوجتك حامل.. مبروك.

نهضت من مكاني وقد نسيت كل أحداث اليوم ودب النشاط من جديد في جسدي وروحي وصحت:

- معقول؟ أخيراً؟

نهض حماي مستأذنا لكي يذهب إلى سريره.. واقتربت أنا من علياء وجلست بجوارها:

- منذ متى؟ لماذا لم تخبريني؟

- من شهر تقريباً.. أدركت ذلك ولكني لم أشأ أن أخبرك إلا قبل أن أتأكد.

- وتأكدت من ذلك؟

- نعم ذهبت إلى المستشفى العسكري مع بابا منذ أسبوع وعملت بعض التحاليل، وعرفت النتيجة اليوم.

- حوالي عشر سنين الآن وأنا.. أقصد ونحن ننتظر هذا اليوم.

- الحمد لله المفروض ألا أقوم بأعمال مجهدة الشهور الأولى.

- لا في الشهور الأولى ولا الأخيرة.. لا مجهدة ولا خفيفة.

- كيف؟ والبيت؟

- من الغد سوف يكون عندك شغالة، وسوف تقيم عندنا بصفة مستديمة.. وتنهض بكل أعباء المنزل. تستطيع أن تنام في غرفتك القديمة حتى نتدبر أمر إقامتها.. مطلوب منك فقط التوجيه.. مفهوم يا "نجمتي الصغيرة".

- معقول؟ منذ زمن لم أسمع هذه الكلمة.

- اعذريني يا حبيبتي.. ظروف عملي تنسيني أحياناً واجبي تجاهك.

- عموماً أنا مدركة لظروف عملك تماماً.. وإذا كان نفسي في طفل فمن أجلك أنت.. أما أنا فلا أريد أن يشغلني شيء عنك.. حتى ولو كان ابننا.

نظرت إليها ولم أستطع الرد، أخذتها بين ذراعي برفق مريحا رأسها على صدري.. كنت أشعر دائماً بأني محور حياتها، ورغم حبها الشديد لأبيها وتعلقها به منذ وفاة أمها، فإنها لم تشعرني أبدا أنني الرجل الثاني في حياتها.. كنت دائماً أول من تهتم به في الصباح الباكر.. وآخر من ترعاه إذا أقبل المساء.. لم تشتكِ يوما واحدا أو تتذمر من ظروف عملي أو مبيتي أحياناً في المكتب بدلا من الرجوع إلى المنزل.. كانت تتفهم ولا تبدي سخطها.. كانت دائماً ترضى بكل ما أعطتها الحياة.. حتى طوال تلك السنوات التي تأخر فيها الحمل، لم تذهب إلى الطبيب.. كانت تقول:

- يكفيني أنني معك.. لا أريد أحداً يشغلني عنك وعن اهتمامي بك. أنت زوجي وابني.. وهذه نعمة كبرى أحسد عليها نفسي أحياناً فلا تعكر عليَّ صفو سعادتي.

* * *

جاءت "حنان" إلى هذا العالم لتعوضني عن فقدي لوالدي وحماي في العام نفسه.. لم يتسنَّ لأي منهما أن يراها.. هذه هي الحياة.. تعطينا ولكن تأخذ منا أكثر مما تعطي أحياناً.. كان الموقف صعباً على زوجتي أن تفقد أباها وهي في أشهر حملها الأخيرة، حتى إنني خشيت كثيراً أن يؤثر ذلك على صحتها.. ولكنها كانت أقوى مما تخيلت.. كانت تعلم مدى حاجتي إلى من يحمل اسمي

وأشعر أنه امتداد لي في ذلك العالم المتوحش فلا أشعر أنني وحيد، خصوصا أن بشائر الشعر الأبيض بدأت تجد طريقا لها في رأسي.. كنت أحاول أن أتواجد معها أطول فترة ممكنة حتى لا تشعر بالوحدة بعد غياب والدها.. كنت أضحي بوقت الراحة الذي يمكن أن أقضيه في المكتب فأذهب مسرعا إلى المنزل حتى أراها وأطمئن أن كل شيء على ما يرام.. بالطبع لم تكن بمفردها.. كانت معها تلك الشغالة التي كانت تقيم معنا وأطمئن كثيراً لوجودها مع زوجتي.. ولكنها كانت تسعد كثيراً عندما تراني وقد اختطفت بعض الوقت لأقضيه معها وأقوم أحياناً بعمل الشاي بنفسي وإحضاره إليها وهي تجلس في "البلكونة" تستمتع بمنظر الغروب حتى إذا جلست بجوارها أخذت يدي بين راحتيها وتقول:

- لا أدري كيف كنت أحتمل فراق أبي لو لم تكن أنت معي.

- الحمد لله أنا معك وسأظل معك إلى أن يصبح شعري كله أبيض، ومن يدري فقد يسقط كله قبل أن يشيب.

- وأصبح أنا عجوزاً تسير على عكاز.

- لن تحتاجي إلى عكاز؛ لأنني سأسير بجانبك وستتكئين على ذراعي.

- تخيل.. أتمنى أن يأتي ذلك اليوم سريعاً.

- حرام عليكِ.. عندنا بعض الوقت لنستمتع فيه بالحياة.

- صحيح.. أقصد أنه عندما يأتي ذلك اليوم أتمنى أن تكون بجواري ولا أكون وحيدة.

- حتى لو لم أكن بجوارك سوف يكون ابنك.. أقصد ابننا معك.

- لا أريد ابني أو ابنتي.. أريدك أنت، أنت فقط رفيق حتى النهاية.

* * *

كانت سياسة الانفتاح الاقتصادي قد بدأت تصبح سمة للسنوات الأخيرة من حكم الرئيس، تدفقت أموال من خارج مصر وداخلها، للاستثمار في المشروعات المتعددة.

بعد اتفاقية السلام مع إسرائيل أدرك الكثيرون أن وقت الحرب قد ولى وانتهى، وأن عصر السلام قد أشرق، وأتى ببذور الرخاء والثراء معا.. استطاع الكثيرون بما كان لديهم من مال أو حظوة أحياناً أو كليهما.. أن يقتطعوا أجزاء من الأراضي الصحراوية لبناء المشروعات الجديدة أو استصلاحها معتمدين على المياه الجوفية وطرق الري الحديثة.. تشاورت مع أخي الأكبر في أن نقوم بشراء قطعة أرض ونستصلحها بشرط أن يتفرغ هو تماما لذلك المشروع؛ لأن وقتي لا يسمح.. راقت له الفكرة ولم يكن أمرا صعبا بالنسبة لي أن أحصل على مئتي فدان في الصحراء، قريبا من حدود محافظتنا كي يتثنى لأخي التنفيذ دون مشقة.. بالطبع كان من ضمن خطط المشروع بناء منزلين منفصلين لكل منا حتى يستطيع من يريد أن يذهب إليه هو وأسرته إذا أراد أن يبتعد عن المدينة ومشاكلها.

بدأت أفكر بأسلوب يميل إلى الناحية العملية أو الواقعية أكثر من الناحية الرومانسية التي تغلب عليها الأحلام.. رأيت من حولي يسارع بالاستفادة من موقعه حتى يحصل على قطعة أرض أو توكيل لأحد المنتجات الأجنبية فيكون هو الوكيل الوحيد له في السوق ويحصل من وراء ذلك على أرباح طائلة تجعله يصبح

دون عناء من وجهاء القوم أو ممن أصبح يُطلق عليهم لقب القطط السمان.. بالطبع هناك البعض من بشوات ما قبل الثورة الذين ظهروا ثانية وأصبحوا يتشدقون بماضي عائلاتهم وبأسماء أجدادهم.. وهذا كان أحد العوامل لظهور طبقة أخرى أطلق عليها أحياناً طفيلية بدأت تتغذى على موائد الأغنياء والبشوات حتى استطاعت الثراء في فترة وجيزة واذا بها تلحق بمن كانوا يوما ما أسيادهم بل ويتجاوزونهم في حجم الثراء أحياناً، دون أن يتساووا معهم في التغني بمجد الأجداد أو رفعة الأنساب.. إذا سألت أحدا من هؤلاء الذين شرعوا في تحقيق أقصى استفادة من موقعهم في العمل السياسي عن السبب الذي يجعله يسهر الليل ويكد بالنهار محاولا أن يكون على أكبر درجة ممكنة من الثراء، عن الدافع وراء كل ذلك وهو الآن لديه ما يكفيه ويزيد، فيقول لك: أريد أن أترك شيئاً للأولاد قبل أن أرحل، حتى لا يعانوا مثلما عانيت، وفي سبيل ذلك يتغاضى عن أشياء كثيرة ويدوس أحياناً على القوانين باعتبار أنه بموقعه في الحزب أو المجلس النيابي أصبح فوق القانون وأن القانون موجود فقط لتحقيق العدالة بين الضعفاء، بينما الأقوياء بالمال أو المنصب فلديهم القانون الخاص بهم. كنت بحكم منصبي وقد أصبحت الرجل الثاني في ديوان رئيس الجمهورية موضع ثقته وكاتم سره، وبعضها كان ينتمي إلى الأسرار العائلية التي لا يفضي بها الإنسان إلا لصديق، وليس إلى موظف يعمل لديه، لكنه كان يعلم تمام العلم أن مرور السيف على رقبتي أهون عليَّ بكثير من كشف أسرار سواء أكانت مهنية أم عائلية.. أدرك ذلك بثاقب فكره ومعرفته الجيدة بطبيعة الذين يتعاملون معه.. أدرك ذلك

وعندما تيقن منه كان يفضي لي بأسرار كثيرة.. أسمع دون أن أعقب إلا إذا طلب مني ذلك هو، لا أنكر أنه هو الذي أوحى إليّ بفكرة شراء قطعة أرض واستصلاحها حتى تكون سندا لي ولأولادي فيما بعد، مازلت أذكر ذلك اليوم عندما كنت ساهرا في مكتبي الملحق بمنزله أنجز بعض الأوراق وإذا به ينقر باب المكتب ويدخل دون أن ينتظر، كانت تلك عادته ولم أكن أستهجن ذلك؛ فهو الرئيس، نهضت من مكاني مسرعاً ومرحبا وجلس على كرسيه المفضل وأخذ يشعل "الغليون" ما يعني أن هناك حديثا سوف يدور بيننا، ظللت واقفاً حتى أذن لي بالجلوس، وقبل أن أفعل.. طلبت الشاي الخفيف بالنعناع؛ مشروبه المفضل عندما يجلس معي:

– هل تعلم يا يحيى؟ أنا أرى فيك شبابي.

– سيادتك كلك شباب يا أفندم.. هذا شيء واضح للجميع.

– صحيح أني مازلت محتفظا بعافيتي، ولكني أقصد شبابي.. عندما كنت ضابطا في الجيش قبل الثورة وأثناء السنوات الأولى.. قبل أن أدخل معترك السياسة.

– الحمد لله.. سيادتك أنجزت الكثير في فترة ولايتك.. حرب أكتوبر التي ردت لنا روحنا، التي فقدناها في النكسة، والسلام الذي كنا نتمناه وأرضنا التي عادت إلينا.

– صحيح.. أشعر بأني قد أديت دوري بما يرضي الله وأن الناس سوف تتذكرني بالخير دائماً.. أليس كذلك يا بني؟

– طبعا.. طبعا.. بالخير، بطل الحرب وبطل السلام.

– لا أعرف من الذي أطلق عليَّ ذلك اللقب للمرة الأولى، عندما سمعت بطل الحرب أدركت المعنى بسرعة، فالحرب تحتاج دائماً إلى بطل وعندما سمعت بطل السلام تشككت في معنى اللقب في البداية، وقلت لنفسي إن قائله أراد أن يجامل الرئيس.. ولكني حين فكرت أدركت أن السلام يحتاج بطلاً أيضاً.. يحتاج إلى مقاتل لديه من الشجاعة ما يمكنه من أن يدع البندقية جانباً كي يتفاوض مع عدوه، فيجني ثمار الحرب.. الأرض السليبة، ثم يتفرغ لإعمارها بعد جلاء العدو عنها.. صحيح ألم تفكر في شراء قطعة أرض لك ولأولادك؟

فوجئت بالسؤال دون أن أدرك معناه ولكني سارعت قائلاً:

– والله يا أفندم ليس بعدُ.. إن شاء الله قريباً.

– ماذا تنتظر يا ولد؟

كانت تلك طريقته إذا أراد أن يشعرني أنني أحد أبنائه.. يستخدم لفظة "يا ولد" أحياناً وأحياناً أخرى "ابني".

– بصراحة الفكرة لم تكن في رأسي ولكني سوف أفكر في الأمر.

– أنا أعرف أنك فلاح مثلي، والأرض هي أحسن شيء يمكن أن يكون سنداً لك عندما تكبر وتترك الوظيفة.. هل تعتقد أنك ستظل تعمل عندي بعد الستين؟

– يا أفندم أنا في خدمة سيادتك دائماً وبعد المعاش أيضاً سأكون في خدمتكم وخدمة الوطن.

– أدرك ذلك ولكني لا أعلم من سوف يترك الخدمة قبل الآخر.

رشف بعضا من الشاي وأخذ يرقب سُحُب الدخان وهي تتهادى من غليونه، وتشق طريقها دون عناء نحو النافذة فتغادرها إلى حيث قُدِّر لها.. احترمت صمته حتى نهض واقفاً فنهضت معه ونظر إليَّ قائلاً:

– اشترِ قطعة أرض.. لو احتجت سلفة اذهب إلى "بقلظ" –كان هذا هو الاسم الذي يطلق على مدير الحسابات في القصر الجمهوري لأنه كان سمينا– واطلب ما تحتاج.. أحب أن أرى كل العاملين عندي في بحبوحة ولديهم ما يكفيهم ويكفي أولادهم بعدهم.

– حاضر يا أفندم.. أعد سيادتك.. الزيارة المقبلة سوف أكون قد اشتريت قطعة أرض نستصلحها أنا وأخي.

– عظيم.. أنت ولد عظيم.. فكرت في أخيك وليس في نفسك فقط، لأنك فلاح مثلي.

* * *

جلست في المزرعة مع زوجتي وابنتي، وقد أتمت عامها السادس، واستطاعت أن تمشي وتجري دون مساعدة منا. كنا قد بنينا منزلاً كبيراً بعض الشيء، من طابقين عند المدخل الرئيسي للمزرعة، والتي لم تكن تبعد كثيراً عن القاهرة.

كان منزلاً بسيطاً ولكنه مزود بكل أجهزة الحياة الحديثة، حتى إذا ذهبنا لقضاء إجازة قصيرة، لم نحتج شيئاً من المدينة، حتى إن مكثنا أسبوعاً كاملاً.

كنت أمدُّ بصري محاولاً أن أستكشف ما يمتد وراء المزرعة، عند الأفق الذي

يبدو وكأنه نهاية الأرض وبداية السماء.. تركتني زوجتي أراقب ذلك المشهد، حتى أزيح بعضاً من هموم العمل، التي أصحبها معي، دون أن أدري، أينما ذهبت، ثم قالت:

– من المؤكد أن همومك أكثر من اللازم كالعادة.. كان الله في عونك.

– فعلاً.. هذا ما أحتاجه، ونحتاجه جميعاً، خصوصاً الريس.. حتى يسير كل شيء على ما يرام.

فوجئت زوجتي بردي، فلم يكن من عادتي أن أتحدث عن مشاكل العمل معها، أو مع أي إنسان آخر.

– أتمنى أن يكون الريس بخير.

– الحمد لله.. هو بخير، ولكن ما حدث مؤخراً قد لا يفضي إلى خير.

– تقصد إلقاء بعض رجال السياسة والكُتَّاب ورجال الدين في السجن؟

– نعم.. هذا هو فعلاً ما يقلقني.. لقد فوجئت بتلك القائمة الطويلة، التي أُرسلت إلى مكتبي، لعرضها عليَّ، ولو كان بإمكاني لم أظهرها له أبداً.

– بالطبع أنا أعرف أن هذه ليست فكرتك.. ولكن من المؤكد أن صاحب الفكرة يقصد بها المصلحة الوطنية.

– لا أنكر هذا.. ولكن هل سيؤدي اعتقال هذا الكم من الناس، وبعضهم من أفضل رجال البلد، إلى المصلحة الوطنية؟ أتمنى ذلك.. لا أريد أن أزعجك بمشاكلي.. إنها ساعات قليلة نقضيها معاً، ولن نضيعها في الحديث عن هموم العمل.

- إنها ليست مشاكلك وحدك.. إنها تخصني أيضاً.. ألست شريكة لك في كل شيء؟

- صحيح.. إلا في هذه المزرعة، فهي تخصك وحدك.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنني سجلتها باسمك.. عسى أن تكون سنداً عندما...

لم تتركني أكمل الجملة، ووضعت يدها على فمي، ونظرت إليَّ وقد علا الحزن وجهها، ما جعلني أشعر بالندم لأنني تحدثت عن عملي ومشاكله معها، ولأول مرة.

- أقصد أنني أردت أن أهديك شيئاً، فلم أجد لديَّ أجمل من هذه المزرعة يمكن أن أقدمه لـ"نجمتي الصغيرة".. بالطبع لم أستأذن منك في ذلك، لعلمي اليقين أنك لن توافقي، فأقدمت على ذلك دون أن أطلعك على نيتي، وها أنت الآن تعلمين.

حاولت زوجتي أن تعبر عن امتنانها لذلك، لكنها لم تستطع فقد جفت الكلمات، قبل أن تغادر شفتيها، ولكنها نظرت إليَّ وأخبرتني عيناها بكل ما تود أن تقوله.. وضغطت بيدها على أصابعي، فتدفقت كل عبارات الشكر من بين أناملها، ووجدت طريقها دون عناء إلى شرايين يدي، فغابت عني هموم العمل وعشت لحظات أصبحت هي فيها كل عالمي، ومحور حياتي.

ﻩ ﻩ ﻩ

في اليوم التالي، وأثناء انهماكي في العمل، فوجئت بأمن البوابة يخبرني

بأن أخي بالباب يستأذن في زيارتي.. خرجت من مكتبي وقابلته في منتصف الطريق، واصطحبته إلى الداخل وأنا في غاية الانزعاج، ولم يتركني طويلاً للهم، وبعد أن جلس وقبل أن أفتح فمي، بادرني قائلاً:

- لا تقلق.. خير.. الموضوع خير إن شاء الله. ولكني لم أرد أن أهاتفك على سبيل الاحتياط.. جارنا في المزرعة يريد أن يبيع أرضه، وقد عرضها عليَّ بسعر مناسب؛ لأنه سوف يترك البلاد ليستقر مع أولاده في كندا.. وأعتقد أننا يمكننا أن نشتريها مناصفة كما بدأنا في المزرعة التي لدينا.. ماذا ترى؟

سرحت بعض الوقت في رغبة هذا الجار، وكنت أعرفه جيداً، فقد كان من رجال السياسة الذين يمتطون دائماً موجة الأحداث.. إذاً قال الرئيس إنه سوف يتجه ناحية الغرب، لأن الشرق يرفض مساعدتنا، وجدته في اليوم التالي قد أرسل مقالاً إلى إحدى الصحف القومية، يمتدح فيه خطط الرئيس الملهم كما كان يسميه دائماً أو الرئيس المؤمن والذي كان هو اللقب الأقرب إلى قلب الرئيس شخصيا، ما إذا أرسل الرئيس بعضا من رموز ذلك التيار اليميني إلى المعتقل فإنه يمتدح أيضاً تلك الخطوة واصفا إياها بالخطوة المباركة، وبأن أصحاب هذا التيار ما هم إلا بقايا الرأسمالية البالية ولا يمثلون تيار الرأسمالية الوطنية.. كان فعلا رجلا يلعب على الحبل الذي يراه أمامه ويستثمر أمواله في مجالات عدَّة تبدأ من شراء التوكيلات التجارية حتى شراء التاكسيات التي تجري في شوارع العاصمة حتى إنه كان يلقب بملك التاكسي.. هذا الرجل يريد أن يترك البلاد.. لماذا؟ هل استشعر الخطر في البقاء هنا فأراد أن يبيع ممتلكاته ويرسل أمواله إلى الخارج كي

تنضم إلى ما تم إرساله فعلا ثم يلحق بها هو وأسرته ليعيش منعماً بما حققه من ثراء بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة؟ هل يعلم أن هناك انفجارا على وشك الحدوث فأراد أن يطير خارج البلاد قبل أن تتطاير شظايا الاحتقان فتصيبه في مقتل؟ نظرت إلى أخي متسائلا:

– هل يريد أن يبيع كل المساحة التي لديه؟ أعتقد أنها كبيرة.

– نعم.. يريد أن يبيع كل الأرض.. أربعمائة فدان.

– ولكن هذا يتطلب مبلغا كبيرا لا أعتقد أنه يتوافر لدينا.

– لقد اتصل بي هذا الصباح وأخبرني أنه يمكن أن يقبل 70٪ من المبلغ والباقي نسدده له على أقساط شهرية في حسابه الذي سوف يرسله لنا.

– إلى هذا الحد يثق بنا مع أننا لم نكن يوما أصدقاء؟

– أعتقد ذلك.. ويبدو أنه استعلم عنا جيداً قبل أن يعرض علينا ذلك.

– وماذا ترى أنت؟ أنت تعلم أنني لا أفهم في هذه الأمور.

– أرى أنها صفقة جيدة ونستطيع أن ندبر له ما يحتاجه ونكتب له إيصالات بالمبلغ المتبقي على أن يرسل لنا الإيصال بعد أن يتم إيداع المبلغ.. خصوصا أن مزرعته مثمرة فعلاً وسوف يغطي إنتاجها السنوي الأقساط المطلوبة ولن نحتاج أن ندفع شيئاً من أرباح المزرعة الخاصة بنا.

– إذا كان الأمر كذلك يمكن أن تنهي ذلك معه وأنت معك توكيل مني لمثل هذه الإجراءات.. وأخبرني فقط عن المبلغ الذي تحتاجه اليوم حتى أرسل في طلبه من البنك لأنني لا أستطيع أن أغادر مكتبي.

– تمام.. سوف أحاول أن أناقش معه السعر مرة ثانية حتى أصل إلى أفضل سعر ممكن لنا ثم أتصل بك وأحدد لك المبلغ الذي سوف أحتاجه.. وإن شاء الله ربنا يبارك لنا فيها.. فهذا هو ما سوف نتركه لأولادنا من بعدنا.. بعد عمر طويل طبعاً.

– طويل أو قصير.. هذا شيء لا يعلمه إلا الله.. المهم أن يمضي على خير.

قلت هذا وتحاشيت النظر إلى أخي الذي قد أخذ اتجاه الباب ونهضت حتى أصطحبه إلى الخارج فرفض حتى أتفرغ لعملي وودعني، مؤكدا أنه سوف يتصل بي ويعلمني بالتفاصيل الخاصة بهذه المزرعة الجديدة.

ظللت بمكتبي أراجع الكثير من الأوراق والملفات الخاصة ببعض الشخصيات التي أمر الرئيس بإرسالها إلى المعتقل كان يريد معرفة تفاصيل أكثر عن بعض منهم، خصوصا رجال الدين، وقد أوكل لي هذه المهمة مع أنها تدخل في نطاق عمل وزارة الداخلية، لم تكن مهمة سهلة بالنسبة لي، فقد كان مطلوبا مني أن أتصل بأفراد ومؤسسات لم أحتك بها من قبلُ وكان البعض منهم يأخذ حذره في إبلاغي بما أريد أو يعطيني معلومات تتعارض مع ما هو مكتوب لديَّ في الملفات.. كنت أحياناً أرسل بعض أفراد مكتبي حتى يلتقوا أشخاصاً معينين يساعدونني في استجلاء الحقيقة.. كان الرئيس يعلم أن بعض من دخلوا المعتقل لم يرتكبوا ما يستحقون عليه ذلك ولكنه وقَّع مع ذلك على قرار اعتقالهم حتى يأمن شرهم إذا تُركوا خارجه.. كان في نيته أن يتركهم هناك فترة قصيرة حتى يسترد ما تبقى من أرض سيناء ثم يطلق سراحهم.. شعر بأنهم عقبة في تحقيق ذلك..

كانوا دائماً يهاجمونه ويسفهون أعماله.. أو هكذا كان يعتقد.. كانوا يتخطون الحدود التي كان من المفروض أن يلتزموا بها.. كانوا ينسون أنه كبير العائلة وأن الكبير يجب أن يحترم.

نظرت إلى الساعة فوجدت أنها قد تجاوزت منتصف الليل.. رتبت بعض الأوراق تمهيدا للنظر إليها في الصباح قبل أن ينهض الرئيس من النوم ويطلبها مني.. ارتديت سترتي على عجل وفتحت الباب فإذا بي أجد الرئيس في مواجهتي.. بالطبع كان قادما لي.. تراجعت ورحبت به ولم ينتظر دعوتي للجلوس فقد ألقى بنفسه على كرسيه المعتاد وأشار إليَّ بيده ففهمت أنه يريد الشاي بالنعناع.. طلبته وجلست في مقعدي ولكنه أشار لي بأن أجلس أمامه فقد كان مجهدا ولا يريد أن يزيد من ذلك بالتحدث بصوت عالٍ.. جلست أمامه وانتظرت حتى أشعل غليونه وأخذ منه نفسا عميقا استرد معه بعضا من مشاعر الهدوء والراحة ثم مد يده إلى كوب الشاي الذي كان قد وصل ورشف منه رشفة وهو مازال ساخنا ونظر إليَّ وهو يقول:

- يا سلام.. الشاي الساخن يذكرني بأيام القرية.. صحيح الإنسان كان فقيراً ولا يملك أحياناً سوى ثمن كوب الشاي ورغيف العيش وقطعة جبن قريش أو جبن قديم ولكن كان البال هادئا وكانت النفس مستريحة.. الآن.. لديَّ استراحة في كل مكان.. ويوضع لي على مائدة الطعام أحياناً أصناف لا أعلم أسماءها أو مما صنعت وأسك بالغليون بدلا من السيجارة اللف ولكني أحمل فوق رأسي هموم الدنيا والآخرة.

- كان الله في عونك يا أفندم.. هذا هو قدر سيادتك.

- نعم.. هو قدري والإنسان لا يستطيع أن يفر من قدره.. ولو قُدِّر لي أن أختار لاخترت حياتي الأولى البسيطة وكان يكفيني أن أكون ضابطا بالقوات المسلحة لا أتحمل مسئولية جنودي ومن دوني من الضباط.. هل تود أن تكون مكاني؟

نظرت إليه دون أن أفهم ما يقصده تماماً حتى استطرد قائلاً:

- أقصد: ألم تتمنَّ يوماً أن تكون رئيس جمهورية؟ بصراحة.. أجبني بكل صراحة.

- بصراحة يا أفندم بعد ما رأيت من مسئولية من الزعيم الراحل والجهد الذي كان يبذله ومع سيادتك وكل ما تتحمله من هموم فوق كتفيك.. لا أتمنى أن أكون مكان سيادتكم وإن كان هذا شرفاً لا يدانيه شرف لكل مصري.. مسئولياتي مع صغرها مقارنة بمسئولية سيادتكم تجعلني أحياناً لا أنام الليل سواء كنت منشغلا بالعمل أو بهمومه.

- ومع ذلك يحسدني الكثير على ما أنا فيه.

- أكيد يا أفندم.. ولكن آن لهم أن يعرفوا حجم المسئولية.

- أحياناً أفكر في أن أترك كل هذا وأرجع مرة أخرى إلى قريتي وأستريح من كل هذا العناء وأتفرغ لكتابة مذكراتي فعسى أن تستفيد منها الأجيال القادمة.. ما رأيك؟

- رأيي يا أفندم أن هناك جزءا صغيرا من أرضنا تحت الاحتلال وأننا في

حاجة إليكم حتى نسترده وتتحرر بذلك كل الأرض، وكذلك كل العرب في حاجة إليكم حتى يستردوا أرضهم.

– العرب! هم ليسوا في حاجة إليَّ والحمد لله.. نحن لسنا في حاجة إليهم.. ويكفي ما فعلوه معنا.

– سوف يأتي اليوم الذي يندمون فيه على عدم اشتراكهم معنا في مفاوضات السلام عندما يحاولون استرداد أرضهم ولا يستطيعون.

– نعم.. سوف يندمون.. وأتمنى أن أعيش حتى هذا اليوم.

– إن شاء الله سوف تظل معنا حتى يتحقق الرخاء أيضاً على يديكم كما انتصرنا في الحرب واستردنا أرضنا.

– أتمنى أن أعيش حتى يتحقق السلام في المنطقة كلها ويرجع اللاجئون إلى أرضهم وتكون حرب أكتوبر هي آخر الحروب.. قال هذه الجملة ونهض ثم نظر إليَّ وهو يتجه إلى الباب ويقول:

– احمد ربنا أنك لست رئيس جمهورية.

– الحمد لله على كل شيء يا أفندم.

° ° °

كانت الاستعدادات على أشدها للاحتفال بعيد أكتوبر رغم السحب التي كانت تخيم على الحياة السياسية بسبب اعتقالات سبتمبر فإن القوات المسلحة كانت تخطط دائماً لأن يكون احتفال كل عام أفضل مما سبقه.. كان هذا اليوم هو يوم عيد بالنسبة للرئيس، يتذكر فيه أيام الإعداد للمعركة ويتذكر معه أيام

النصر وما سبقه من مجهود وتجهيزات حتى تحقق ما كان يتمناه كل مصري منذ حدوث النكسة.

كنت أعلم ذلك وأحاول دائماً أن أنجز كل ما يمكن عمله بمفردي أو بمساعدة مستشاري الرئيس دون الرجوع إليه إلا في الحالات الضرورية.. كانت تلك الأيام تعني مزيداً من العمل والجهد.. ولِمَ لا وهي الأيام التي حقق فيها الجيش المصري انتصارا إن لم يكن هو الوحيد في العصر الحديث فعلى الأقل فهو الأعظم ويكفي أنه قد غير الكثير من المفاهيم العسكرية للحروب الحديثة؟!

* * *

كان اغتيال الرئيس أمراً يفوق كل التوقعات رغم أن رجلاً في موقعه يكون معرضاً لأمر كهذا لكن الفكرة نفسها شيء وتنفيذها شيء آخر.. صحيح أن الرئيس قد خلق له أعداء كثيرين ومن شتى الاتجاهات إلا أن نجاح أحدهم في اغتياله كان أمرا يفوق كل التوقعات.. كان يوما حزينا من أيام مصر.. حتى إن الكثيرين من خصومه والذين كانوا يتمنون له أن يترك الحكم ويحل محله آخر لم يتمنوا له مثل تلك النهاية المفجعة.. أن يموت القائد بين جنوده شرف لا يدانيه شرف ويتمناه كل مقاتل في الميدان.. أما أن يموت بيد أحد من جنوده، لخلاف بينهما أو ضغينة أو لتباين في وجهات النظر حول إدارة المعركة، فهو ما لا يمكن أن يدور في خلد القائد.. لقد كان حريصاً دوماً على ألا تراق نقطة دم من دماء جنوده.. كان يتمنى أن تكون حرب أكتوبر هي آخر الحروب كي يتفرغ لمعركة أخرى لا تقل عنها ضراوة، ألا وهي بناء الوطن وتعويض الشعب ما فاته منذ أيام

النكسة حتى النصر.. لقد فقد هو أخاه في بداية المعركـة، وهـو الآن يقـع فريـسة لأفكار أبعد ما تكون عن جوهر الدين وسماحته.

لا أذكر متى عدت للمنزل في ذلك اليوم، ووجدت زوجتي شـبه نائمـة، إلا أنها استيقظت بعد أن شعرت بحركتي.. كان الحزن والألم قد رسما على وجهها الكثير.. تهاويت على أحد المقاعد دونما كلمة واحدة.. واحترمت هي صمتي، وإن جلست بجواري، مؤكدة أنني لست وحيداً.

– إنه قدره.. أن يستشهد في يوم عرسه، وبين جنده.

– أن يستشهد بين جنده نعم، ولكن.. ليس بيد أحدهم.

– هذا القاتل ليس بجندي، وإن كان يرتدي زي الجنود.

صمتنا قليلاً، ثم سألتني:

– لِمَ لا تقدم استقالتك؟

– سوف أفعل ذلك فعلاً.. لكن ليس قبـل أن تـستقر الأمـور في البلـد.. وإلا سأكون كمن يهرب من المعركة.

– لقد قمت بخدمة الزعيم السابق، وبطل الحرب والسلام بمـا يرضـي الله.. أعتقد قد آن الأوان كي تستريح، وتعطينا بعضاً من وقتك.. فنحن أيـضاً في حاجـة إليك.

نطقت الجملة الأخيرة بخفوت، كيلا تشعرني بالذنب تجاهها هي وابنتنا حنان، بسبب انشغالي عنهما.

حاولت أن أنعم بالحمـام الـدافئ، وأن أبـدل ثيـابي، لكـني تهالكـت علـى

الفراش، واستيقظت بعد ساعتين على زوجتي توقظني بلطف، كيلا أتأخر على علمي.

عند دخولي مكتبي، وجدت مديري منهمكاً في البحث عن بعض الأوراق، فسألته عما يبحث، وإن كان يريد معاونة أو إرشاداً، فجلس يستريح، قائلاً:

– أريد كل الأوراق الخاصة بمن أرسلهم الرئيس للمعتقل.

– حاضر يا أفندم.. عموماً هي كلها مرتبة في عشرة ملفات طبقاً لوظائفهم.

قمت من مكاني وفتحت درجاً في مكتبي وناولته الملفات، فأخذها بين يديه وتفحصها جيداً وتأكد منها ومن أن كل الأسماء مدونة بها، ثم قال:

– أعتقد أن هذه هي أهم الأوراق الآن، ويجب أن تكون لديَّ.. فسوف يحتاجها الرئيس الجديد. كما أنني أود أن أقوم بكتابة بعض الملاحظات الخاصة ببعض الأسماء، حتى يتسنى له اتخاذ ما يراه بشأنهم.

– هي تحت أمر سيادتك.. وكانت هنا كما تعلم لأن الرئيس كان يطلع عليها من وقت لآخر. وسوف ترى أنه دوَّن بعض الملاحظات بخط يده على بعضها.

– أعلم ذلك، وأعتقد أنك تتمنى أن تتخلص منها.

– لا أنكر أنها مسئولية كبيرة بحكم الأسماء، وسوف تكون بلا شك في أمان أكثر بمكتب سيادتك.

– هل أخبرك الرئيس شيئاً بخصوص هذه الأسماء؟ أقصد متى كان في نيته أن يفرج عنهم؟

– هو لم يخبرني ذلك بصراحة.. ولكني فهمت من بعض أحاديثه أنه ينوي الإفراج عنهم عندما يسترد ما بقي من أرضنا.

– هذا ما أخبرني به أيضاً. كان يريد أن يتجنب كل ما يمكن أن يجعل العدو يماطل في رد الأرض إلينا.

وهناك أيضاً ملف آخر، كان قد طلب مني تجهيزه، يتضمن أسماء معينة كان قد طلب مني أن أجمع معلومات عنها.

قمت من مكاني وأخرجت ملفاً آخر صغيراً، ناولته إياه فقام بفتحه على الفور، وعندما قرأ ما فيه ظهرت عليه الدهشة، ونظر إليَّ قائلاً:

– هذه الأسماء تتضمن بعض أفراد من أسرته.

– نعم.. ولذا طلب مني السرية الكاملة في جمع المعلومات.

– كنت أعلم أن هناك جهات تبحث في ثروات بعض أفراد أسرته، ولكنه لم يخبرني أنه كان يسعى لذلك بنفسه.

– لقد طلب مني ذلك منذ حوالي أسبوع، وأعتقد أنه لم يريد أن يزعج سيادتك بذلك.. يكفي ما لديك من مشاغل.

– هذا الملف اتركه عندك، ولا داعي لإظهاره إلا عند الضرورة.. بالطبع سوف أتقدم باستقالتي، وكذلك جميع العاملين، حتى يتسنى له اختيار من سوف يعمل معه.. ولا أعتقد أنك تمانع في ذلك.

– بالطبع لا.. وأنا أدرك أن هذا سوف يحدث.. سوف أظل في عملي حتى تطلب مني أن أترك المكان.

- بالطبع سوف نظل في أماكننا.. ولكنني سوف أجهز أوراق الاستقالة من الغد حتى تكون جاهزة عند اللزوم.. كل المطلوب منك أن توقع عليها.

- سوف أمر على مكتب سيادتك غداً للتوقيع.

- لا داعي.. استمر في مكانك، سوف أرسلها لك توفيراً لوقتك، حتى يمكن أن تتم ما بدأته من أوراق وتكون جاهزة عند الطلب.. صحيح.. أتريد الاستمرار في الخدمة أم الخروج؟

أخذت بالسؤال، الذي لم أك مستعداً له، فقلت بصراحة:

- أريد أن أستريح.

- وماذا ستعمل وأنت متعود على الكفاح؟ هل العمل في المزرعة يستطيع أن يشغل وقتك؟

- أعتقد ذلك.. إنها تحتاج إلى جهد كبير، وأخي يقوم بكل العمل وحده.. أعتقد أنه آن الأوان لأساعده.. كما أن لديَّ هواية أخرى، أعتقد أنها ستملأ عليَّ بعض ما يتبقى من وقت الفراغ.

- ماذا يا ترى؟

- الكتابة.

- إنني أسمع ذلك لأول مرة.. يبدو أن هذا سر حياتك.

- تقريباً.. فحتى زوجتي لا تعلم، وإن كانت قد رأتني أكثر من مرة منشغلاً بالكتابة، لا إنها اعتقدت أن ذلك خاص بالعمل.

- وهل تنوي كتابة مذكراتك كما يفعل البعض اليوم، خاصة أن لديك لكثير

من الأسرار التي سوف يتهافت عليها الكثيرون؟

- بالطبع لا.. لا أفكر أبداً في كتابة مذكراتي؛ لأنني لا أرى ما يستحق أن يروى ويقرأه الآخرون، عدا ما يتعلق بعملي. وهذا بالطبع ليس للنشر؛ لأنه يخص الوطن، وأسرار الوطن ليست للنشر.

- تعلم أنني أيضاً أود أن أستريح.. لقد وصلت إلى أعلى الرتب العسكرية تقريباً، وقاربت سن المعاش، وأعتقد من حقي أن أستريح وأقضي ما بقي من عمري مع أولادي وزوجتي.

- طبعاً هذا من حقك.. ولكني أعلم أنك لن تترك مكانك إلا إذا طُلب منك ذلك.. سيادتك وأنا -مع فارق الرتب طبعاً- جنود، لا نترك مواقعنا عندما نريد، بل حين يُطلب منا ذلك.. وهذا هو الفارق بين المدني ورجل الجيش.

- تمام يا يحيى.. نحن لا نغادر المكان إلا إذا جاء الأمر من القائد بذلك.

قالها، ونهض منصرفاً، ومعه تلك الملفات التي كانت هماً، أراحني منها دونما أطلب ذلك.

* * *

واظبت على الذهاب لمكتبي مدة شهرين تقريباً، وإن كنت قد بدأت أيضاً في الاهتمام بشئون المزرعة.. أسأل أخي عن بعض التفاصيل، تمهيداً لهذه الوظيفة الجديدة، التي سُرَّت لها زوجتي كثيراً، وكانت تمني نفسها دوماً أن أبتعد عن السياسة وعن العمل بديوان الرئاسة.

كانت أسعد لحظاتي تلك التي أقضيها في حديقة المنزل، أستمتع بمرأى

الأشجار والنخيل ونموها، أو عندما أنشغل مع أخي في ترتيب ما تحتاجه المزرعة، خاصة بعد انضمام تلك المساحة الكبيرة من مزرعة جارنا.

أثناء انهماكي في العمل ذات يوم، وجدت زوجتي تأتي إليّ ممتقعة، بعد أن أجابت الهاتف، وهي تقول:

– الرئيس يريدك في القصر الجمهوري.

– الرئيس؟ متى؟

– الآن؟ من كان المتصل؟

– لا أعلم.. ولكنه أحد العاملين بالديوان كما أخبرني.

بدّلت ملابسي على عجل، وفي خلال نصف ساعة كنت أمام بوابة القصر.. كان اليوم جمعة، والطرقات تكاد تخلو من السيارات، وقبل أن أقدم نفسي للضابط الواقف حراسة على البوابة، كان هو قد عرفني، ففتح باب سيارتي، وجلس إلى جواري، ليقودني للداخل.. كل ما قاله رداً على سؤالي حول الأمر، كان أن الرئيس ينتظرني في مكتب رئيس الديوان.

في خلال دقائق، وجدت نفسي أمام مكتب مديري الذي كنت قد زرته من قبل أثناء عملي مع الرئيس الراحل.. كان الباب شبه مفتوح.. وقفت لحظة حتى أسترد أنفاسي، ثم قرعت الباب، وانتظرت حتى أتاني صوته من الداخل:

– ادخل.

دلفت لأجد أمامي الرئيس، وقد جلس على أريكة ليمين المكتب يراجع بعض الأوراق، بينما كان مديري يتصفح بعض الأوراق وهو متكئ على مكتبه،

ونهض الرئيس من مجلسه، وصافحني قائلاً:

- أهلا يحيى.. أخبار المزرعة إيه؟

- تمام يا أفندم.

- هل تريد أن تخدم معنا، أم أنك تتمسك باستقالتك؟

- يا أفندم أنا ضابط في الجيش المصري.. أخدم في المكان الذي يحدده لي القائد.

* * *

9

لو كان الاختيار بيدي لفضلت أن أقضي ما تبقى لي من العمر في المزرعة مع زوجتي وابنتي وأتفرغ تماماً للعمل فيها سواء أكان عملاً إدارياً أم حتى عملاً يدوياً أستطيع أن أقوم به.. كنت راغباً في ذلك وأتمناه بشدة وهيأت نفسي لذلك.. أن أقضي معظم وقتي في العمل في المزرعة وأتواجد مع زوجتي وابنتي فأعطيهما من وقتي ما تستحقانه عسى أن أعوضهما، خصوصا زوجتي، أيام البعد والانهماك في العمل دون أن يتسنى لي أن أحادثها أحياناً إلا عبر التليفون.. الآن تغير كل شيء.. لا وقت للقراءة.. لا فرصة للكتابة.. ولكن ليس هذه هي المشكلة الآن.. المهم هل سيتبقى لي من الوقت شيء أمنحه لأسرتي الصغيرة؟ قد يستطيع أخي أن يواصل اهتمامه بالأرض.. ولكن من سيهتم بأسرتي إذا لم أفعل أنا ذلك؟ آه يا ربي أعني على ذلك.

قلت لزوجتي:

– هل تدرين ما أعظم عطاياه لي؟

– أعتقد أنها الصحة والستر، ويمكن أن تضيف إليهما "حنان" وقد أجد لي مكاناً في القائمة.

- إنك أول القائمة.. إنك أكبر نعمة أعطاها لي ربي ودائماً ما أشعر أنني لا أوفيك حقك وأخشى أن يحاسبني الله على ذلك.

- لا تقلق يا حبيبي.. سوف أكون دائماً معك كما كنت وسوف أستعين بمديرة منزل تساعدني في أعمال البيت وبعض أمور حنان وبالتالي يكون لديَّ مزيد من الوقت للاهتمام بك.

- أنت تفعلين كل شيء حتى يكون لديك مزيد من الوقت لي وأنا على العكس أفعل كل شيء حتى يكون لديَّ القليل من الوقت لك ولابنتنا.

- لا تنظر إلى الأمور هكذا.. إنك تعطينا القليل من وقتك وتعطي الوطن الكثير وهذا يعود أيضاً علينا بطريق غير مباشر؛ لأننا نعيش في نفس الوطن الذي تخدمه وتضحي من أجله بوقتك.. فلنضحِّ نحن أيضاً بشيء من حقوقنا حتى ننعم كلنا في النهاية بخيراته.

- تثبت الأيام لي دائماً أنني ما كان يمكن أن أختار أفضل منك زوجة لي وأماً لأولادي.

- لا تنسَ أنني ابنة قائد أيضاً.

- كيف أنسى ذلك؟ كان قائدي وحماي ومعلمي.. هناك شيء آخر نسيت أن أخبرك به.

- ما هو.. خيراً؟

- خير.. اطمئني.. لقد أنعم عليَّ سيادة الرئيس برتبة عميد ابتداء من اليوم.. وهذه ترقية استثنائية من حق الرئيس أن ينعم بها على من يرى أنه

يستحق ذلك وأصبحت مساعداً أول له.. أتمنى أن...

ولم تدعني زوجتي أن أكمل جملتي؛ إذ وضعت يدها على فمي ونظرت إلـيَّ وهي تضغط بكل جسدها على ذراعي حتى شعرت بـدقات قلبهـا وهـو يوشـك أن يغادر مكانه ونظرت إليَّ قائلة:

– إنك تستحق ذلك وأكثر.. وقد أعطاك الرئيس ما تستحقه أما ما هو أكثر فلا يستطيع أحد أن يعطيك إياه سواي.. قالت ذلك ونحن نغادر مكاننا في الحديقة متجهين إلى داخل المنزل.

* * *

في اليوم التالي كنت في مكتبي وأثناء انهماكي في العمل، رن جرس الهاتف ذي اللون المخصص لاستقبال مكالمات الرئيس فنهضت مسرعاً لأجده على الطرف الآخر وهو يقول:

– تعال إلى المنزل حالاً.

– حاضر يا أفندم.

وضعت السماعة ثم نهضت مسرعاً ومعي حقيبتي الصغيرة التي لا تفارقني وبها كل أرقام التليفونات المهمة وبعض العناوين والأوراق التي من الوارد أن يـتم طلبها أي وقت.

لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة ولكني لم أدهش من استدعاء الـرئيس لي في ذلك الوقت المبكر من اليوم لعلمـي أنـه رجـل عـسكري ويمـارس أكثـر مـن رياضة.. وصلت في مسافة قدرها ثماني دقائق ونزلت مـن الـسيارة لأجـد مـن

ينتظرني ويرشدني إلى الداخل.. كان المكان يتسم بالأناقة مع البساطة وقد رصت به قطع الأثاث بعناية تدل على ذوق رفيع وأن كل قطعة قد وُضعت في مكانها ولها وظيفة تؤديها.. بالطبع لم أمد بصري بعيداً احتراماً للمكان وإنما اكتفيت بتفحص مكان انتظاري فقد يساعدني ذلك على فهم شخصية من أتعامل معه.. لم يدم انتظاري طويلاً حتى رأيت سيادة الرئيس أمامي وكان في ملابسه الرياضية.. ابتسم وصافحني قائلاً:

– وصلت بسرعة.. سوف نتناول الإفطار سوياً.

قال ذلك ولم يترك لي فرصة الموافقة أو الرفض.. جلست معه على مائدة الإفطار ولم يكن هناك سوانا وكان إفطاراً بسيطاً يتناسب مع شخصية رياضية وكان القائم على الخدمة يقف بعيداً بشكل لا يتيح له أن يستمع إلى ما يدور بين الجالسين.. لاحظت أن سيادة الرئيس يتحدث معي في بساطة ودون شكليات.. لقد سرَّني ذلك فعلاً أن أصبح قريباً منه وأجلس معه على مائدة الطعام معه.. علمت منه أن هناك الكثير الذي ينوي أن يفعله وأنه في حاجة دائمة إلى مشورة المخلصين من حوله والذين لا يسعون فقط إلى مصالحهم الشخصية. توقف عن الطعام ثم نظر إليَّ قائلاً:

– هل تعلم ما هو أسوأ شيء وأحسن شيء عندما تكون رئيساً؟

نظرت إليه مستفسراً لأنني بصراحة لم أفهم ما يقصده تماماً.. لم أرد أن أعطيه إجابة غير التي ينتظرها.. إلا أنه لم يكن يتوقع مني الإجابة بقدر ما ينتظر أن أنصت إليه حيث أردف قائلاً:

- إنهم من حول الرئيس.. مستشاروه أو ما يطلق عليهم أحياناً شلة الرئيس.. هم أحسن شيء إذا ما أحسنوا له النصيحة، وأسوأ شيء إذا سعوا فقط لتحقيق مصالحهم الشخصية.. معظم من حولي كانوا موجودين حول الرئيس الراحل وبعضهم كان موجوداً حتى أيام الزعيم.. وأعتقد أن الكثيرين منهم لم يخلص النصيحة.

فهمت ما يعنيه تماماً.. وفهمت أنه لا يستريح كلياً لبعض الموجودين حوله ولكنه لسبب أو لآخر لا يريد أن يبعدهم عنه أو أنه ينوي ذلك ولكن حين يأتي الوقت المناسب.. بالطبع لم يكن لديَّ من تعليق سوى هز رأسي بالموافقة وعندما وجدت أنه ينتظر مني رداً قلت:

- أنا أعتقد يا أفندم أنك تعلم هؤلاء الناس أكثر مني وأن رأي سيادتك فيهم أكثر إنصافا من رأيي، خصوصا أنني لم أكن في معترك السياسة عندما كنت مع الرئيس الراحل وكان عملي في المكتب طوال الوقت ولكني سوف أقوم بتجميع كل المعلومات اللازمة عن كل السياسيين الموجودين حالياً سواء من أرشيف الرئاسة أو المخابرات وسوف أقوم بتجهيزها لسيادتكم حيث يمكنكم الاطلاع عليها عندما تريدون.

يبدو أنه استراح لملاحظاتي هذه ويبدو أن هذا هو الذي كان يتمنى سماعه.. ثم أعطاني بعض الملاحظات الخاصة بنظامه اليومي: مواعيد استيقاظه.. الرياضة التي يمارسها.. مواعيد نومه.. وهكذا.. وأعطاني أرقام التليفونات الخاصة بأصدقائه أو الأماكن التي يمكن أن يتواجد فيها عند الحاجة إليه إذا كان الموضوع

يستدعي ذلك.. وعندما نهض من مكانه نهضت أيضاً مستأذناً في الانـصراف وظـل معي حتى باب الردهة الخارجية وقال:

- أريد منك شيئاً مهماً.

- تحت أمرك يا أفندم.

- أن تكون صادقاً دائماً معي تحت أي ظرف من الظروف.

- أعد سيادتكم بذلك يا أفندم.

ثم قال:

- أريد كل هذه المعلومات في خلال أسبوع.

- حاضر يا أفندم.. ستكون جاهزة.. أعد سيادتكم بذلك.

وصلت إلى المكتب وطلبت ثلاثة هم بالنسبة لي أكثر من زملاء.. بل يرقـون إلى مرتبة الأصـدقاء.. قمـت بتحيـتهم واعتـذرت عـن اسـتدعائهم بهـذا الـشكل الرسمي وذلك لانشغالي عن محادثتهم بنفسي ثم شرحت لهـم مـا أريـد وطبيعـة العمل تاركاً لهم أن يقرروا إذا كانوا يستطيعون أن يعملوا معي أم لا.. طلبت منهم أن يتصلوا بي مساءً حتى يكونوا قد أخذوا قسطاً من الوقت للتفكير في ذلك؛ لأنـه لا رجعة في القرار.. كنت في حاجة إلى مجموعة مخلصة ونـشيطة للعمـل معـي.. ولم يكن هناك أفضل من رفقاء السلاح.. سُررت بترحيـبهم المبـدئي واسـتعدادهم للعمل معي في منصبي الجديد.. وقد أثلج ذلك صدري بـأني لـن أكـون وحيـداً وأن العاملين معي على قدر كبير من التفهم لطبيعة مهنتهم الجديدة وأنهم متحمسون أيضاً لذلك.. عند عودتي إلى المنزل وجدت أن هناك كشك حراسة قـد وُضـع أمامـه

وبه جندي من أفراد الشرطة.

وجدت زوجتي في انتظاري كعادتها وكذلك ابنتي لم تكن قد ذهبت بعدُ إلى سريرها.. جلست معها أتحدث في شئون المدرسة وأنا أنصت إليها رغم ما يدور في ذهني من أحداث اليوم ثم قامت لتنام بينما انهمكت زوجتي في إعداد المائدة حتى تكون جاهزة بينما انهمكت أنا في إزالة ما علق بجسدي وبروحي من أوجاع.. أثناء الطعام لم تقل زوجتي شيئاً وشعرت بأنها متعبة بعض الشيء.. نظرت إليها:

- ألم تأتِ مديرة المنزل اليوم؟

- لا تشغل نفسك بي.. فأنا أستطيع أن أتدبر نفسي وأموري ولديَّ الوقت لذلك.. أرجوك أن تركز فقط في عملك.

لم أستطع أن أجيب ولكني أخذتها بين ذراعي وأنا أقول لنفسي إنني أكثر الرجال حظاً على الأرض بأن أنعم الله عليَّ بتلك الزوجة التي لا تفكر إلا فيما يتعلق بي وبعملي وابنتنا أولاً ثم تفكر فيما يخصها هي بعد ذلك.. طلبت منها أن تقلل من مجهودها داخل المنزل وتترك كل العمل بما في ذلك إعداد الطعام لمديرة المنزل ويكفيها الوقت الذي تجلس فيه مع حنان حتى تساعدها في مراجعة دروسها.. طلبت منها وعداً بذلك ولكنها قالت إنها سوف تبذل كل ما في وسعها لتحقيق ذلك.

دق جرس التليفون وفوجئت بأن المتحدث هو أحد الأصدقاء القدامى والذي ترك الخدمة العسكرية منذ فترة وتفرغ للعمل التجاري مع والده حتى أصبح

اليوم من رجال الأعمال المشهورين.. طلب مني أن يراني اليوم ولكني اعتذرت لأنه مازال عندي الكثير الذي يجب أن أنجزه بالمنزل وكذلك فإن زوجتي متعبة ولا أستطيع أن أتركها بمفردها.. لم يتركني إلا بعد أن وعدته بأننا سوف نلتقي يوم الجمعة وأنه سوف يرسل لي سيارة تصطحبني أنا وزوجتي وابنتي حتى نمضي اليوم مع زوجته في منزله القائم على أطراف القاهرة.. كانت زوجتي تستمتع إلى الحديث وعندما انتهيت نظرت إليها مستوضحاً رأيها فيما قلته.

– أعتقد أن هذه فكرة جيدة.. نترك المنزل ونمضي اليوم في مكان آخر.. كل ما أتمناه أن تكون زوجته مستعدة أيضاً للترحيب بنا.

– أعتقد ذلك.. صحيح أنني لا أعرفها ولكني أعلم أنها قد وُلدت في أمريكا عندما ترك والداها البلد ثم عادا بعد ذلك لكي يستثمرا أموالهما في عصر الانفتاح.. وإن لم يكن صديقي واثقاً من ذلك لما أصر على دعوتنا جميعاً فقد كان يمكن أن يدعوني بمفردي.. أتمنى فقط ألا أكون مشغولاً في ذلك اليوم.

– إن شاء الله سيكون لدينا وقت نمضيه جميعاً هناك.

* * *

في اليوم التالي كانت هناك مفاجأة تنتظرني في المكتب.. أثناء انهماكي بمراجعة ملفات أحد الشخصيات المهمة التي كان يطلق عليها لفظ "القطط السمان" في عهد الرئيس الراحل وكان ذلك بتكليف من الرئيس نفسه إذا بي أتلقى مكالمة من وزير الداخلية بأنني يجب أن أوصله بالرئيس حالاً لأنه لم يستطع أن يتوصل إليه وأن الأمر عاجل لا يحتمل التأخير.

- ماذا تقصد بالضبط يا سيادة الوزير؟

- أقصد أن هناك نوعاً من التمرد من بعض جنود الأمن المركزي وأن بعضهم قد خرج إلى الشارع معلناً عن غضبه.

- خرج إلى الشارع.. بأسلحتهم؟

- كلا.. ليس معهم سلاح ولكن بعضهم بدأ لونا من الشغب مثل تحطيم السيارات.

- كفى ياسيادة الوزير، سوف أجد الرئيس وأبلغه بالأمر.

نهضت من مكتبي مسرعاً وكنت أعلم أين أجده ولم يستغرق الأمر سوى عشر دقائق حيث إنني كنت دائم النظر إلى ساعتي في مثل تلك الأمور وإن كانت قد مرت عليَّ كدهر كامل ولم أجد شيئاً غير عادي بالشوارع وعرفت بعد ذلك أن الأمر قد تركز في منطقة الأهرامات وما حولها.. عندما وصلت إلى سيادته وجدته جالساً يجري بعض المكالمات التليفونية ومن هيئته أدركت أنه قد علم بالأمر.. جلست حيث أشار إليَّ إلى أن انتهى من حديثه مع وزير الدفاع وكعادته في المواقف الحرجة كان يجلس صامتاً بعض الوقت يستجمع أفكاره ولا يود أن يقاطعه أحد إلى أن كسر صمته قائلاً:

- لقد جئت في الوقت المناسب.. أعتقد أن وزير الداخلية لم يستطع أن يصل إليَّ وهذا أمر يجب تفاديه في المرات القادمة وعليك ترتيب ذلك نظراً لعامل الوقت في المواقف الحساسة وهو أحسن صنعاً عندما أبلغ وزير الدفاع وأبلغك بذلك.. الآن أود أن تنزل بنفسك وخذ معك من الحراسة ما تشاء وتذهب إلى حيث

يوجد ذلك الشغب وتعود إليّ بصورة واقعية عما يحدث بالضبط.

نهضت من مكاني مستأذناً دون أن أقول كلمة أو أعبر عن رأي لعلمي أن عامل الوقت كان مهماً لدى سيادته.. اتصلت بوزير الدفاع من استراحة الرئيس وطلبت منه أن يجهز لي سيارة مصفحة أستطيع أن أتجول بها في حرية، خصوصاً بعد إعلان حظر التجول ومنع المدنيين ورجال الشرطة –إلا من يحمل منهم إذناً بذلك– من السير في الشوارع سواء أكان على قدميه أم قائدا للسيارة.

في خلال خمس دقائق كنت السيارة في انتظاري على باب الاستراحة.. صعدت إليها وبداخلي مشاعر كثيرة متضاربة عما يحدث وعما أدى إلى ذلك.. كيف يمكن لهؤلاء المسئولين عن حفظ النظام وردع المخالفين أن يكونوا هم من يحطم القوانين ويصبح مصدراً للشغب؟ إن ما نطلق عليه نحن هنا قوات الأمن المركزي هو ما يطلق عليه في بلاد كثيرة قوات مكافحة الشغب.. كيف يمكن أن يكون مكافح الشغب هو مصدره؟ كيف يمكن لمن يجب أن يحافظ على النظام في وقت السلم أو الحرب أن يكون هو أول من يحطم ذلك النظام؟ لم أستطع أن أفهم ذلك في البداية وعندما وصلت إلى منطقة الأهرامات ورأيت بعيني السيارات المحطمة والنيران تشتعل في بعض الإطارات وبعض الواجهات والزجاج المتناثر أدركت أن هناك شيئاً أقوى من أن يحتمله ذلك العسكري البسيط الذي لا يملك إلا أن يطيع الأوامر دون حتى أن يفكر فيما قد يؤدي إليه ذلك.. نعم.. أفهم أنهم جميعاً من أبناء الريف البسطاء لا يحملون إلا قدرا بسيطاً من التعليم لا يتيح لهم التفكير فيما يصدر إليهم من أوامر.. هم لا يملكون تلك القدرة على التفكير فيما

قد يؤدي إليه عنفهم أحياناً مع المواطن واستخدامهم العصا بقسوة مع من يرون أنه قد تجاوز حده في تعكير صفو النظام.. هم مجرد آلة وليس لديهم العقل الذي يجعلهم يتمردون على ما هم فيه من ظروف عمل أو معيشة قد تكون قاسية في بعض الأحيان.. هل يعني ذلك أن أحدهم قد استطاع أن يستغل تلك الظروف وقام بالنفخ في الرماد فأدى إلى اشتعال تلك النيران؟ ومن صاحب المصلحة في ذلك؟ لابد أن يكون شخصاً أو مجموعة أو حزباً معادياً للنظام.. حاولت أن أستجمع شتات أفكاري حتى أستطيع أن أقدم صورة واضحة المعالم مزودة بتلك الصور الفوتوغرافية التي ألتقطها بالكاميرا الفورية التي معي حتى يكون تقريري مكتملاً أمام القائد.

تذكرت أن وزير الداخلية كان من الشخصيات المثيرة للجدل.. رغم أنه كان رجلاً شريفاً ويشهد له الأعداء قبل الأصدقاء إلا أنه استطاع أن يثير بعضاً من الخارجين على القانون بحكم استخدام الشدة أحياناً في التعامل معهم رغبة منه في استئصال شأفتهم من المجتمع.. كما أنه استطاع أيضاً أن يكتسب عداء بعض قيادات وزارته عندما جعلهم ينزلون إلى الشارع ويتركون أماكنهم المجهزة بوسائل الراحة ويمضون الكثير من وقتهم وسط الضجيج والتراب والتعامل مع المواطنين بل وخدمتهم أحياناً وهم قد نسوا ذلك الأمر منذ أن أصبحوا ضباطاً كباراً لا يتعاملون إلا مع علية القوم.. هل الفتنه مصدرها من الداخل؟ هل استطاع أحد هؤلاء القيادات أن يجعل الجنود يتمردون بشكل غير مباشر بهدف إسقاط ذلك الوزير أو هز صورته أمام القيادات السياسية واظهاره بمظهر العاجز على أن

يتحكم في وزارته؟ فكيف يمكنه أن يتحكم في الشارع المصري ككل؟ دارت كل تلك الأسئلة برأسي وأنا أرى مظاهر الدمار وأقول: من سيدفع ثمن ذلك؟ ألن ندفعه نحن جميعاً بمن في ذلك الجندي الذي بالكاد يجد ما يسد به رمقه وكذلك أهله في صعيد مصر أو في الدلتا الذين لا يملكون سوى بضعة قراريط تحافظ بمشقة على جدار حياتهم من التصدع؟

أنهيت جولتي ورجعت من فوري إلى استراحة الرئيس والتي لا تبعد كثيراً عن مكتبي وعلمت أنه قد سبقني إلى هناك.

عرضت عليه الصور التي التقطتها وبعض ملاحظاتي الشخصية وكذلك تحليلي لما قد يكون عليه السبب في اشتعال ذلك التمرد.. وكان بين يديه تقرير آخر من وزير الدفاع وتقرير ثانٍ من وزير الداخلية مشفوعاً برغبته في أن يترك العمل وذلك إحساساً منه بالمسئولية عما حدث وذلك كما جاء في نهاية تقريره.. نظر الرئيس إلى ذلك وقال:

- هل تكفيك ساعة من الزمن حتى تدرس ذلك التقرير وتقدم لي بياناً بأسباب ذلك الشغب حتى لا يحدث ذلك ثانية وترى من هو المتسبب فيه حتى ينال عقابه؟

- نعم.. تكفيني ساعة وسوف أتصل بسيادتكم حال انتهائي.

- لا تتصل.. سأكون بالمنزل في انتظارك عندما تنتهي.

قال ذلك وهو يمضي ناحية الباب وقد بدت عليه مظاهر الغضب، خصوصاً بعد أن رأى تلك الصور التي أحضرتها معي.. وقد لاحظت ذلك وهو ينظر إليها..

ما دفعني إلى القول:

- لقد رأيت أن أشفع تقريري ببعض الصور حتى تكون الرؤية أكثر وضوحاً لدى سيادتكم.

- طبعاً.. هذا أفضل من التقارير الإنشائية.. يعجبني أنك تشفع كلماتك بالصور وبالتحليل أيضاً وهذا يساعدني كثيراً في اتخاذ القرار المناسب.

- أرجو أن أكون دائماً عند حسن ظن سيادتكم.

* * *

الساعة العاشرة اتصل بي صديقي "فتحي" وأخبرني بأن السيارة ستكون بانتظاري بعد صلاة الجمعة حتى تصطحبني أنا والأولاد إلى منزله.. حاولت أن أعتذر بأنني مرهق ولن أكون في حالة تسمح بقضاء وقت لطيف معاً ولكنه لم يقبل اعتذاري وقال إن زوجته وأولاده سيكونون أيضاً في انتظارنا.

خرجت بعد أن اتصلت بالمكتب وأعلمت مساعدي الموجود بمكان وجودي وأعطيته رقم التليفون حتى يتصل بي إذا حدث أمر مهم أو أراد الرئيس مقابلتي.. كان نادراً ما يطلبني الرئيس في ذلك اليوم.. كان يعلم أنه يوم إجازتي ويتركني كي أنعم به مع زوجتي وابنتي.

وصلت إلى المنزل الموجود في إحدى المدن الجديدة بأطراف محافظة القاهرة.. شعرت بمدى الرفاهية التي ينعم بها صديقي بمجرد دخولي من بوابة الحديقة المحيطة بالمنزل، أو بالأحرى بالقصر الذي يعيش فيه.. كان يتصل بأحد تلك المنتجعات السياحية وإن كان له المدخل الخاص والحديقة الخاصة به إلا أنه كان

هناك طريق فرعي يربطه بتلك القرية فيمكن أن يدخل أو يخرج منها دون الحاجة إلى استخدام مدخله الخاص.. كان كل ما في المكان يوحي بلون من ألوان العز التي يتمتع بها نفر غير قليل من أبناء المجتمع الذين بدأوا العمل في التجارة أو في الصناعة في عهد الرئيس الراحل واستطاعوا أن يكونوا ثروة تمكنهم من العيش كبشوات كما كان العهد قبل الثورة.. لقد حدثت تغيرات كثيرة في المجتمع سمحت بذلك الترف في المعيشة وسمحت بتقبل أفراد المجتمع له، خصوصاً بعد أن عاد بعض العاملين من الخليج ومعهم أيضاً من الثروة ما يكفيهم من العيش في بحبوحة مع إقناع من حولهم بأن هذا لا يتعارض أبدا مع الدين ماداموا يؤدون ما عليهم من زكاة ويفتحون أبواباً عدّة من الرزق أمام أبناء وطنهم.

عند وصولي إلى مدخل القصر بعد اجتياز الحديقة كان مضيفي وزوجته بانتظاري.. رحبا بنا بشكل ودي وحار أذاب كل مظاهر الرهبة التي شعرنا بها ونحن ندخل إلى المكان لأول مرة.. كان "فتحي" يرتدي ملابس رياضية تسمح له بحرية الحركة والجلوس في أي مكان دون حرج بالقياس إلى ملابسي شبه الرسمية وكذلك ملابس زوجتي.. الوحيدة التي كانت ترتدي الملابس المناسبة هي حنان.. التي كانت ترتدي "تي شيرت" و"جينز" كما لو أنها أدركت بحسها الطفولي البريء أن هذه هي الملابس المناسبة لذلك المكان.

جلسنا في الحديقة وقد أحاطت بنا نباتات الزينة وأشجار الورد البلدي والذي كان منظره لا يتفق كثيراً مع أشكال النباتات الأخرى والتي لا تتواجد في مصر ويتم جلبها من الخارج.. وعندما لاحظ فتحي ما بدا على وجهي من انطباع

بعدم تجانس بعض الزهور مع بعضها قال لي وهو ينظر إلى زوجته:

- بصراحة الورد البلدي هذا هو فكرة زوجتي.. لقد أعجبها عندما رأته لأول مرة بأحد محلات الورود وصممت على زراعته هنا رغم عدم اتفاقه مع ألوان الزهور الأخرى التي استطعت أن أشتريها من أحد المتخصصين في جلب تلك الزهور من هولندا وفرنسا.

- معنى ذلك أنك تزرع الزهور المستوردة في حديقتك وزوجتك تفضل الورد البلدي.

- هذا هو الطبيعي يا صديقي.. كل يفضل ما ينقصه وما يراه جميلاً من وجهة نظره.

- أنا حتى هذه اللحظة كنت دوماً من أنصار الورد البلدي ولكنني بعد أن رأيت تلك الأصناف البديعة لديك أفكر في أن أزرع بعضاً منها في مزرعتي.. أريد فقط أسمائها واسم المورد لها حتى أستطيع شراءها.

- ولِمَ تشترِها وتقوم بزراعتها في مزرعتك إذا كان من الممكن أن تحصل عليها مزروعة جاهزة في أرضها؟

نظرت إليه ولم أفهم تماماً ماذا يعنيه وعندما أدرك ذلك نظر إلى القصر الذي بجوار قصره وإن بدا عليه أنه مهجور لا أحد فيه وقال:

- انظر إلى ذلك القصر.. لا أحد فيه.. وفيه كل أنواع الزهور التي لديَّ حيث يعتني بها العاملون بالقرية للمحافظة على المظهر العام للمكان.. كل المطلوب هو أن تشتري القصر فتملك الحديقة ويمكن بعد ذلك أن تضيف إليها

الورد البلدي إذا رغبت.

– هكذا بكل بساطة؟ ومن أدراك أنني أملك ثمن القصر؟ أم أنك تعني أن أبيع مزرعتي وأشتري القصر بالحديقة؟

– طبعاً لا.. لِمَ تبيع مزرعتك؟ إن صاحبه قد مات وترك ولدين يعرضانه للبيع وقد أوكلا هذه المهمة لي لأنني كنت صديقا لوالدهما.. وبالطبع فإنني أنا الذي سيحدد المشتري وكذلك الثمن وهذه فرصة لا تأتي إلا مرة في العمر.

عند هذا الحديث اقتربت زوجتي وزوجة فتحي "سوزي" من مكان جلوسنا وكانتا تتمشيان معاً في الحديقة حيث قامت سوزي بتعريف "علياء" بكل ما لديها من نباتات وزهور.

– ما هذه الفرصة التي لا تأتي إلا مرة واحدة؟

قالت سوزي وهي تنظر إلى زوجها في فضول.

– إنني أعرض على صديقي "يحيى" أن يشتري ذلك القصر حتى نصبح جيراناً.

نظرت زوجتي إلى المكان ونظرت إليَّ تستعلم عن الموضوع فلم أجد بداً من القول:

– إن "فتحي" يعرض علينا شراء ذلك القصر؛ حيث إنه هو المفوَّض ببيعه من ابنيٍّ صاحبه الذي كان صديقاً له.. وقبل أن تعلق زوجتي على ذلك إذا بسوزي تنظر إليها قائلة:

– هذه فعلاً فرصة.. وأنا لا أتفق مع زوجي كثيراً ولكن هذه المرة أجد أنها

فرصة لن تعوض وإذا...

ولم أتركها تكمل جملتها فقاطعتها قائلاً:

- أرجو المعذرة يا هانم ولكن هذا موضوع يستحق شيئاً من التفكير.. ولا نستطيع أن نقرره الآن دون أن ندرسه فالإنسان لا يشتري كل يوم قصراً.

- طبعاً.. طبعاً.

قال فتحي ذلك ثم تابع حديثه:

- عموماً بخصوص الثمن فإنني أستطيع أن أجعله يتناسب مع ظروفك، واسمك هو الضامن لك، ولن تحتاج حتى إلى شهادة مني.. فكّر جيداً وأنا في انتظار قرارك عند زيارتك الأسبوع المقبل.

- ماذا؟ الأسبوع المقبل؟ ألن تأتوا أنتم أولاً لزيارتنا في مزرعتنا ومنزلنا المتواضع؟ نظر فتحي إلى زوجته مستأذناً قبل أن يتكلم فإذا بها تقول:

- طبعاً الجمعة المقبل سوف نكون عندكم.. ولقد علمت أنه لديكم الكثير من أشجار الفاكهة وأريد أن أراها في الطبيعة.

- إذاً.. اتفقنا.. الأسبوع المقبل لدينا وسوف أخبرك بما اتفقنا عليه في موضوع القصر.. هذا وإن كنت بحاجة إلى بعض التفاصيل.. عن المالك الأصلي والثمن الذي يريده وكيفية السداد والتقسيط وخلافه.

- طبعاً سوف أعطيك كل هذه المعلومات بعد الغداء.

قال فتحي ذلك وقد أشار إلى مائدة عامرة قد أُعدت خلف القصر في مكان مخصص لذلك وشعرت أنا أيضاً بالجوع، خصوصاً أن رائحة المشويات كانت تغمر

المكان.

° ° °

في الطريق إلى المنزل لم نستطع أن نتحدث كثيراً وذلك لأن حنان كانت دائمة الكلام عمّا رأته واستمتعت به مع "تامر" و"روزي" ابني فتحي صديقي.. طلبت منا أن نذهب لزيارتهم كل أسبوع حتى تستطيع أن تجري وتلعب معهما في الحديقة.. أدركت من الكلمات القليلة التي قالتها زوجتي أنها أُعجبت بالمكان وكل تلك النباتات والزهور التي لم ترها من قبلُ وكذلك بحمام السباحة الموجود به والذي يمكن أن يسمح لها بممارسة رياضة قديمة عندما كانت تذهب مع والدها وهي طفلة إلى "نادي الضباط".

شكرت السائق الذي حياني بشكل أقرب إلى التحية العسكرية ويبدو أنه علم من مستخدمه أنني مازلت ضابطاً بالقوات المسلحة.. دخلنا إلى المنزل الذي بدا متواضعاً بالقياس إلى المكان الذي كنا فيه وقامت حنان بتقبيلي واحتضاني وهي تقول:

– بابا أريد حمام سباحة مثل الذي عند "تامر" و"روزي".

– حاضر يا حبيبتي.. سوف أفعل لك كل ما تريدينه.. تصبحين على خير.

رغم إحساسي بالراحة لعودتي إلى منزلي وجلوسي في مقعدي المعتاد.. فإنني لم أستطع أن أبتعد كثيراً عن التفكير في أحداث اليوم، خصوصاً ذلك العرض بشراء هذا القصر.. وكان هناك شيء من الإغراء فيه.. أن زوجتي وابنتي لن تكونا وحديتين طوال اليوم أثناء تواجدي بالعمل والذي كان يستغرق مني كل النهار

وأحيانا ساعات من المساء.. وكذلك فإن تحديد السعر وطريقة الدفع في يد صديقي فتحي وسوف يعطيني أفضل ما عنده من عرض، خصوصاً أنه يرغب في أن أكون بجواره وأن أشتري ذلك القصر وكذلك ابنتي التي ترغب في حمام سباحة تلهو فيه، ولكن الأهم من ذلك ما رأي "علياء"؟ أهي أيضاً تريده؟ إذا كانت تريده فسوف أشتريه دون تردد ولكن يجب أن تكون هي تلك أيضاً رغبتها.

جاءت زوجتي ووضعت أمامي مشروبي المفضل في المساء وهو "الينسون" وأحضرت كوبا من "النعناع" لها.. شكرتني على ذلك اليوم الجميل الذي استمتعت به هي و"حنان"، وأخبرتني بأنها سوف تبهرهم أيضاً بكرم الضيافة عندما يأتون الأسبوع القادم لزيارتهم، وأنها سوف ترتب كل شيء ولا داعي لأن أشغل بالي بتلك الدعوة، فلديها أسبوع كامل لتحضير كل ما يلزم ولترتيب المنزل والحديقة المحيطة به حتى يصبحان في أفضل حال قبل أن يأتي الضيوف..

- ليس عندي شك في ذلك يا حبيبتي.. ولكن أريد أن أسألك سؤالاً واضحاً وصريحاً.. هل تريدين فعلاً أن تشتري ذلك القصر وننتقل للمعيشة هناك بعد إعداده لذلك؟ نظرت إلى ولم تجب وشعرت بأنها تريد ذلك ولكن تخشى أن يتعارض ذلك مع رغبتي فردت قائلة:

- هذه الأمور أترك تدبيرها لك.. فأنت أدرى دائماً بما هو أفضل لنا وتحققه دون أن نطلب منك ذلك..

- صحيح.. ولكن بخصوص هذا الأمر يجب أن أعلم رغبتك أنت أيضاً.. حنان كانت سعيدة هناك وأصبح لديها أصدقاء.. وأنت هل تعتقدين أن "سوزي"

يمكن أن تكون صديقة أو على الأقل الجارة التي تريدينها؟

– أعتقد ذلك، ولكن هذا لا يعني أننا يجب أن نشتري ذلك القصر، فالأمر تحدده عوامل أخرى مثل ظروفنا المادية مثلاً وظروف عملك.

– بالنسبة للظروف المادية فسوف أقوم ببيع جزء من نصيبي في المزرعة لأخي، وأعتقد أن لديه القدرة على الشراء، وبالنسبة لعملي فليس هناك تعارض بين وظيفتي وتغيير محل إقامتي أو سكني في قصر.. ولكن الأهم من ذلك هو ما الذي تريدينه أنت؟ أنت التي تقضين معظم الوقت بالمنزل..

– أنت تعلم أن وجودي معك ومع ابنتنا هو مصدر سعادتي في الدنيا سواء أكنا في شقتنا القديمة أو منزلنا بالمزرعة أو في أي مكان آخر..

– إذاً فسوف أتصل بأخي وأعرض عليه شراء جزء من نصيبي في المزرعة، وأعتقد أنني أستطيع تدبير الباقي من مدخراتي، وسوف نشتري هذا القصر بإذن الله وسوف يكون ذلك هدية مني لك، وإن كانت قصور الدنيا كلها لا يمكن أن تعبر عن مدى حبي وامتناني لك ولكل ما..

عند هذا الحد من الكلام مدت يدها ووضعتها برفق على فمي كعادتها حتى لا أكمل ما بدأته من حديث الإطراء لها.. كان ذلك يحيرني أحيانا.. فكل إنسان -وخصوصا المرأة- يميل إلى كلمات المديح والثناء وينتشي بها ويتمنى أن يسمع منها المزيد.. فهذه هي طبيعة البشر، مثلما يستهجن ويستقبح كلمات النقد أو اللوم.. وكل الروايات التي قرأتها كانت المرأة فيها تسعى دائماً إلى كلمات الإطراء سواء أكانت من زوجها أو من حبيبها أو حتى من زميلها بالعمل، وتشعر

بالحزن إذا لم تسمعها أو لم تكن بالقدر الكافي الذي يدخل السعادة إلى قلبها وتحلق معها روحها إلى عالم سحري تنسى معه كل هموم يومها ومشاكل غدها.. أما زوجتي فكانت تكتفي منها بالقدر القليل ثم تضع يدها على فمي حتى لا أسترسل في المديح كما لو كانت تستكثر على نفسها عبارات الثناء أو باقات قليلة من كلمات الإطراء..

* * *

انتهت أزمة جنود الأمن المركزي بسرعة، لكن قبل أن تخمد نارها لفتت انتباهنا إلى أوضاع هؤلاء العسكريين والتي كانت من السوء بحال إلى درجة استدعت تغييرها وتعديل ظروف معيشتهم إلى الأفضل.. لم يدخر "فتحي" جهداً في أن يسهل لي إمكانيات شراء هذا القصر سواء من الناحية الإجرائية أو المادية، بل إنه عرض على أن يقرضني ما أشاء إن كانت ظروفي المادية لا تسمح بذلك.. بالطبع شكرته وقلت له إن أحوالي على ما يرام..

لم يمض شهر على ذلك حتى كنا قد انتقلنا إلى المعيشة به.. وقد اضطرني ذلك إلى شراء بعض الأثاث الجديد، حيث إنني أبقيت على معظم ما هو موجود بمنزلي في المزرعة حتى يكون هناك مكان آخر يتمتع بهدوء غير عادي إذا ما احتجت أن أخلو بنفسي يوما ما أو أقضي يوماً بعيداً عن زحمة العمل والتزامات الحياة الزوجية..

عندما اشتريت القصر وذهبنا للعيش فيه مع زوجتي وابنتي لم يكن هدفي هو الارتقاء بمستواي الاجتماعي بما يتماشى مع وظيفتي، أو حتى كرغبة

إنسانيه بحته في العلوّ والصعود في السلم الطبقي كما يفعل الكثيرون وكما سار بالفعل الكثير من أبناء طبقتي، وكذلك بعض أصدقائي وزملاؤهم وعلى رأسهم جاري الجديد وصديقي القديم "فتحي".. لم تكن تلك هي الصورة التي دفعتني إلى الانتقال إلى هذا المكان الجديد وتلك المدينة الجديدة والتي تقع على حافة الأهرامات كما لو أنها تقول لتلك المنشآت العتيقة: لقد بناك الأجداد لتكوني مقبرة وداراً للموت، أما نحن فنبني تلك القصور حتى نعيش فيها ونستمتع بكل ما لذ وطاب من ملذات الحياة، وعندما يأتي الموت فإن مقبرة بحجم شقة سوف تفي بالغرض.. يكفي أن يكون هناك مكان معد لذلك وله سور يدل على أنه دار الفناء.. أما المباني الشاهقة فإنها للعيش أثناء الحياة وليست للدار الآخرة.. فعلت ذلك فقط لإرضاء زوجتي وابنتي عندما شعرت برغبتهما في السكن في هذا المكان الفخم..

كان انتقالي إلى هذا القصر لا يعني فقط ارتقائي إلى مصاف الطبقة العليا وقطع صلاتي بأبناء طبقتي المتوسطة.. بل كان يعني أيضاً التعرف على نواحٍ أخرى من الحياة لم أكن قد مارستها أو حتى فكرت في أن تكون من ضمن أجندتي اليومية، وذلك بحكم طبيعتي ونشأتي على قيم مستمدة من مجتمع الريف الذي يحرّم -أو على الأقل يستهجن- الكثير من سلوكيات أهل الحضر.. وكذلك بحكم طبيعة عملي العسكري والمدني بالقرب من صانع القرار، والذي ما كان يتيح لي فرصة للتفكير -بعد انتهاء العمل- سوى في أخذ قسط من الراحة حتى أكون نشيطاً مرة أخرى للعمل في اليوم التالي.. وكذلك استقرار أحوالي العائلية وتلك

الزوجة التي كانت تلبي كل رغباتي وقبل أن أطلب منها ذلك..

بدأت أرى بأن هناك طبقة أخرى في هذا المجتمع تتمتع بكل شيء وتستحوذ على كل شيء دون أن تكون قد حصلت على ذلك بالإرث أو حتى بالمجهود الشاق الذي جعلها ترقى في السلم الاجتماعي وتصعد إلى الطبقة التي تليها.. كان أبناء هذه الطبقة الجديدة من أصحاب الأعمال الذين استطاعوا أن يتحالفوا مع بعض المسئولين في الدولة حتى يحققوا مكاسب أكبر وينتقلوا بسرعة لا تتناسب مع مجهودهم أو رأس مالهم أو حتى سنهم إلى الطبقة الأعلى ثم الأعلى وبسرعة تكاد تقارب سرعة الصاروخ.. وقد أدى هذا بطبيعية الحال إلى ظهور تلك الطبقة من السياسيين أو كبار موظفي الدولة، والذين لا يعملون بالسياسة وإنما بحكم وظائفهم المهمة في الحكومة أو في القطاع المصرفي أو في القطاع الأمني استطاعوا أيضاً أن يحققوا مكاسب غير شرعية باعتبار أنهم يساهمون في تحطيم الروتين أو تسهيل بعض الإجراءات الحكومية لخدمة المصلحة العامة، وهم يعلمون يقينا أنهم لا يخدمون سوى مصلحتهم الشخصية.. بالطبع كنت أعلم بحكم عملي وكذلك متابعتي للحياة العامة وحصولي على ملفات الكثير ممن هم في مواقع هامة أو حساسة بأن تلك الأمور موجودة في البلد.. وأن هناك الكثير من الرجال الشرفاء الذين يتصدون لتلك التصرفات بشكل قانوني حتى يعود الحق إلى صاحبه أو ترجع الأموال المسروقة إلى خزائن الدولة أو الأرض المستولى عليها إلى الملكية العامة مرة ثانية.. أقرأ بعض هذه اللفات وألخصها أحياناً وأضع عليها رأيي أو تحليلي قبل أن أعرضها على الرئيس.. لم أك جاهلاً بما يحدث ولكني لم

أكن أتخيل أن حجم الفساد والرشوة بهذا القدر، وأنه في ازدياد مع مطلع كل شمس.. ويبدو أن الفاسد كان لا يستريح إلى وجود رجال شرفاء بجواره فكان يسعى دائماً إلى أن تمتد شبكة معاملاته إلى كل العاملين معه، وأن ينال كل منهم نصيبه من الرشوة أو من الكعكة أو التورتة كما كان يطلق عليها حتى يطبق المثل العامي الذي يقول: "أطعم الفم تستحي العين"..

بعد انتقالي إلى هذا المكان وصعودي إلى الطبقة العليا في هذا المجتمع بحكم عملي أولاً ثم الآن بحكم مقر إقامتي الجديد، لم يعد يتبقى لي من مستلزمات تلك الطبقة سوى بعض السلوكيات والمظاهر والتي لن تدع أحداً يشك في أنني أنتمي إليها فعلاً قلباً وقالباً.. لم أكن أدري أنني أود أن أنتمي إليها.. وكيف أعلم ولم تتح لي حتى فرصة الاختلاط بها سوى في مواقف رسمية لا تسمح إلا بالعمل أو التصرف بما تقتضيه ظروف العمل أو البروتوكول.. كان انتقالي للمعيشة على أطراف المدينة التي آثرت أن تبتعد عن ضوضاء العاصمة، وفي ذلك القصر الذي بدا وكأنه مدخلي إلى ذلك العالم السحري الذي لا يجمع سوى الصفوة كما كانوا يطلقون على أنفسهم عندما يشيرون إلى طبقات المجتمع الأخرى أثناء أحاديثهم.. كان ذلك الانتقال هو بداية صعودي إلى تلك الطبقة، وبقدر ما كان صعودي سريعاً -وقد سهلت الظروف لي ذلك- بقدر ما كان هبوطي أيضاً سريعاً، وقد سهلت الظروف لي ذلك أيضا.. ولكن بعد أن تغيرت وتغير معها كل شيء في المجتمع بداية من الحاكم الذي ما كنا نظن أنه قد يتغير، وظننا أن سنن الحياة والموت لن تسري عليه، فقد كان أكبر من كل ذلك أو هكذا بدا لنا، أو بمعنى أدق هكذا أردنا

نحن..

كانت البداية لرحلة صعودي في القصر.. ولكن ليس في قصري وإنما في قصر صديقي فتحي.. كان كل أسبوع ينظم ما يسمى بسهرة "الشلة"، وهم مجموعة من أصدقائه يجتمعون عنده مساء يوم الخميس ويظلون بالمنزل يتسامرون ويمرحون أحياناً حتى الصباح، ثم ينصرف كل منهم إلى منزله.. كانت زوجته تمضي ذلك اليوم عند والدتها حتى يستطيع هو وضيوفه أن يكونوا بحريتهم في المنزل، وهناك طبعاً ما يكفي من الخدم للسهر على راحتهم وكل متطلباتهم..

في المرة الأولى عندما دعاني "فتحي" ترددت في قبول الدعوة، ولكنه أخبرني أنني لا يجب أن أظل حتى الصباح، وإذا لم تعجبني السهرة أو الشلة فإنني أستطيع أن أنصرف بسهولة إلى منزلي، فهو لا يبعد سوى أمتار قليلة عن منزله.. أخبرت زوجتي ولم تمانع طبعاً بل شجعتني على ذلك، حيث إنني في حاجة أيضاً إلى التغيير وقضاء بعض الوقت مع الأصدقاء وليس دائماً في العمل أو المنزل.. بالطبع لم يكن المنزل غريباً على فقد دخلته مرات كثيرة قبل ذلك.. ولكن الغريب هم هؤلاء المجموعة من الأصدقاء أو الشلة كما كانوا يحبون أن يطلقوا على أنفسهم.. كانوا ثمانية.. قدمني فتحي لهم وقدمهم لي واحدا بعد الآخر.. رحبوا بي كما لو كانوا يتوقعون قدومي.. لم أدرِ ما الذي جمع كل تلك الشخصيات المتنافرة اجتماعياً بل وفكرياً أيضاً.. كل فرد منهم يمكن أن تُتناول قصة حياته في كتاب أو في مسلسل تليفزيوني يتفوق على كل المسلسلات بكل ما في حياته من متناقضات لا تدري كيف استطاع أن يجمع بينها في شخصية واحدة..

بالطبع عندما أصبحت واحداً منهم أصبح ما ينطبق عليهم من أوصاف ينطبق علي أنا أيضاً.. لم تكن الصداقة هي التي تجمع بينهم كما كانوا يظنون أو يوهمون أنفسهم، بل إنها المصالح المشتركة مع لحظات أنس ومرح وضحك من القلب، حتى إنك أحياناً يكاد يغمى عليك من شدة الضحك إذا كان الموقف هو سخرية من أحدهم، وكان هذا أمراً مألوفاً.. كان الجميع يسخر من الجميع، وهذا هو الشيء الذي أثار حفيظتي في البداية.. لم أكن أتصور وأنا في هذه المرحلة العمرية وذلك المنصب الحساس أن يسخر مني أحد، كما أنني بطبعي لم أكن أميل إلى السخرية من الآخرين أو أستخدم الألفاظ الجارحة أثناء الحديث على سبيل الجد أو حتى المزاح..

لقد لاحظوا ذلك منذ البداية واحترموه، وهذا سهّل من انضمامي إليهم حتى أصبحت واحداً منهم وأصبحت سهرة الخميس بالنسبة لي هي جزء أساسي من برنامجي الأسبوعي، لا يمنعني عنها سوى وجودي خارج البلاد أو في مهمة رسمية أو لوجودي بالمكتب لعمل يقتضي ذلك.. كانت تلك السهرة هي بمثابة غسيل لكل متاعب اليوم ومشاكل العمل وهموم الحياة لكل منا.. نتجرد فيها من كل ما هو روتين لنفعل كل ما هو غير عادي ولا نستطيع فعله أمام الآخرين بمن في ذلك أقرب الناس إليك.. كانت النكات البذيئة والتعليقات الخليعة شيئاً عادياً في تلك السهرة.. وكذلك لعب الكوتشينة والقمار كان شيئاً عادياً.. بالطبع لم يمارسه الجميع وإنما بعضنا بينما يكتفي البعض الآخر بالمشاهدة.. كنا شلة عجيبة تجمع بينها المتناقضات.. لا تجد شخصية مثل الأخرى..

فصاحب المكان "فتحي صادق" أو "أنكل سام" كما كان يحلو لنا أن ندعوه بحكم سفره الدائم لأمريكا وزوجته الأمريكية من أصل مصري.. كان رجلاً لا يسعى إلا إلى الملذات.. حسية أو معنوية، مثل ما كان يقصه علينا من روايات تشبه قصص ألف ليلة وليلة ومغامراته عندما كان بأمريكا وسهراته الماجنة مع النساء، والبنات خصوصاً، وهو يقصد بذلك القاصرات أو من هن دون الثامنة عشرة، حيث كان يحلو له اصطيادهن من أمام الجامعات أو المدارس، وبالطبع لم يكن الأمر صعباً بحكم ظروفه المادية التي أتاحت له فرص اللهو إلى أن قرر أن يتزوج.. وهنا وبحكم حياته السابقة وجد أن المصرية أو من أصل مصري سوف تكون أفضل زوجة له، بحكم أنها قد حافظت -ولو بقدر لا بأس به- بحكم تربيتها على بعض من عادات المجتمع وتقاليده.. كان يتاجر في كل شيء مسموح به.. لا يهمه ما سوف يبيعه ما دام يحقق من ورائه ربحاً.. ورغم أنه قد استقر عائلياً بعد أن تزوج، إلا أنه كان يحن دائماً إلى أيام التسكع في بلاد العم سام.. بل كان يذهب من وقت لآخر ويتسكع بسيارته أحياناً أمام الجامعات الخاصة في المدن الجديدة دون رغبة حقيقية منه في الاصطياد هذه المرة، ولكن لمجرد أن يستعيد أيام الماضي الجميلة..

أما "محمد نجيب"، فقد سماه والده على اسم "القائد محمد نجيب"، وكان أصغرنا سناً وبدا أيضاً أنه أصغرنا عقلاً.. كان يحيل كل مناقشة إلى لون من ألوان الهزل حتى نعود ثانية إلى المرح واللهو ونترك السياسة والجد.. كان يقول إن الحياة قصيرة.. بل قصيرة جداً، فكيف نضيع تلك اللحظات القليلة التي نقضيها

معاً كل خميس في مناقشات جادة؟! ألا تكفينا كل أيام الأسبوع؟.. كان ضابطاً سابقاً بالجيش وأحيل إلى الاستيداع وهو صغير دون سبب يستدعي ذلك كما يقول.. لقد سب قائده أمام الجميع لمجرد أنه طلب منه أن يحضر إليه بالخطوة السريعة.. وبعد محاكمة هزلية أخرجوه من الخدمة بعد أن أعطوه نصف المكافأة التي كان يستحقها.. ولأنه أصلاً كان ضابطاً مهندساً فقد استطاع أن يلتحق بأحد مصانع الإلكترونيات الحديثة مما وفر له دخلاً مناسباً بالإضافة إلى عمله في أحد التوكيلات الخاصة.. كان يشعر أن عمره قصير ولذا كان يود أن يستمتع بحياته على قدر استطاعته..

أما "محمد علي" أو الكبير كما كان يحلو له أن نسميه بحكم بنيانه الضخم رغم أنه كان لا يمارس أية رياضة على الإطلاق، فقد كان مدرساً للغة الإنجليزية بإحدى المدارس الحكومية، وبالطبع كان يتعاطى الدروس الخصوصية حتى إنه حقق منها دخلاً كبيراً.. وأصبح على من أراد أن يُلحق ابنه لديه في مجموعته الخاصة أن يحجز له مكاناً عند انتهاء العام الدراسي حتى يتسنى له أن يكون من طلابه عند بداية العام الجديد.. كان يُشفع أحاديثه دائماً ببعض الكلمات الإنجليزية حتى يتأكد الآخرون أنه -وإن لم يكن من رجال الجيش أو الشرطة- فإنه يعتبر من المثقفين أو على الأقل من المتعلمين تعليما عالياً.. كان يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة، وكان يحلو له دائماً أن يقول ذلك باللغة الإنجليزية.. على الأب أن يفعل كل شيء لتعليم أولاده والإنفاق عليهم حتى لو أدى ذلك إلى قبول الرشوة أو التذلل لدى رؤسائه.. لم تعجبني آراؤه ولكني لم أخف إعجابي

بشجاعته أن يقول ذلك وسط الجميع سواء أقبلوا ذلك منه أم لا..

أما "سيد سعيد" فكان ما زال ضابطاً كبيراً بالشرطة، ورغم أننا كنا نناديه بـ "الباشا" فقد كان يقول إنه يفضل لقب "حاج سيد" أو "أبو سعيد"، حيث إن ابنه الأكبر كان يدعى "سعيد" على اسم جده.. كان فعلاً رجلاً متواضعاً رغم منصبه ورتبته.. كنت أشعر فيه بجذور الانتماء إلى القرية وإلى أرض هذا الوطن أكثر من باقي أفراد الشلة.. لا أدري كيف انضم إليها وأصبح واحداً منها.. إلا أنه في لحظات المرح والمجون كان أكثرنا مرحا وأكثرنا إلقاءً لهذه النكات البذيئة، والتي اعتقدت لفترة من كثرة حفظه لها وإتيانه بالجديد منها أن تلك النكات يتم تأليفها في وزارة الداخلية، ويبدو أن هناك قسماً خاصاً بذلك يتولى موظفوه اختراع هذه النكات ثم إلقاءها بين أفراد الشعب عن طريق العاملين بها حتى تلهي الناس عن التفكير في مشاكل الحياة وأمور السياسة بصفة عامة.. كان يبدو لي أنه رجل طيب وأحيانا ساذج ولا يصلح أن يكون ضابطا بالشرطة، ولكن الأيام أثبتت لي فيما بعد أنني كنت مخطئاً.. بل إنني كنت أنا الساذج..

أما "رضا الكاتب" فقد كان من تجار العاديات في شارع الهرم، وبالطبع كان من الموسرين وكان يتمتع بعقلية رجل الأعمال الجديد، وكان يقول إنه مستعد أن يبيع أي شيء حتى لو كان الهرم نفسه إذا حقق ذلك له ربحاً معقولاً.. لم يكن يخالجني شك في ذلك.. بل إنني أحياناً كنت أعتقد أنه مستعد أن يبيع نفسه إذا وجد الثمن المناسب لذلك.. كان يمثل فعلاً عقلية رجل الأعمال الذي لا يؤمن إلا بما هو في مصلحته أولاً دون النظر إلى اعتبار آخر.. كان يقول إنه إذا رأى أن

المشتري -وهو غالباً أحد السياح- قد أعجبته البضاعة فإنه يغالي في ثمنها ويعطيه السعر مضاعفاً ثلاث أو أربع مرات، حتى يبيع الشيء الذي يساوي في الحقيقة مبلغ ألف جنيه بما يوازي عشرة آلاف جنيه، ويشعر عندما يقوم بذلك بأنه "شاهبندر التجار".. لا يهمه إذا رأى المشتري نفس البضاعة بثمن أقل في مكان آخر أم لا.. أو حتى إذا رجع إلى بلده وأخبره صديق له بأنه اشترى نفس الشيء بعُشر الثمن.. لا يهمه ذلك من قريب أو بعيد.. وعندما قلت له يوما ما: ألا تهتم بسمعة البلد وما قد يقال عنا أننا لصوص ولسنا تجارا؟ ضحك ونظر إلى وإلى الجميع وقال: يا عزيزي كلنا لصوص.. ألم تسمع ذلك من قبل؟ ولكن كلٌ يسرق بقدر حاجته، أما أنا فأسرق بقدر استطاعتي..

أما "محمود حسين"، فكان شخصا رقيقاً لا أدري كيف أصبح واحداً من تلك الشلة.. يتمتع بقلب شاعر، وكانت له محاولات كثيرة في الكتابة إلا أنه ما كان يفكر في نشر شيء من إنتاجه مكتفياً بإهدائه إلى ملهماته.. وإن كن كُثراً على حسب ما يقول.. أو بقراءته أحياناً أمام بعض الأصدقاء.. كان فعلاً إنساناً رقيقاً يتمتع بحس مرهف وإن كانت روح الدعابة والسخرية من كل شيء جعلته أحياناً صاحب أجمل القفشات وألذع التعليقات.. كان يعمل مترجماً بهيئة الاستعلامات، ولكنه كان ينصح الجميع بالذهاب إلى أي مكان آخر إذا أراد أن يحصل على معلومات أو أرقام تخص إحدى الهيئات أو المصالح الحكومية، لأن هيئة الاستعلامات هي آخر من يعلم..

"أما صادق محجوب"، فلم يكن صادقاً بقدر ما كان يتفنن في إخفاء الصدق أي

يحجبه، وبذلك يحقق المعادلة الصعبة في اسمه.. أن تكون صادقاً.. ثم أن تحجب هذا الصدق.. فلا يعلم مَن أمامك هل تقول الحقيقة أم لا.. كان يجد لذة في ذلك وخصوصاً أنه كان يعمل بأحد الأجهزة الأمنية الحساسة، وكان لديه الكثير من المعلومات وإن لم يكن مفوضاً أن يخبر بها أحداً.. فكان يطبق علينا نحن كأصدقاء أهم مبادئ عمله، وهي عدم إفشاء أسراره.. بالطبع كان هذا مقبولا لديّ واحترمته لذلك.. فأنا أيضاً لدي الكثير من الأسرار ولن أقوم بإطلاع أحد عليها، فهذه هي الأمانة التي يقتضيها العمل.. إلا أن الفارق بيننا هو أني ما كنت أدلي بأية معلومة عن عملي سواء أكانت صادقة أم كاذبة، وما كان لأحد أن يسألني احتراما لحساسية منصبي.. أما صادق فكان يتلذذ بإعطاء معلومات ثم يُتبعها بضحكة عالية قائلاً: بالطبع هذا هزل أما الحقيقة فهي كذا وكذا.. وفي النهاية لا تعلم منه ما هو الصدق وما هو الكذب.

أما "عزت الراوي" فقد كان أكثرنا دهاءً وخبثاً.. كان يمتلك إحدى القرى السياحية في البحر الأحمر، ولكن لأنه رجل صاحب مزاج كما يقول، فقد كان يؤجرها لإدارة أجنبية نظير مبلغ من المال وعقد يجدد سنوياً حتى لا يزعج نفسه بموضوع الإدارة ومشاكلها ومشاكل العاملين، ويقضي معظم وقته هناك بحجة الإشراف على المكان، ولكنه هناك "يعيش حياته" كما يقول.. نساء.. خمر.. مخدرات.. كل شيء موجود ومتاح.. كان الكثيرون منا يحسدونه على تلك الحياة.. فقد استطاع على الأقل أن يستمتع بحياته قبل أن يمشي على "ثلاث"..
كان لديه أيضاً يخته الخاص، حتى إذا حدث ما لا يحمد عقباه استطاع أن يغادر

البلد دون الحاجة إلى طائرة أو سفينة.. لم يكن عنده ما يخشاه كما كان يقول، ولكنه كان حريصاً جداً ويؤمن بنظرية الاحتمالات، أي كما يقول: "كل شيء ممكن"، فلماذا يضع نفسه تحت رحمة قانون لا يرحم وخصوصا أنه يحترم القانون في معظم أعماله؟.. كان رجلاً يجمع بين كل صفات الآخرين.. عملي.. يقظ.. يستمتع بحياته دون النظر طبعاً إلى الحلال أو الحرام.. كان يحاول أن يأخذ نصيبه من الحياة دون أن يضيع وقته أو يضع نفسه في مشاكل لا داعي لها.. لا أنكر أن شخصيته قد أعجبتني كثيراً رغم التناقض الكبير بيننا.. من يدري لعل إعجابي به هو ناتج من ذلك التناقض.. هو يستمتع بحياته إلى أقصى درجة وأنا ليس لدي سوى عملي وزوجتي وابنتي.. أليس هذا هو التناقض؟؟؟ لقد فتح لي "فتحي" بابا لم أكن أدري أنه موجود.. صعدت معه السلالم بسرعة متشوقاً لما ينتظرني، ولم أكن أعلم أنه هو نفس الباب الذي سوف يصعد بي أيضاً إلى الهاوية..

10

– أصبحت السهرة التي أقضيها عند "أنكل سام"، أو تلك الرحلات التي أقوم بها إلى البحر الأحمر ومنها إلى قرية "عزت" أو يخته الخاص جزءاً أساسيا من حياتي لا أستطيع الاستغناء عنه.. أصبحت متفتحاً أو بمعنى أدق مهتما لذلك العالم الجديد الذي بدأت أستكشفه بعد أن جاوزت الخمسين من عُمري.. كنت أسمع عن ذلك العالم طبعاً وأعرف أن هناك من يستمتع به في بلدي بل ويغوص فيه، وذلك بحكم التقارير التي كانت تجيء إلى مكتبي أولاً قبل عرضها على الرئيس..

أحيانا كنت أقرأ تلك الأوراق بإمعان محاولاً التأكد مما فيها من معلومات كانت تبدو أحياناً صعبة التصديق.. فذلك الوزير "مثلاً" الذي كان يقال عنه إنه "زير نساء" كنت أعرفه شخصياً وأتحدث معه أحياناً، ويبدو لي من مظهره فعلاً أنه يهتم بالجنس الآخر ويعيش أسعد أيام حياته في صحبتهن.. كنت أعلم أنه لديه أكثر من زوجة، سواء أكان ذلك زواجاً رسمياً أم ذلك الزواج الذي بدأ ينتشر بين الكبار أولاً ثم وجد طريقة بين الصغار وخصوصاً طلاب الجامعة وبعض المدارس الأجنبية.. ذلك الوزير له زوجة أو صديقة أو عشيقة –لا يبدو أن الاسم

يهم كثيراً- في كل محافظة تقريباً حتى في محافظات الصعيد..

الآن وقد جاء الوقت أن أفعل مثله، قلت لنفسي لِمَ لا؟.. إنني أستطيع أن أجرب وأرى إلى ماذا سوف تقودني التجربة.. إنني أمضيت معظم عمري مع امرأة واحدة، صحيح أنها تجسد كل معاني الشرف ولا تستحق مني أن أخونها مع أخرى، إلا أنني قدمت لهذا الوطن الكثير ومن حقي الآن -وخصوصاً أنني أكملت الخمسين ولم يتبق الكثير من قطار العمر- أن أستمتع بما تبقى لي من أيام.. لن أبخس تلك الزوجة حقها.. سوف تظل دائماً معي.. وجهي المشرف في كل المناسبات، والحضن الآمن الذي ألجأ إليه دون أن أشعر بعذاب ضمير.. أما الأخريات فسوف يكنّ فقط للمتعة السريعة والتي بالطبع سوف تجدد من نشاطي وتجعلني أقدّم أكثر وأكثر للوطن..الآن أستطيع أن أدفع الثمن ولن أبحث كثيراً عمن يمكن أن يوفر لي ما أريد.. بل إن "أنكل سام" قد ألح إلى كثيراً أنه يمكن أن يمدني بالكثير من ملذات الحياة، وكان يستخدم دائماً ذلك الاصطلاح الخاص برجال الأعمال ويقول لي بشكل لا يخلو من فكاهة وإن كان يعني تماما ما يقول: "لدي بضاعة حاضرة، فرز أول".. كل ما على هو أن أوافق.. بفمي أقول "موافق" وسوف تأتي البضاعة إلى.. ولكن أين؟ في سكني الحالي حيث تقيم زوجتي وابنتي؟.. وبالطبع هذا مستحيل.. في مزرعتي حيث يقيم أخي وزوجته وأولاده؟ هذا أيضاً شبه مستحيل فالجميع يعرفني هناك.. في ذلك الفندق الخاص بـ "عزت" على البحر؟.. يبدو أن المكان غير آمن، فالفندق مليء بالنزلاء وكذلك بالعمال المصريين، ثم تذكرت ذلك اليخت الخاص بعزت.. إنني سبق أن تنزهت

به، وهو صحيح صغير وإنما يفي بالغرض، ويمكن أن يستخدم ليلاً ولن يشعر بي أحد وخصوصاً أنه يرسو في منطقة شبه مظلمة ولا توجد عليها حراسة خاصة، وهذا هو المطلوب..

في إحدى سهرات الشلة وبعد أن اقتربت اللحظات الأخيرة على الانتهاء، اقتربت من فتحي وقلت له بطريقة تجمع بين الجد والهزل:

- ماذا عن البضاعة.. أما زالت حاضرة؟

نظر إلى ليتأكد من جدية كلامي أو ليزيل آثار الشرب التي كانت بادية عليه وقال:

- تقصد البضاعة الخاصة بالحريم؟

نظرت إليه ليخفض من صوته حتى لا يدرك أحد من الآخرين فيما نتحدث.. كنت لا أنسى أبداً حساسية منصبي، و"سمعتي" شيء مهم جداً في عملي.. فهم فتحي مقصدي ثم أخذني من ذراعي ودخلنا إلى حجرة جانبية من باب الحديقة كان يستخدمها كمكتب أحيانا..

جلس على كرسي كبير وجلست أمامه ثم قال دون أن يدخل في مقدمات:

- تريد بضاعة حاضرة.. فرز أول طبعا..

- طبعاً فرز أول.. هل لديك رأي آخر؟

ضحك بصوت عالٍ وأردف قائلاً:

- ما مواصفاتك الأخرى؟

- أية مواصفات؟؟ لا أفهم مقصدك!!

- هناك فرز أول مستورد، وهناك فرز أول محلي، وهناك فرز أول لم يستخدم بعد، وفرز أول تمت تجربته وبحالة ممتازة.. وهناك..

قاطعته قائلاً:

- ما هذا كله؟.. أنا لا أفهم شيئاً مما تقول..

- أفهمك.. تريد فتاة مصرية لم تعاشر أحداً من قبل، أم فتاة لها تجربة؟؟.. أم تريد فتاة أجنبية؟.. وهل تريدها بصفة دائمة بمعنى أن تأتي إليك دائماً في الوقت والمكان الذي تحدده، أما أنك تريد فتاة لمرة واحدة فقط؟..

نظرت إليه وأنا أحاول أن أفهم معني كلماته، ويبدو أنه أراد أن يزيح عني تلك الحيرة فقال:

- عموماً هذه أول مرة لك.. اترك لي هذا الموضوع.. سوف أختار لك ما يتفق مع حالتك، ولكن متى وأين؟..

- بصراحة لا أدري، فليس لدي مكان خاص بذلك..

- هذه ليست مشكلة، الأماكن كثيرة.. تريد أن تكون داخل البلاد أم خارجها؟..

- بالطبع هنا في مصر.. ليس لدي وقت للسفر..

سكت قليلاً ثم أردف قائلاً:

- ما رأيك في "يخت" عزت بالغردقة؟؟

- أعتقد أنه مكان مناسب، ولكني لا أدري هل أستطيع أن أطلب ذلك من عزت أم لا؟..

- اترك هذا الأمر لي.. سوف أخبره بأن صديقاً لي يريد المكان وأخبره بالتوقيت وأنت تعرف العنوان.. ما عليك سوى أن تذهب وتجد الفتاة و"المزة" بانتظارك..

- المزة.. أنا لا أشرب.. أنت تعلم ذلك..

- من قال لك إنك يجب أن تشرب؟.. من الجائز أنها هي التي تريد أن تشرب حتى تستطيع أن تقوم بواجبها.. وعموماً لن أحسابك على المزة، سوف يكون الحساب على البنت فقط. قال ذلك وهو يضحك بصوت عال حتى إنني خفت أن يأتي أحد من الخدم والأصدقاء وينصت إلى ما نقول..

- صحيح، بمناسبة الحساب.. هل أحاسبها أنا مباشرة.. أم تقوم أنت بذلك ونتحاسب نحن فيما بعد؟.. إنني لم أفعل ذلك من قبل..

- أول مرة على حساب صاحب المحل.. أقصد على حسابي.. وفي المرات القادمة سوف تحاسب أنت..

- كلا.. يجب أن أدفع ويمكن أن أدفع مقدما أيضاً.. الخير كثير والحمد لله..

- عيب.. هذا لا يصح.. أنت تهينني الآن.. هذا لا يصح.. المرة الأولى أنت ضيفي.. لا يصح أبداً.. ولكن إذا استطاعت البنت أن ترضيك فيمكن أن تعطيها إكرامية..

- أنا موافق.. وعموما لا أدري هل سوف تكون هناك مرات أخرى أم لا.. من يدري؟..

- اطمئن.. سوف تكون هناك مرات أخرى.. وسوف أتأكد من الصنف الذي سوف يصلك وأختبره بنفسي حتى أتأكد من جودة البضاعة..

- تختبره بنفسك؟ ماذا تقصد؟

ضحك "فتحي" عاليا مرة ثانية حتى إنني شعرت أنه قد أيقظ زوجتي في المنزل المجاور:

- لا.. ليس كما فهمت.. أقصد أنني سوف أجلس معها بنفسي وأعطيها التعليمات بنفسي حتى تتصرف بالشكل اللائق وترضي مزاجك دون أن تزعجك..

- شكراً.. ولكني متى ذلك؟..

- في الميعاد الذي تريده.. الليلة إذا كنت تريد..

- لا طبعا.. ولكني مسافر في مهمة غداً إلى البحر الأحمر وسوف أكون قريباً من المكان ويمكن أن أذهب إلى هناك بسهولة..

- تمام.. سوف تكون الفتاة هناك.. جاهزة ومستعدة من الساعة السادسة مساءً وللمدة التي تريدها.. لن تغادر اليخت إلا عندما تتصل بي أنت وتقول إن المهمة انتهت.. يوم.. يومين.. أسبوع.. أسبوعين..

- أسبوع؟!! أنا ليس لدي وقت كما تعلم.. هي ليلة واحدة أو اثنتان بالكثير.. ثم يجب أن أعود..

- اتفقنا.. لنخرج الآن ونكمل السهرة مع الأصدقاء حتى لا يشعروا بغيابنا ويبدءوا في السؤال..

قال ذلك ثم رفع الكأس الذي كان ما زال في يده ونظر إلى قائلاً:

- في صحة النسوان.. أقصد الحريم..

نظرت إليه ولم أدرِ ماذا أقول، إلا أنني شاركته الضحك ونحن في طريقنا إلى باقي أفراد الشلة..

* * *

طلبت من سائقي أن يذهب إلى فندق حددته أنا له، ويمضي ليلته هناك ويكون دائماً بجواره التليفون، حتى إذا ما احتجته في أية لحظة يمكن أن يأتي إلي.. كنت أخشى من تلك المغامرة وتخيلت أنني قد لا أستطيع حتى أن أبدأها وأقرر في أية لحظة أن أتراجع، ولذا كان يجب أن تكون السيارة والسائق جاهزين للتحرك في أية لحظة..

اقتربت من اليخت ولم تكن هناك مراكب أخرى بجواره.. كان يقف وحيداً بالمرسي بينما "السقالة" الخاصة به قد وضعت في مكانها وبجوارها إضاءة خفيفة، وكذلك كان يبدو مضاءً بالداخل، إلا أن ستائره المهولة حجبت معظم الأنوار ولم تترك سوى بقاياها لتدل على أن هناك حياة بداخله..

مشيت بحرص على السقالة ثم صعدت على مؤخرته، وقبل أن أهبط السلالم المؤدية إلى الحجرة الوحيدة بداخله نظرت خلفي جيداً في كل الاتجاهات، وتأكدت أن لا أحد يتبعني.. هبطت السلالم ببطء، وقبل أن أقف على الباب وجدته يُفتح بهدوء دون أن أتبين من بالداخل، حيث إنها توارت خلف الباب عند فتحه، وعندما أصبحت بالداخل تماما وقبل أن أستدير إليها، وجدتها هي وقد أغلقت الباب بسرعة وظهرت أمامي، فغطى نورها على كل مظاهر الإضاءة

بالمكان، ومن حسنها الذي شدني وملامح جسدها التي كانت تبدو واضحة من ملابسها الشفافة، وجدتني أهبط على الكرسي الوحيد في منتصف الغرفة وأنظر إليها كما لو أنني قد أصابني مس، ولم لا وأنا أرى نفسي الآن وحيداً مع إحدى بنات الجان؟..

تركتني ألتقط أنفاسي.. وأحضرت لي كوبا من الماء وآخر من العصير من أحد أركان الغرفة، حيث لاحظت وجود كثير من زجاجات الخمر والبيرة التي لم تفتح بعد.. تناولت هي كأساً من الخمر واقتربت لتجلس على حافة السرير الذي بيمين الغرفة حتى أصبحت جالسة في مواجهتي تماما.. نظرت إليها حتى أتأكد أنني لست واهما وأنها بشر مثلنا وليست جنية جاءت لكي تخطفني إلى عالمها الخاص بعد أن أدركت معاناتي في هذا العالم، وأنني أصبحت الآن في حاجة ماسة إلى الراحة ولكن في عالم آخر..

بعد أن تأكدت من أنني أصبحت في حالة تسمح لي بالكلام، رفعت كأسها ونظرت إلي قائلة:

- في صحتك؟

نظرت إليها مرة أخرى مدققا هذه المرة في ملامح وجهها حتى أتأكد أنني في عالم الواقع وأنني ما زلت على الأرض، رغم وجودي في اليخت على الماء.. كان شعرها خليطاً من اللون البني الداكن واللون الأحمر الذي يميل إلى لون الحناء الغامق، وقد تركته يتطاير مع هواء المروحة الوحيدة الموجودة في المكان والتي كانت موجودة خلف كتفها بحيث تسمح للهواء أن يصل إلى رأسها من الخلف

وإلى وجهي في نفس الوقت.. كانت هناك سلسلة دقيقة وإن بدت طويلة أكثر من اللازم من الفضة تتدلى من عنقها، وتنتهي بشيء يشبه النجمة وقد غاص معظمها بجمالها الأخاذ، ولذلك فقد غطت كتفيها بشال رقيق من الحرير الفضي فغطى جزءا من كتفيها وجانبي صدرها وإن كانت معظم تفاصيله ظلت واضحة رغم قلة الإضاءة في المكان..

رفعت كأساً من العصير كانت قد صبته لي وقالت مازحة وقد زال عني الكثير من الإحساس بالغربة لوجودي في هذا المكان وهذا الموقف لأول مرة:

– في صحتك.. في صحة الحلوين..

– هل تجدني حلوة؟

نظرت إليها لأتأكد مما قالت وابتغت:

– ماذا تقولين؟!. لم أسمع جيداً كلامك..

– هل تجدني فعلاً حلوة أم أنها مجاملة رقيقة منك يستدعيها الموقف الذي نحن فيه؟..

– كيف تجدين أنت نفسك؟

– أنا.. يعني معقولة.. وهذه الملابس التي أرتديها الآن تزيد من جمالي بكل تأكيد أو تجعلني بمعنى أدق أبدو مثيرة بالنسبة لك..

– طبعا.. أنت حلوة ومثيرة وجذابة.. لا أدري هل هناك أجمل منك أم لا.. أما أنا شخصيا فلم أرَ أجمل من ذلك، ولم أتخيل أن هناك نساء بهذا الجمال سوى ما رأيته في الأفلام عندما كان وقتي يسمح بذلك..

- طبعاً هناك أجمل مني بكثير.. وسوف ترى بعضهن فيما بعد.. ولكن يبدو أنني الأولى فلهذا تراني بهذه الدرجة من الحسن والإثارة..

- من أدراك أنني سوف أرى غيرك حتى أقارن بينك وبينهن؟..

- لا أدري، ولكن هذا شيء من صفات الرجال.. فأنتم تحبون التغيير ولا تصبرون على صنف واحد مهما كان طعمه..

- يبدو أن لك معرفة بأصناف الرجال مع أنك صغيرة السن.

- صحيح أنني لم أكمل العشرين بعد، ولكني مغرمة بالقراءة ولي حياة أخرى طبيعية كفتاة أدرس العلوم السياسية في إحدى الجامعات..

- تدرسين السياسة!!

نظرت إليها مندهشاً لا أكاد أصدق نفسي.. أنا رجل السياسة المحترف تكون أولى مغامراتي العاطفية مع فتاة تدرس السياسة.. هذا فعلاً شيء عجيب..

- نعم أدرس السياسة وأقرأ في الأدب والاقتصاد..

- أهذا معقول؟ ولكن ما الذي..

توقفت عند هذا الحد من الكلام ولم أرد أن أسترسل حتى لا أجعلها تخوض في مواضيع هي بالطبع لا تريد أن تتحدث فيها..

- أفهم ما تعنيه.. ما الذي يجعلني أمارس هذه المهنة والتي لا تتفق إطلاقاً مع ما أدرسه أو مع حياتي الجامعية.. عموماً هذا موضوع يمكن أن نتحدث فيه فيما بعد، لأنه يحتاج وقتا طويلا ولا أعتقد أنك هنا لتستمع إلى قصة حياتي حتى ولو كانت شيقة..

- نعم معك حق.. فلكل منا حياته الخاصة التي لا يود أن يطلع عليها أحد، وحياته العامة التي يعرفها معظم الناس.. أفهم ذلك..

عندما استيقظت في الصباح وجدتها جالسة أمام عجلة قيادة اليخت وهي ترتدي بيجامة أقرب إلى لون الورد قبل أن يكتمل نضجه، اختلط فيها اللون الأحمر بالأبيض، فلا تعرف أين يبدأ الأول أو ينتهي الآخر.. وضعت على عينيها نظارة شمسية سميكة غطت معظم وجهها، مع أن الشمس كانت ما تزال تحبو بعيداً في الأفق..

نظرت إليها مدققا محاولاً أن أدرك الفرق بين فتاة اليوم التي تبدو وكأنها مساعد قبطان على وشك الإبحار، وفتاة الأمس اللعوب التي جعلتني أدرك أنني أمارس الحب لأول مرة في حياتي..

- صباح الخير يا أستاذ.. يا أستاذ.. منصور..

- منصور؟ من منصور هذا؟

- لا أعرف أحد بهذا الاسم، ولكن يجب أن يكون لك اسم أناديك به، وطبعا لن أسألك عن اسمك الحقيقي فهذا لا يجوز، وحتى لو سألتك فلن تخبرني به، فيجب أن يكون لك اسم، كما أن اسمي الحركي "ليالي" فاسمك الحركي "منصور".. أقصد الأستاذ منصور..

ضحكت على طريقة اختيارها لاسمي واستخدامها لهذا المصطلح "الحركي"..

- يبدو أن دراستك للسياسة تظهر في طريقة حديثك أحياناً..

– نعم، هذا أمر ليس لي فيه إرادة.. فأنا لا أستطيع أن أفصل شخصيتي الحقيقية عن شخصيتي الوهمية في كل الأوقات..

– أياً منهما الشخصية الحقيقية الآن؟

نظرت إلى ورأيت لأول مرة على وجهها علامات الحزن الممزوج بالغضب وإن كانت حاولت أن تخفيه بابتسامه مصطنعة وقالت:

– سوف أترك لك أن تحكم أنت عليّ.. وسوف أرضى بحكمك، فأنت من الواضح رجل قد صنعته الأيام..

– فعلاً يا "ليالي".. هذا أبلغ تعبير عني، لم أسمعه من قبل.. ولكنه ينطبق علي تماما، فالأيام هي التي جعلت مني ذلك الرجل الذي..

سكت حتى لا اضطر إلى الحديث عن نفسي وعن عملي، فهذا خارج نطاق المناقشة..

قامت من مكانها واستدارت حتى تهبط إلى الغرفة وتحضر لنا شيئاً للإفطار كان يبدو جاهز أعلى المنضدة، وقد لمحته قبل أن أصعد إلى أعلى اليخت..

ولكنها قبل أن تهبط سألتني..

– تريد الإفطار هنا في الهواء الطلق أم تحت في الغرفة؟

اقتربت منها ثم نزلت إحدى درجات السلم فأصبحت في مستواي تماما، وأصبح وجهي مقابل وجهها، فنظرت إليها وأنا أحيطها بذراعي دون أن أضمها إلي وقلت:

– هنا أعلى في مؤخرة اليخت، ولكني لن أتذوق شيئاً حتى أتأكد أنك

لست غاضبة مني..

- غاضبة لماذا؟

- لما قلته عن شخصيتك الحقيقية والوهمية.. لم أقصد أن أجرح مشاعرك..أرجوك سامحيني..

نظرت إلي وقد امتلأت عيناها فجأة بالدموع واقتربت مني، فأخذتها بقوة إلى صدري وأنا أربّت على كتفيها وقد أطلقت لمشاعرها العنان، فشعرت بجسدها وهو ينتفض بين ذراعي ودموعها وهي تسيل على عنقي، فتركتها تبكي كما تريد وإن كنت قد خففت من قبضتي عليها وأنا أشعر بالذنب تجاه تلك المخلوقة الرقيقة والتي يبدو أنه لا ذنب لها في تلك المهنة التي لم تردها على الإطلاق..

لا هي ولا أية امرأة أخرى..

* * *

دخلت المكتب لأجد مساعدي في انتظاري وبيده بعض الأوراق يقرؤها بعناية.. نهض عندما رآني ولكني أشرت إليه بالجلوس.. فجلس وظل صامتاً حتى أخرجت مفكرتي ودونت بعض الملاحظات ونظرت إليه:

- خير.. وجودك في مكتبي وليس في مكتبك يعني أن هناك أمراً ما..

- خير يا فندم.. ولكني في حاجة إلى خدمة شخصية، ولذا فضلت أن أحدثك شخصياً وليس بالتليفون..

- اعتبر الموضوع منتهيا دون أن أعرف ما هو..

- شكراً يا فندم.. طول عمرك تساعد الكل.. ابني مسافر إلى إنجلترا

للدراسة، وأريده أن يكون في مكان آمن بعيد عن المشاكل.. الحريم والمخدرات والذي منه..

- خلاص.. سوف أجد له مكانا في نفس المبنى الذي يقيم فيه ابن الرئيس.. فأنت تعلم أنه يدرس هناك، وهو يقيم في مبنى تحت إدارة السفارة.. سوف أتصل بهم الآن وأعطيك النتيجة..

- شكراً يا فندم.. هذه فعلاً أكبر خدمة يمكن لسيادتك أن تؤديها لي..

في خلال خمس دقائق كنت قد اتصلت بالسفير في لندن وطلبت منه تدبير مكان لـ "مجدي" ابن مساعدي في المكان.. ووعد بتحقيق ذلك وأن المكان سوف يكون متاحاً من أول يوم في الشهر القادم..

نهض مساعدي وهو يشكرني ويثني علي كثيراً وعلى أفضالي، ولكنه قبل أن يغادر مكتبي طلبت منه أن يجلس، فأنا أريده لأمر هام.. جلس العميد "حافظ" مرة ثانية وانتظرني حتى انتهيت من إعداد بعض الأوراق والتي بدا من لونها أنها سوف تعرض على الرئيس..

- حافظ.. أريد منك خدمة شخصية..

- يا فندم سيادتك تأمر.. أمعقول أن تطلب خدمة.. كلنا في خدمتك..

- هذا الأمر ليس فيه كلنا ولا يتعلق بالعمل هنا، ولكنه موضوع شخصي لا يتعدى الحديث فيه سواي وسواك.. واضح..

- طبعاً واضح يا فندم..

- أريد مكانا يصلح استراحة لي أقضي فيها يوماً أو حتى بضع ساعات في

الأسبوع، ويكون على أطراف المدينة في إحدى المدن الجديدة في منطقة تكاد تكون خالية من السكان.. على أن يجهز هذا المكان بكل وسائل الراحة وما يلزم الإقامة فيه دون الحاجة لشراء شيء طوال فترة الإقامة مهما طالت..

– لا توجد مشكلة.. لدينا أكثر من مكان يتبع الرئاسة ولا يستخدم نهائياً، ويمكن لسيادتك أن تختار أحدها..

– لا أريد مكانا يتبع الرئاسة.. أريد مكانا جديداً.. بأوراق جديدة لا علاقة لها بالرئاسة..

– في خلال أسبوع سوف يكون المكان جاهزا وبه كل مستلزمات الإقامة وسوف أكتبه باسم.. باسم سيادتك؟

– لا.. لا يمكن أن يكتب باسمي الآن.. اجعله باسمك حتى أطلب منك أن تجعله باسمي.. وكل المصاريف سوف تأخذها مني شخصيا وليس من خزينة المكتب.. واضح..

– واضح يا فندم..

– أريد أيضاً أن يكون هناك خادم مقيم بالمكان بصفة مستمرة وله حجرته الخاصة، ويفضل أن يكون كبير السن ولا يعرفني شخصياً ولا يسأل عن أي شيء يراه أمامه..

– هذا أمر سهل يا فندم.. لا توجد مشكلة..

– أليس لديك أسئلة بخصوص المكان.. لماذا أريده فعلاً.. هل هو للراحة أم لشيء آخر؟

– يا فندم.. سيادتك تعرفني جيداً.. هذا شيء لا يخصني.. ولا يصح أن أسأل عن ذلك..

– عموما أنا عارف مدى إخلاصك لي، وهذه الفيلا الصغيرة سوف تكون مكانا أستريح فيه من كل شيء، وقد أتزوج فيها من فتاة صغيرة تنسيني بعضا من همومي..

– يا فندم، هذا حقك ولا أحد يمكن أن ينكر عليك ذلك وإن كنت أفضل أن يظل طي الكتمان..

– من أجل هذا تحدثت معك فيه لثقتي في أن الموضوع سوف يظل بيننا ولن يتعدى جدران هذه الحجرة.. صحيح.. يمكن أن تزود المكان الجديد ببعض المشروبات الكحولية؛ لأن زوجتي الجديدة يبدو أنها "صاحبة مزاج"..

– حاضر يا فندم.. كل شيء سيكون جاهزا في أقل من أسبوع.. وربنا يحفظنا من عيون الناس وألسنتهم..

* * *

عندما التقيت بالشلة وكنت قد امتنعت عنها لفترة تقرب من الشهرين بحكم ظروف الشغل.. وجدت الجميع يرحب بي بشكل لافت للنظر كما لو أننا لم نلتق منذ سنوات.. سعدت فعلاً بترحيبهم وأخذنا نتحدث في كل شيء تقريباً بما في ذلك أحوال البلد، دون الدخول في التفاصيل السياسية، فهذا لا يتماشى مع طبيعة عملي..

بعد الغداء طلب مني "فتحي" أن نجلس على انفراد في مكتبه، فهو يريدني

لأمر هام.. دخلنا نفس الحجرة التي جلسنا فيها عندما تحدثت معه لأول مرة عن البضاعة الخاصة بي.. أقصد الحريم.. جلس فتحي في نفس المكان وجلست أمامه، وبدأ الحديث مباشرة قائلاً:

– يا "يحيى" باشا، لدي صديق أمريكي، وهو فعلاً رجل من أصحاب الملايين ويريدني أن أشاركه في بعض من مشاريعه..

– هذا شيء عظيم.. ما المطلوب مني أنا؟

– المطلوب منك أن تسهل لنا عملية استخراج الأوراق الخاصة بالمشروع وبملكية الأرض التي سيقام عليها المشروع، وتسهل لنا إخراج بعض المعدات من الجمارك..

– كل هذا مطلوب مني؟ ولكن هذا ليس مجال عملي..

– نعم أعلم ذلك.. المطلوب من سيادتك مجرد مكالمة تليفونية لبعض المسئولين حتى تسهل علينا الإجراءات الروتينية فقط..

– هذه ليست مشكلة، ولكن بالطبع لن يكون هناك شيء خارج القانون.. فهذا بالطبع لا أسمح به..

– بالطبع لا شيء خارج القانون.. كل شيء سوف يتم طبقا للقانون المصري طالما أنه سوف يتم على أرض مصرية.. نريد فقط أن نسهل الإجراءات، وبدلاً من أن نستهلك الوقت في إمضاءات روتينية قد تجعل الرجل يهرب من البلاد قبل أن يأتي إليها بأمواله، نجعله يفكر في جلب مزيد من الأموال لاستثمارها.. أي أنك تعمل لمصلحة البلد وليس العكس كما قد يبدو أحياناً من كلامي..

– أعطني أسماء المسئولين وسوف أقوم أنا بالاتصال بهم من الغد إذا أردت..

لم أكد أكمل كلامي حتى أخذ "فتحي" ورقة من على مكتبه، ما إن نظرت إليها حتى ضحكت وقلت:

– إن معظم أسماء الوزراء مسجلة على الورقة.

– ما باليد حيلة.. فعمل مشروع واحد يستلزم موافقة وزارات كثيرة مثل الدفاع والثقافة والداخلية والبيئة وخلافه..

– ما اسم المشروع واسم شريكك حتى أعلم ما الذي أتحدث عنه بالضبط؟

أخذ فتحي ورقة أخرى من على المكتب مكتوب بعناية فيها كل المعلومات عن المشروع، والذي يبدو من قراءته السريعة أنه خاص بالاستثمار في بعض مناطق الصحراء الغربية ومناطق سيناء، وذلك للبحث عن المعادن بما في ذلك البترول والغاز الطبيعي..

– وكما ترى يا باشا الرجل سوف يستثمر ملايين الدولارات في البحث والتنقيب، وبالتالي يجب أن يطمئن أن أمواله لن تذهب مع الريح، إذا وجد شيئاً فهو يريد الضمانات الكافية من الحكومة المصرية..

– أعتقد أن هذا من حقه طالما أنه سوف يراعي متطلبات البحث والتنقيب.. وعموما أعدك بأني سوف أقوم بعمل التسهيلات المكنة وتعدني بأن تكون أنت وصاحبك جادين في هذا، فأنا لا يمكن أن أخاطر باسمي ومركزي في إعطاء ضمانات لمشروعات وهمية..

- لا يمكن أبداً.. وأنا أيضاً لن أخاطر باستثمار أموالي من أجل أيّ كان في مشروعات وهمية.. صحيح.. فلنترك العمل جانبا.. نحن في سهرة ترويح عن النفس.. اعذرني للحديث عن العمل لبعض الوقت.. ألم تفتقد "ليالي"؟

نظرت إلى فتحي وقد ذهلت لسؤاله الذي بدا لي صريحا أكثر من اللازم ويتعلق بحياتي الخاصة، إلا أنه تابع حديثه وهو يبتسم:

- بصراحة لقد سألت عنك أكثر من مرة.. رأيتها مرة في سهرة محترمة فبادرتني قائلة: ألا ترى الأستاذ منصور؟.. أعلم أنه صديقك.. ولما بدا علي أنني لا أفهم ما تعنيه.. أعطتني بعض التفاصيل عن مكان السهرة وميعادها، فعلمت أنها تقصدك أنت بالطبع.. قلت لها إنني لا أعرفك جيداً ولكني لو التقيت بك مصادفة فسوف أبلغك الرسالة.. لقد وعدتها بذلك.. وهاأنذا أفي بوعدي.. يبدو لي أنها فتاة مثقفة ومن أسرة محترمة..

- من أسرة محترمة وتزاول هذه المهنة.. كيف؟

- يا "يحيى" باشا.. الاحترام أو عدمه ليس له علاقة بالمهنة أو حتى بالأسرة ولكن بآداب المهنة.. بمعنى لو أنت "لص" مثلاً ولكنك تحترم آداب مهنة السرقة، بمعنى أنك لا تسرق المحتاج أو تسرق زميلاً لك مثلاً فأنت تعتبر في هذه الحالة "لصا محترما"..

- أنت تذكرني براويات "أرسين لوبين" التي كنا نقرؤها ونحن صغار "اللص الشريف"..

- هذا ما أقصده.. قد تجد لصا شريفا أو عاهرة محترمة، مع أنك قد تجد

وزيراً مرتشياً أو مسئولاً قواداً.. يؤسفني أن أستخدم تلك الألفاظ ولكن هذا ما تعلمته في الحياة بعد أن تخرجت من المدرسة والجامعة..

- عموماً هذا صعب بالنسبة لرجل عسكري مثلي أن يتقبل ذلك، وإن كنت قد قرأت عن ذلك في كثير من الروايات..

- عموما أنا أبلغتك رسالة "ليالي" وطلبت مني أن تتصل بها تليفونيا إذا سمحت ظروفك بذلك، وإذا لم تتصل فهي سوف تفهم وتقدر..

- شكراً على الرسالة.. وأنا يجب أن أذهب فلدي الكثير من العمل لأنجزه في المنزل قبل أن تشرق الشمس، وأرجو أن تعتذر للأصدقاء لأني لن أستطيع أن أكمل السهرة معهم..

* * *

ما إن دخلت الفراش حتى شعرت "علياء" بوجودي، ولكنها تظاهرت بالنوم حتى لا أضطر إلى الحديث معها، وقد يسوق الحديث أشياء أخرى قد لا أكون مستعد لها..

اقتربت أنا منها حتى أشعرها بأنني ما زلت يقظاً فقد تتحدث معي ولا تدعي النوم.. أخذتني بين ذراعيها دون أن تقول كلمة واحدة مع أنها كانت يقظة.. حاولت أن أغريها بالحديث تارة عن ابنتنا وتارة عن مشاريعنا عندما أنهي خدمتي ويصبح لدي وقت فعلي أقضيه معها وأعوضها عما فات، إلا أنني لم أنجح. حاولت أن أشعرها برغبتي فيها وحاجتي إليها إلا أنني لم أفلح أيضا.. لا أدري ما الذي حدث بيني وبينها.. منذ تلك السهرة وأنا أشعر بأن هناك حجابا

بيننا.. حجابا ظهر فجأة فجعل أحاديثنا قليلة ورغبتنا في الاستمتاع ببعضنا بعضا أقل.. لا أذكر أنني فعلت معها ما يشعرها بأنني قد أقمت علاقة مع امرأة أخرى أو أنني لا أريدها ثانية بعد ما رأيت مع تلك الفتاة في تلك الليلة.. بالعكس كنت حريصاً جدا على أن أتواجد بالمنزل كلما سنحت الظروف، أو أحادثها تليفونيا أو أقترب منها عندما نأوي إلى الفراش، أما هي فقد بدت أقل رغبة في كل شيء، وإن لم تتوان أبدا عن إعداد كل ما يتعلق بي بالمنزل والإشراف بنفسها على كل شئوني الخاصة.

قبل أن أعود إلى المنزل في ذلك اليوم كنت قد أزلت من على جسدي كل آثار تلك الليلة، وحتى عطر تلك الفتاة حرصت على ألا تكون له آية آثار على ملابسي.. لا أدري هل هي الحاسة السادسة كما يقولون والتي تجعل المرأة تشعر بخيانة زوجها حتى ولو كانت مجرد فكرة في رأسه.. لا أدري فعلاً.. قررت ألا ألح عليها في شيء وأظل على حسن معاملتي لها فهذا أقل مما تستحق.. في تلك الليلة شعرت برغبة شديدة في أن أرى "ليالي".. هل طلبت فعلاً من "فتحي" ذلك، أقصد أن أحادثها تليفونيا؟.. لقد سجلت رقم تليفونها في أجندة خاصة ولكن تحت اسم آخر.. اسم رجل طبعا.. هل فعلاً تريد أن تراني ثانية؟.. لماذا؟ لا أعتقد أنني ذلك الرجل الذي أرضي أنوثتها بالشكل الذي لن يجعلها تنسى تلك الليلة.. كل ما أذكره أنني كنت رقيقاً معها.. لم أعاملها على أنها عاهرة بل على أنها امرأة أو بمعنى أدق فتاة اضطرتها ظروف ما إلى امتهان أول مهنة في تاريخ البشرية كما يقولون.. هل هي تلك اللحظات التي تركت فيها دموعها تنسال دون

رقيب وهي بين ذراعي دون أن أحاول أن أتحسس أجزاء جسدها، فشعرت بأنها امرأة ضعيفة بين يدي رجل وليس بين مخالب ذئب؟.. هل لأنني عندما ودعتها أخذتها بين ذراعي كمخلوق رقيق حريصاً على ألا أحطمه قبل أن أتركه؟.. لقد فكرت في تلك الليلة كثيراً في أن أعطيها شيئاً من المال.. لقد أخبرني فتحي بأنني يمكن أن أفعل ذلك ولكني تراجعت في آخر لحظة حتى لا أشعرها بأنها سلعة لها ثمن.. صحيح أنها سوف تقبض الثمن من "فتحي" أو من آخر، فهي لا تعمل مجانا وهذه مهنة لا يمكن أن يؤديها الإنسان بلا أجر أو "لوجه الله" كما نقول، فهذا إن صح في كل المهن فلا يمكن أن يصح في تلك المهنة..

حاولت أن أنام ولكن لم أستطع.. نهضت وأنا موزع التفكير بين "علياء" التي أصبحت تزهد في، وبين "ليالي" التي يبدو أنها لم تنسني لسبب لا أعلمه أنا حتى الآن..

ذهبت إلى المكتب مبكراً عن كل يوم.. لم أجد أحدا سوى طاقم الحراسة الليلي والذي لم يدهش عندما رآني، فأنا لم تكن لي مواعيد محددة.. فيمكن أن أتواجد في أية لحظة..

دخلت الغرفة الخاصة بي ولم تكن لدي رغبة في فتح أية ملفات.. تناولت فنجانا من القهوة المعدة دائماً على مكتبي، وأخذت سيجاراً فاخراً كنت قد تلقيته هدية فتركته على المكتب للضيوف الذين يرغبون في ذلك.. استلقيت على الكنبة المريحة التي في نهاية الغرفة خلف الحاجز الخشبي، وفتحت النافذة التي على يميني مستمتعا برؤية سحب الدخان وهي تغادر الغرفة مع آخر خيوط الليل

حيث تصحبها إلى حيث قدر للاثنين أن يذهبا.. ومع خيوط الفجر الأولى بدا لي جمال السماء وهي تستعد لمولد يوم جديد.. لا أدري كم استغرق مني ذلك.. إلا أنني ودون أن أتبين جيداً لما كنت أقوم به، وجدتني أنهض وأتناول تلك المفكرة الخاصة وأبحث عن اسم ليالي "الوهمي"، وأضغط على أرقام التليفون وأنا أنظر إلى ساعة الحائط أمامي فأجدها تجاوزت السادسة بقليل، إلا أنني أكملت الأرقام وقلت لنفسي لن أخسر شيئاً.. أنا اسمي منصور.. فسوف أرى إن كانت تتذكرني فعلاً أم أنني لست سوى أحد العملاء في حياتها.. انتظرت فترة طويلة ثم سمعت صوتها وهي تغالب النوم: ألو؟ من؟..

– أنا.. أنا منصور

وفجأة وجدتها تصيح وهي لا تكاد تصدق وقد امتزجت الفرحة بدموعها وهي تقول..

– معقول؟.. معقول؟.. أين أنت؟.. حرام عليك.. حرام عليك..

11

قبل أن أغادر مكتبي حوالي الخامسة وجدت السكرتير الخاص بي يحول لي مكالمة من أخي محمود.. كنت قد تركت له إدارة أرضي وكل ما يتعلق بالمزرعة، ولم يعد لدي وقت حتى للذهاب هناك إلا في أيام الأعياد حيث أقضي يوماً أو اثنين مع زوجتي وابنتي.. أما أيام الإجازات الأخرى -إذا أتيح لي أن أحصل عليها- فإني أقضيها مع أفراد الشلة أو مع أسرتي في المنزل وإن كان معظم وقتي في المنزل هو في غرفة المكتب والتي لا يسمح لأحد بدخولها -إلا زوجتي- إلا بإذني.. كان محمود فعلاً نعم الأخ الأمين على أملاكي..

- أخبارك إيه يا باشا؟.. آسف للإزعاج..
- باشا إيه.. هل نسيت أني أخوك الأصغر..
- طبعا لا.. الأصغر سنا والأكبر مقاماً..
- لو ظللت تتكلم بهذه اللهجة سوف أنهي المكالمة..
- يا أخي أنا أريد أن أخرجك من جو العمل.. أخبارك إيه.. طبعاً مشغول كالعادة.. عموما أنا عندي ضيف في المزرعة يريد أن يراك اليوم..
- ضيف.. أليس له اسم؟؟؟

- طبعا له اسم.. وإن كان طلب مني ألا أخبرك بهذا فهو يريد أن يجعل ذلك مفاجأة لك.. ويقول إنكما لم تلتقيا منذ عام 1967..

- 1967.. يعني منذ ثلاثين عاما.. وهل ما زال يتذكرني؟؟.. وهل سوف أتذكره؟؟..

- هو متأكد من ذلك.. فقد كان لقاؤكما يوما مشهوداً على حد قوله.. وعموما هو ضيفي إلى أن تستطيع الحضور..

- أمرك.. سأمر عليك بعد ساعة.. حتى أراك وأرى الأولاد.. فنحن لم نلتق منذ فترة..

- وأنا بانتظارك.. والضيف رفض طعام الغداء حتى حضورك..

في طريقي إلى المزرعة سرح فكري بعيداً لأيام الحرب أو بمعنى أدق النكسة وتلك التجربة المريرة التي عشتها أنا ومن كان يخدم بالقوات المسلحة في ذلك الوقت.. تذكرت الأحلام التي تكسرت في فترة لم تتجاوز الأسبوع وتجربة الأسْر التي كنت أتمنى أن تنتهي بأسرع ما يمكن حتى لو كانت النهاية هي الموت..

دار بذهني شريط حياتي منذ أيام تخرجي من الكلية الحربية حتى توقف عند "ليالي"، تلك الفتاة التي لم أرَ أجمل منها ولا أعتقد أن هناك أجمل منها ولا حتى زوجتي.. عندما كانت في مثل عمرها، وكذلك لم أرَ أكثر منها غموضاً.. إن من يراها في مكان محترم لا يمكن أن يدور بذهنه أنها قد تمارس تلك المهنة أو أنها أصلا في حاجة إلى مثل ذلك.. إنها يمكن أن تتزوج وتعيش مثل أي زوجة ويكون لديها منزلها وأولادها وحياتها الخاصة المحترمة مثل أية امرأة أخرى..

يكفي جمالها وسحرها لأن يتمناها الكثير من الرجال زوجة لهم بغض النظر عن ماضيها مع التسليم بأن لها ماض، وهي ما زالت في العشرين من عمرها.. لقد حددت لها ميعادا أن أراها اليوم.. سوف تمر عليها سيارة تأخذها من منزلها في وسط البلد حتى تلك الفيلا الصغيرة التي أعدها العميد "حافظ" لي حتى تكون مكانا آمنا أقضي فيه ساعات من الهدوء أو من اللذة بعيداً عن كل الأنظار.. سرحت أيضاً إلى ما سوف يكون بيننا في هذه الليلة.. هل هي فعلاً مسرورة للقائي كما بدا لي في صوتها، أم أن هذا هو جزء من مهنتها أن تجذب إليها "الزبون" بكل الوسائل حتى يصبح أسيراً لها على الدوام؟.. كلما فكرت في أنني لست سوى زبون عندها أشعر بغصة في حلقي تجعلني لا أرى منها سوى فتاة ليل محترفة تجيد لعب دورها، وكان هذا يفسد علي كل أفكاري.. إنها ليست كذلك ويجب أن أعرف حقيقتها حتى لو كانت هذه الليلة هي آخر عهدي بها..

استراح ذهني عند هذه الفكرة وكنت أمُر بالسيارة داخل المزرعة.. طلبت من السائق أن يتوجه بي مباشرة إلى منزل أخي..

بعد نزولي لاحظت وجود سيارة عليها أرقام "سياحة الإسكندرية" فأيقنت أن ضيفي هذا يجب أن يكون من الإسكندرية ويجب أن يكون على معرفة جيدة بي، وإلا كيف عرف بأمر هذه المزرعة والتي لم تكن عندي عام 67 وهو لم يرني منذ ذلك الوقت على حد قول أخي؟.. ولكن لِمَ لم يتصل بي شخصياً؟.. إذا كان استطاع الوصول إلى عنواني بالمزرعة وإلى أخي فكان من السهل له أن يصل إلى رقم تليفوني بالمكتب.. شعرت بأن هناك شيئاً غامضاً بخصوص هذا الضيف..

ما إن شعر "عنتر" بقدومي حتى أسرع إلي وأخذ ينبح ويبدي سروره على طريقته الخاصة بقدومي.. كان من إحدى سلالات كلاب الحراسة القوية، وكنت قد أخذته كهدية من كلية الشرطة وهو ما زال صغيراً، ويبدو أنه أصبح ممتنا لي على الدوام لأني خلصته من أسر المباني الخراسانية وتركته يعيش على حريته في تلك المزرعة الواسعة.. خرج أخي للقائي ورحب بي كعادته بالأحضان والقبلات، وبدأ حديثنا ونحن نقطع الردهة الطويلة المؤدية إلى ما كنا نسميه نحن "الدوار"، وهو بالطبع غرفة الضيوف وإن كانت تتميز باتساعها بالمقارنة بالغرف الأخرى، وتم تأثيثها على النمط الشرقي.. الكراسي المتسعة المرصعة بالصدف، وفي إحدى الأركان كان هناك ما يسمى "بالركن البلدي"، وهو مجرد وسائد مدت على الأرض وأمامها موائد صغيرة تكاد تقترب من الأرض لا تكفي سوى لوضع أكواب الشاي والقهوة وبعض أطباق الفاكهة، وتستبدل بالطبع بالموائد والصواني الكبيرة في حالة تقديم الطعام..

اقتربت من مدخل "الدوار" ثم توقفت وقلت لأخي..

- ألن تعلمني باسم الضيف؟

- لقد وعدته.. أقصد وعدتها ألا أخبرك باسمها وأنت لا تريد لأخيك الأكبر أن يحنث بوعده..

- ماذا.. وعدتها.. أهي امرأة؟..

تركني أخي عند المدخل ودخلت بهدوء ونظرت إلى أقصى الغرفة حيث كانتا جالستين بجوار بعضهما.. تقدمت ببطء محاولاً أن أستكشف تلك "الابنة"

التي تعرفني منذ ثلاثين عاماً، وكانت الإضاءة، كافية حتى أرى وجهها من على بعد وإن كان هذا لم يفدني بشيء.. واصلت تقدمي حتى أصبحت واقفاً أمامها تماماً فنهضتا من مكانيهما وإن لم يك باليسير بالنسبة للأم، فقد بدا عليها أنها تجاوزت السبعين من عمرها وأن لديها مشكلة في الوقوف على قدميها..

– أهلاً وسهلاً بالضيوف..

قلت ذلك وأنا أتفرس وجه الابنة والتي قد بدا أنها قد جاوزت الخمسين بقليل ،وإن كانت تحتفظ بكل محاسن فتاة الثلاثين.

– طبعاً حضرتك نسيتني.. أنا ممكن أقول كلمة واحدة حتى تتذكرني.. ولكني أريد أن تتذكرني أنت دون أن أساعدك.. أنا لا أمتحن ذكاءك فمن يصل إلى منصبك لا يمكن إلا أن يكون في منتهى الذكاء.. ولكني أتمنى أن تتذكر "صديقة" يوم واحد كان من أصعب أيام حياتك..

نظرت إلى وجهها ثانية محاولاً أن أزيل عنه ثلاثين عاما من عمرها حتى أتذكرها عندما كانت في العشرين عندما التقينا على حد قولها.. تفرست في وجهها جيداً ثم قلت لنفسي: إن أصعب أيام حياتي هي أيام الأسر.. وفي تلك الأيام لم أرَ نساءً إلا امرأة واحدة فهي يمكن أن تكون هي.. معقول أن تكون تلك المترجمة التي اصطحبتني لفترة في سيناء حتى سلمتني إلى ضابط الحراسة الإسرائيلي.. معقول.. نعم إنها هي.. لقد قالت لي إنها من مواليد الإسكندرية وإنها تتمنى أن تذهب إلى هناك يوماً ما لترى المدينة التي ولدت فيها ولم تستطع أن تعيش فيها لهجرتها إلى أرض الميعاد مع أمها.. نعم إنها هي، والسيارة التي

بالخارج هي سياحة "الإسكندرية"..

- أنت المترجمة.. يوم القبض علي.. أنت..
- نعم أنا "سارة" وهذه هي "أمي".. راشيل
- أهلاً وسهلاً..

قلت ذلك وأنا أنظر إلى أمها..

نظرت إلى الأم وتحدثت لأول مرة بلهجة مصرية دونما يبدو أن هناك مشكلة لديها في التحدث بلهجتنا:

- أهلاً يا ابني.. لقد حدثتني سارة كثيراً عنك، وهذه هي أولى زياراتي لمصر منذ أن تركتها عام 1948.. صحيح أن الكثير قد تغير ولكني تمنيت ذلك قبل أن أموت والحمد لله تحققت أمنيتي.. بل إني طلبت من سارة أنه إذا قدر لي أن أموت هنا فلأدفن هنا في مقابر اليهود بالإسكندرية، حيث سبقني الكثير من أهلي وأصدقائي إليها..

- يا أمي.. سوف نزور مصر ونعود إلى إسرائيل.. لا داعي للتفكير في الموت الآن.. ويوجد مكان هناك لك في أرض الميعاد..

دخل أخي في هذه اللحظة وكان مصحوباً بالخدم وهم يحملون صواني الطعام ويضعونها في الركن البلدي.. نظرت سارة إلى أصناف الطعام وقالت:

- هل البلد كله مدعوة معنا للغداء.. ما هذه الأصناف كلها؟
- لا يوجد بلد هنا.. في هذه العزبة لا يوجد سوى أنا والباشا..

قال أخي ذلك وهو يشير إلي وأضاف:

– لكن هذا هو الكرم المصري وأنتم ضيوف أخي.. يعني ضيوف مصر..

شكرت أخي كثيراً ودعوته أن يظل معنا ولكنه اعتذر بأدب قائلاً إنه لا يستطيع أن يأكل دون إذن الحكومة.. نظرت سارة إليه دون أن تفهم ما يقصد وقالت:

– إذن الحكومة؟؟

ضحكت وقلت لها:

– إنه يقصد زوجته.. وليست الوزارة..

– وأنت سوف تأكل معنا دون إذن حكومتك؟

– طبعا.. فأنتم ضيوفي وأنا بحكم عملي أتناول الطعام كثيراً مع الضيوف ولدي تصريح دائماً من "حكومتي" بتناول الطعام في أي مكان ومع أي شخص..

– كم أتمنى أن أرى "حكومتك".. أقصد زوجتك.

قالت سارة ذلك وهي تنظر إلى أصناف الطعام وهي حيرى لا تدري بأي صنف تبدأ.. أثناء الطعام تكلمنا في كل شيء إلا السياسة، فهذا عادة خارج نطاق مناقشتي إلا مع الصفوة من أصدقائي والذين يعملون بالسياسة أيضاً مثلي.. وبالطبع كان من المستحيل أن أتحدث مع سارة عن طبيعة عملي رغم معاهدات السلام والاتفاقيات الثنائية سواء أكانت الزراعية أو التجارية أو الصناعية التي بين مصر وإسرائيل.. كان هناك شيء واحد أود أن أعرفه.. كيف توصلت إلي.. وتذكرت اسمي.. وعرفت عنواني بل وأقنعت أخي بأن يتصل بي ويطلب حضوري..

قلت: لأجعل هذه الأسئلة محوراً للحديث ونحن نتناول الشاي.. فالبطبع سوف تجيب على هذه الأسئلة إرضاءً لي إذا كانت تريد أن تراني ثانية فيجب أن تكون لدي إجابة واضحة وصريحة..

أثناء تناول الشاي استأذنت أمها في الخروج للتمشية قليلاً حتى تستطيع أن تهضم تلك الوجبة الدسمة التي تناولتها.. استدعيت أحد "الخفر" وطلبت منه أن يصطحب الأم هامساً في أذنه ألا يتحدث معها عن شيء عني أو عن أخي.. نظرت سارة إلي قائلة:

- تريد أن تعرف سر هذه الزيارة المفاجئة..؟

- بصراحة نعم.. أريد أن أعرف كيف توصلت لي أصلاً.. هل احتفظت باسمي طوال تلك السنين..؟

- بصراحة.. نعم.. بعد ذلك اليوم الذي التقينا فيه في الأسر.. احتفظت باسمك وكل المعلومات التي تخصك.. مكان ميلادك.. عمرك.. تخصصك.. وكل ذلك في ورقة عندي.. طبعاً كان من السهل لي أن أحصل على تلك المعلومات بحكم وظيفتي.. عندما كنا نسير معاً لأول ولآخر مرة في أرض سيناء.. تمنيت أن تظل معي وتعيش معي.. أعجبتني شجاعتك وأنت تجيب على الأسئلة وخصوصاً أنك لا تعرف لك مهنة أخرى سوى الحرب.. رغم أنك الآن قد غيرت مهنتك على ما يبدو..

- كلا.. لم أغير مهنتي.. أنا أحارب في ميدان آخر وبسلاح آخر وأخدم بلدي ولكن بشكل مختلف..

- لا يخالجني شك في أنك تخدم بلدك كمقاتل عنيد ولكن دون ذلك السلاح المتعارف عليه..

- لم تخبريني كيف عثرتِ علي..

- أخبرتك أنني احتفظت بالمعلومات الخاصة بك وظل حلمي بأن نلتقي يتبخر مع الأيام وإن لم ينته تماماً.. إلى أن قررت أمي أن تزور مصر.. فبحثت عن اسمك على (شبكة المعلومات) وكنت واثقة بأني سوف أجده إلا إذا كنت قد غادرت الدنيا لا سمح الله..

- طبعاً.. باقي المعلومات لم يكن من الصعب أن تجديها.. عنواني القديم.. عنوان أخي إلى أن وصلت إلى هنا.. ولكن لماذا لم تتصلي بي مباشرة لأراك؟؟

- بصراحة كنت أخشى أن تقول إنك لا تعرفني أو أنه ليس لديك وقت لتراني.. ولذا قمت بهذه المناورة.. لا تنس أنني خدمت في جيش الدفاع وأجيد المناورة..

قالت ذلك وهي تضحك..

- طبعاً.. هذا واضح ولكن الآن هل هناك مناورات أخرى.. أجئت فقط للزيارة أم هناك سبب آخر؟.. لا تنسي أيضاً أنني أجيد المناورة بحكم خدمتي في الجيش المصري وبحكم عملي الحالي..

- طبعا لا يمكن أن أنسى ذلك.. ولو لم تكن محاربا ومناوراً عظيماً لما أصبحت الآن في ذلك المنصب.

- ماذا في جعبة (صديقتي) "سارة"..؟

- هذه أجمل مجاملة سمعتها منك حتى الآن.. صديقتي سارة.. وأتمنى أن نتحدث من هذه المنطلق.. أعداء الأمس ولكن أصدقاء اليوم..

- موافق.. على شرط أن تكوني معي صريحة.. وإذا شككت في ذلك فسوف يكون هذا أول يوم وآخر يوم في صداقتنا

- موافقة يا "يحيى باشا"..

* * *

أثناء جلوسي بالمكتب وأثناء استعدادي لمغادرته للقاء ليالي وجدت الباب يفتح دون استئذان والرئيس أمامي بمفرده.. كانت مفاجأة لي وإن لم تكن الأولى ولن تكون الأخيرة.. نهضت من مكاني مرحبا وجلس هو على مقعده المفضل.. وكان يبدو أن هناك شيئاً يفكر فيه ويريد أن يطلعني عليه فظللت صامتاً حتى لا أقطع عليه حبل أفكاره..

- أتعتقد أن مصر سوف تستعيد صورتها السابقة بعد تلك الحادثة الشنيعة أم أننا سوف نحتاج إلى فترة طويلة..؟

أجبت وأنا أعلم أنه يشير إلى حادثة الأقصر التي راح ضحيتها الكثير من الأبرياء وخصوصاً من الأجانب:

- نستطيع يا فندم وإن كان هذا يحتاج منا إلى تكثيف الجهد في مجالات عديدة مثل الإعلام والخارجية والسياحة..

- هذا يعني مزيدا من العمل.. أو بمعنى أدق لا وقت للراحة..

- فعلاً مزيد من العمل دون راحة..

– أنا لا أقصد ألا ننام أو نمارس الرياضة، فنحن بحاجة إلى ذلك حتى نستعيد نشاطنا، ولكن يجب أن نقلل من الحفلات الغنائية التي أحضرها ويحضرها معي كل المسئولين، وكذلك الاحتفالات الوطنية باستثناء ثورة يوليو وعيد أكتوبر، فتلك الاحتفالات الأخرى يمكن أن يكون فيها وزير الدفاع أو حتى رئيس الأركان.. لا وقت للاحتفالات.. أريد تقريراً كاملاً من كل وزير، دون استثناء، عما يمكن أن يفعله والمدة الزمنية التي يحتاجها حتى نعيد صورة مصر كما كانت قبل هذه الحادثة.. وكذلك نقطع يد الإرهاب.. متى يمكن أن تكون هذه التقارير جاهزة حتى يمكن أن نناقشها نحن الاثنان مع رئيس الوزراء..؟

سكت قليلاً قبل أن أجيب:

– بعد أسبوع يا فندم..

– لا أسبوع كثير.. اليوم الاثنين.. سوف نجتمع نحن الثلاثة لمناقشة هذه التقارير يوم الجمعة بعد الصلاة مباشرة في منزلي.. نحن الثلاثة فقط على أن يكون كل الوزراء في مكاتبهم حتى يكونوا جاهزين للرد على أية استفسار..

– حاضر يا فندم.. علم وينفذ

كانت هذه الجملة تعني أن كل شيء سوف يتم كما يريد وأنني المسئول شخصياً عن ذلك وتذليل العقبات، وهو لا يقبل أعذارا فيما يتعلق بالعمل أبداً..

نهض من مكانه ومد يده مصافحاً وهو يقول:

– ميعادنا الجمعة، الغداء سوف يكون عندي ولكن طبعاً بعد المناقشة..

ooo

اتصلت بـ "ليالي" لأعلمها بأنني سوف أتأخر بعض الوقت لانشغالي بأمور طارئة بالعمل.. لم تتذمر ولم تسأل عن شيء.. قالت إنها سوف تشغل وقتها بالقراءة.. أخذت الأجندة الخاصة بالوزراء وقمت بالاتصال بهم جميعاً بالترتيب حتى لا أنسى أحداً منهم.. وكان التليفون المحمول الآن مع الجميع وهذا أصبح يسهل الوصول إلى كل المسئولين أينما كانوا.. كان أحدهم خارج البلاد ولم أصل إليه فاتصلت بمنزله وطلبت منهم أن يبلغوه بأنه يجب أن يتصل بهذا الرقم فوراً لأمر مهم، وأعطيتهم اسم ورقم تليفون مساعدي بعد أن أبلغته بذلك.. استغرق الأمر مني حوالي الساعة والنصف ثم نهضت بعد أن شعرت أنني أديت مهمتي على خير وجه ثم توجهت إلى فيلتي الجديدة خارج القاهرة..

عندما وصلت استجمعت أطراف شجاعتي وقلت لنفسي: اليوم يجب أن أعرف عنها كل شيء إذا أرادات الاستمرار معي.. من يدري فقد تكون جاسوسة دسها أحد علي.. إن منصبي لا يحتمل المخاطرة.. يجب أن أعلم وإلا فلن أراها ثانية..

فتحت الباب ولم أجد أحداً بانتظاري وإن كنت استطعت أن أشم رائحة طعام تأتي من ناحية المطبخ والذي كان ملحقاً بحجرة الاستقبال عند المدخل.. خرجت إلى الحديقة وكان محلقاً بها غرفة للبواب.. ما إن رآني حتى نهض مرحباً.. سألته عن أخباره وإن كان يريد أي شيء.. فأخبرني بأن كل شيء على ما يرام ولا ينقصه شيء أبداً وأن هناك سيارة تأتي كل أسبوع محملة بكل ما يلزمه من طعام وشراب.. سألته عن "الهانم" فقال إنها بانتظاري في غرفتها بالدور

الأول.. تركته قائلاً له إنه يستطيع أن ينام فلن نحتاج شيئا.. وعموما فإن الهانم موجودة لو احتجت إلى شيء.. بعد أن انصرفت عنه شعرت ببابه يغلق ورأيت ظلال نور غرفته يزول من على شجيرات الحديقة ودخلت وأنا أصعد السلالم قفزاً كما لو كنت أريد أن أبرهن لنفسي أولاً أنني ما زلت في العشرين من عمري، وأن ليالي ليست أصغر مني سناً..

فتحت الباب برفق حتى لا أزعجها لو كانت نائمة، ولكنها تنبهت لصوت الباب فنهضت من على كرسي صغير ملحق بمكتب وجهاز كمبيوتر، ويبدو أنها كانت منهمكة في القراءة..

- ماذا تفعلين؟..

- اقرأ إحدى روايات ديكنز..

- أليس لها اسماً..

قلت وأنا اقترب منها، فوجدت شمعة بنفسجية اللون ذات ضوء مناسب للقراءة.. ويبدو أنها تناسب لون القميص الواسع الذي ترتديه، ورغم مظهره الرجالي إلا أنه كان شفافاً يبدي الكثير من ملامح جسدها الذي كان يتراقص على ضوء الشمعة..

نظرت إلى الرواية وكانت النص الأصلي باللغة الإنجليزية وقلت لها:

- أليست هذه هي الرواية التي تتحدث عن الثورة الفرنسية والحياة بين لندن وباريس؟

نظرت إلي مستغربة وقالت:

– وهل قرأتها؟.. ألديك وقت لقراءة الروايات؟.. يبدو أنك كاتب ولكنك تخفي عني مهنتك..

– كاتب.. أهذا معقول.. هذه هي آخر مهنة يمكن أن أعمل بها.. إنني فقط أهوى القراءة إذا تسنى لي الوقت لذلك..

– إن هذا سوف يجعلنا نقترب من بعضنا أكثر.. قالت تلك الجملة وألقت برأسها على كتفي حتى بدأت أشعر بحرارة أنفاسها وهي تكاد تلهب عنقي..

– هل تعلمين نهاية قصة ديكنز؟..

– كلا إنني وصلت إلى ذلك الفصل المسمي "وعد" والذي وعد فيه البطل بأنه يمكن أن يضحي بكل شيء بما في ذلك حياته إبقاءً لحياة محبوبته، أو حتى حياة أفراد آخرين تحبهم..

– هل تعلمين بأنه سوف.. لا داعي لأن أخبرك بالنهاية حتى تستمتعين بقراءتها.. وإن كنت أود أن أعلم رأيك فيها عندما تنتهين منها..

رفعت رأسها من على كتفي وصوبت عيناها إلي قائلة بلهجة فيها الكثير من العجب:

– فعلاً؟.. أتريد رأيي عندما أنتهي منها..؟

– نعم وما الغرابة في ذلك؟

– صدقني لا أدري.. كل ما أدريه هو أنني بعد أن تركتني في تلك الليلة في اليخت.. ظللت مكاني ولم أغادره حتى مساء اليوم التالي.. استرجعت كل شيء

حدث بيننا منذ لحظة خروجك.. وشعرت بأنني أنتمي لذلك المكان، أو بمعنى أدق أنتمي لك.. لن أقول إنه حب من أول نظرة.. أو حتى من أول لمسة.. ولكنه شعور لم ينتابني من قبل.. قلت لنفسي يومها قد يكون إحساسا بالأمان شعرت به وأنا بين ذراعيك.. قد تكون معاملتك الرقيقة لي وأنك لم تشعرني للحظة واحدة أنني.. أو ذلك الإحساس بالأبوة الذي شعرت به لأول مرة في حياتي وأنا أبكي بين ذراعيك دون أن يستدعي الموقف ذلك، ولكني فجأة أحسست أنني لم أرَ أبي منذ كنت في الخامسة مع أنه ما زال حيا يرزق.. لا تسألني عن السبب الحقيقي لمشاعري نحوك.. ولكن هذا هو شعوري ولا أخجل من أن أعبر عنه بكل صراحة، كما لا أخجل أن أرتمي بين ذراعيك.. كابنة.. كفتاة تبعث في جسدك نشوة الحياة قبل أن تنطفئ فتحلق معها إلى أبعد من الأفق الذي تغرب خلفه الشمس..

– هذا كله تشعرين به نحوي.. ألا تجدين أن الأمر قد يكون.. نزوة تختفي عندما تلتقين "بفتى الأحلام"..؟

– قد يكون.. ولكني حتى هذه اللحظة هذه هي مشاعري نحوك ومعك أشعر بأنك.. أبي.. وأنت زوجي.. وأنت حبيبي.. وأنت عشيقي.. هل يمكن أن أطلب أكثر من ذلك..؟؟

– بصراحة.. لا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك أكثر من ذلك ولكني حتى أكون صريحاً معك قررت ألا أراك ثانية حتى أعلم عنك كل شيء.. فأنا لا أستطيع أن أجازف بما حققت في حياتي من أجل..

– من أجل امرأة أو فتاة.. أو..

– لا أقصد والله.. أنت تشعرين كيف أنظر إليك وترين كيف أعاملك.. فلا داعي لذلك الشعور وأنت معي.. أرجوك..

– نعم.. أشعر بذلك.. اعذرني إنه ذلك الضعف الأنثوي الذي يجعلني أشعر أحياناً بأني قد أمثل لك شيئاً لا أتمنى أن يكون موجوداً في علاقتنا.. وأنا لست على استعداد لأن أخسرك مهما كان الثمن الذي يمكن أن أدفعه في سبيل ذلك..

– يبدو لي أنك من أسرة ليست فقيرة أو معدمة..

– نعم إن أبي الذي رأيته آخر مرة وأنا في الخامسة كما تقول أمي قد هجرنا للعمل في إحدى البلاد العربية ثم إلى باريس حيث استقر وتزوج هناك، ولا أدري إن كان له أبناء آخرون أم لا، فقد انقطعت الصلة بينه وبين أمي منذ ذلك الحين.. ولم يرسل حتى نقوداً لتعليمي، وتولت أمي كل شيء حتى جعلتني ألتحق بإحدى الجامعات الخاصة لدراسة السياسة والاقتصاد..

– ولكن هذا لا يفسر كثيراً مما أراه..

– أفهم.. في ذلك المكان التقيت بوجوه كثيرة وزملاء من بلدان عديدة وبدأت أتعرف على أشكال أخرى من الحياة.. تتعدى الدراسة والسهرات البريئة..

– تقصدين السهرات الحمراء التي يتخللها ضباب المنوعات..

– طبعا تعلمت من بعض الصديقات كيف يمكن أن تقضي الفتاة السهرة

مع زميل لها –في البداية كان الموضوع قاصراً على الزملاء الأثرياء– دون أن تفقد عذريتها، فهذا هو المهم في مجتمعنا بكل أسف، في مقابل مبلغ من المال يساعد على شراء مستلزمات الحياة الحديثة وتجنب الشعور بالنقص.. إذا كانت السيارة قديمة فيمكن أن تشتري أخرى حديثة أو تسافر إلى تركيا مثلاً لشراء مستلزمات الصيف أو الشتاء أو حتى تقضي الصيف على شاطئ البحر وليس داخل جدران القاهرة الرطبة..

– ولكن ألم تشعري بشيء من تأنيب الضمير أو الإحساس بالذنب؟

– بالطبع شعرت وما زلت أشعر، ولكن التمتع بمظاهر الحياة الخادعة يساعدك على إرسال ضميرك إلى مخدعه من وقت لآخر..

– هل معني ذلك أنك ما زلت عذراء؟..

– نعم، وأستطيع أن أبرهن لك على ذلك بالشكل الذي يرضيك..

– لا أقصد ذلك.. ولكنه سؤال لم يكن له لزوم.. اعذريني..

– لا داعي للاعتذار.. إن هذا السؤال أسعدني أكثر مما جرحني.. إنه يعني لي أنك مهتم بي.. أكثر مما يعني إن كنت عذراء أم لا..

– وأمك.. ألم تلاحظ شيئا.. خروجك.. تغيبك عن المنزل؟..

– أمي.. لا تسألني عن شيء.. لقد قالت لي عندما دخلت الجامعة.. أنت الآن كبيرة ومسئولة عن تصرفاتك.. وعندما أسهر أو أتأخر أو حتى أبيت خارج المنزل.. أقول لها إني كنت مع أصدقائي.. وعموما أنا لا أبيت خارج المنزل إلا نادراً..

– لقد أراحني بقدر ما أزعجني كلامك عن نفسك.. وأنا لا أملك إلا أن أصدقك إلا أن تثبت الأيام لي عكس ذلك.. وفي تلك اللحظة لن تريني ثانية..

– وأنا موافقة.. معك أشعر بأنني أود أن أقول كل شيء.. معك أعري روحي قبل أن أعري جسدي ولا أشعر بالذنب.. معك أشعر بأنني ما زلت فتاة محترمة بصرف النظر عما يحدث بيننا.. لا أخجل من شيء.. وهذا شعور جديد بالنسبة لي ولهذا فإنني أشعر معك بما لم أشعر به مع أحد قبلك..

– وهذه هي المغامرة رقم كم بالنسبة لك؟

– قد لا تصدقني.. إنها الثانية في حياتي والأولى مع رجل لا أعرفه..

– لا أفهم ماذا تقصدين..

– الأولى كانت مع صديق.. كنت أشعر بأنه مختلف عن الآخرين.. كنت أتحدث معه كثيراً وشعرت في وقت ما بأنني أحبه، ولذا فقد سمحت له بأن يقترب مني ولكني أدركت بعد ذلك أنه لا يريد إلا جسدي فلم أره ثانية.. فقد أردت من يحبني أنا أولا قبل أن يعشق جسدي..

– والمرة الثانية.. مع رجل لا تعرفينه..

– هو لم يكن رجل بمعنى الكلمة.. شعرت معه وأنا بين ذراعيه –وكان ذلك طبعاً للمقابل المادي الذي عرضه علي– أنه كان يريد أن يثبت لنفسه أنه ما زال رجلاً مع أنه كان ما زال شابا.. ولكن لسبب لا أعلمه ولم أهتم به كان لديه إحساس بأنه ليس رجلاً كاملاً.. قال لي إنه لا يسعى للذة بقدر ما يسعى لإثبات رجولته.. لم أفهم كلامه إلا بعدما رأيت أنه لا يريد أن يتحسس جسدي أنا بقدر

ما كان مغرماً بتحسس جسده هو، وأنا لم أنا سوى المحفز له لفعل ذلك، حتى لم يجعلني أتخلي عن كل ملابسي..

- أنا رقم ثلاثة إذا..

- نعم.. صدق أو لا تصدق..

12

أثناء توجهي للقاء "سارة" دارت أسئلة كثيرة في رأسي.. إنها احتفظت باسمي لديها سواء مكتوبا أو في الذاكرة هذا صحيح.. ولكن هذا لا يعني أنها كانت تفكر بي أو تحلم بي كل هذا الوقت.. الآن ماذا تريد مني؟ هل تريد أن أرد لها هنا الجميل الذي فعلته معي يوماً ما عندما كانت لطيفة معي أثناء اصطحابها لي في معسكر أسري؟.. صحيح أن الحياة مليئة بأشياء غريبة تحدث لنا دون أن نفكر فيها قبل أن نجد أنفسنا ونحن نعيش الحدث وأصبحنا جزءاً منه.. كيف؟.. لا ندري تماما كيف حدث ذلك ولا داعي للتفكير في هذا السؤال حتى لا نرهق عقولنا بما لا ليس له إجابة.. أيا كان ما تريده سارة فيجب أن أكون حريصا أشد الحرص.. لقد أتاح لي عملي أن أتعامل مع اليهود ومع الكثير من المسئولين الإسرائيليين وأعرف الآن الكثير من وسائلهم وطرقهم في التفاوض وحيلهم حتى يصلوا إلى ما يريدونه، ولا أعتقد أن سارة سوف تختلف عنهم في شيء حتى لو كانت تعمل الآن مع جهاز المخابرات الإسرائيلي.. أنا الآن الذي سوف أحدد مكان اللقاء وزمانه، وهي في بلدي على كل الأحوال فلن تستطيع أن تناور معي كثيراً فاللعب يتم على ملعبي أنا وليس ملعبها هي..

جلست معي في إحدى مقاهي الإسكندرية المطلة على البحر في مكان حددته أنا، بحيث أصبحنا بعيداً عن معظم الجالسين ولا يرانا أحد سوى ذلك المحاسب الذي يتولى تحصيل النقود من الجرسون.. لم يكن في إمكانية أحد الداخلين أو الخارجين أن يرى وجهي دون أن أراه أنا أولاً.. إنه نوع من الاحتياط والذي قد يبدو مغالى فيه إلا أن توخي الحذر أفضل بكثير من الوقوع في الخطر.. ولأن اليوم كان من أواخر أيام شهر نوفمبر فلم يكن في المقهى سوى القليل من زبائنه التقليديين، أما زواره أيام الصيف فقد غادروه منذ شهرين على الأقل..

– هل تأتي إلى هذا المكان كثيراً..؟

– أبداً.. لم أجلس هنا منذ سنوات.. ولكنني عندما كنت آتي إلى الإسكندرية في مهام عمل وأود أن أختلي بنفسي بحيث يمكن أن أشاهد البحر ودون أن يزعجني أحد، فقد كان هذا هو مكاني المفضل..

– لقد أخذتني أمي إلى زيارة الكثير من الأماكن والأحياء التي كانت تتردد عليها عندما كانت تعيش هنا، وشعرت بأن لها الكثير من الذكريات بل وأحببت المدينة فعلاً وأتمنى أن آتي إليها كل عام إذا سمحت ظروف عملي بذلك..

– صحيح.. أنت تعرفين مهنتي وأنت ماذا تعملين الآن؟

– أنا ما زلت مترجمة بجيش الدفاع، وأقوم ببعض أعمال الترجمة الخاصة حتى أزيد من دخلي؛ فالحياة لدينا أصعب مما تتخيل.. لقد قمت بترجمة بعض أعمال الدكتور يوسف إدريس من العربية إلى العبرية.

- فعلاً؟.. ولماذا يوسف إدريس؟

- لقد استهواني أسلوبه القصصي وتعبيره عن أحلام وآلام أبطاله بشكل يجعلك تعيش معهم وتدرك معاناتهم حتى لا تملك إلا أن تتعاطف معهم حتى ولو كانوا خارجين عن القانون..

- بمناسبة القانون وقبل أن أعرف ماذا تريدين.. بالطبع أنت تعلمين أنني لا يمكن أن أفعل شيئاً خارج القانون.. قانون بلادي طبعا..

- هذا موضوع لا يخالجني فيه أدنى شك ولا يمكن أن أطلب منك ذلك، فأنا على علم بمدى حساسية منصبك..

- والآن ماذا تريدين فعلاً؟؟

- أنت تعلم أن مصادر الطاقة لدينا قليلة، فالبترول الذي كان موجودا في سيناء رجع إليكم كما تعلم ولا توجد لدينا أنهار حتى نولد منها طاقة كما هو لديكم.. ونحتاج دائماً إلى استيراد البترول والغاز الطبيعي..

- نعم أعلم ذلك ولكني لا أدري ما الذي يمكن أن أفعله حتى الآن كي أحل تلك المشكلة لكم، وإن كنت لا أرى أن هناك مشكلة في استيراد البترول والغاز..

- بالطبع يمكن أن نستورد البترول والغاز من عندكم فهذا يوفر علينا كثيراً من النفقات، وأنتم لديكم الكثير منه وتصدرون الغاز ولديكم احتياطي كبير منه في باطن الأرض..

- وهل المطلوب مني أن أتفاوض مع حكومتي في ذلك بدلاً من وزير الطاقة الإسرائيلي؟

- طبعاً لا.. ولكن هذا الموضوع شائك وصعب أن نطلبه بشكل رسمي، لأن فرصة رفضه أكبر بكثير من فرصة قبوله..

- يعني المفروض أن أسهل لك أو بمعنى أدق لكم فرص التفاوض بشكل غير رسمي قبل أن تطلبوا ذلك رسمياً..

- نعم.. هذا هو المطلوب.. وبالطبع سيظل الموضوع طي الكتمان.. أقصد بينك وبين المسئولين عندكم حتى يجيء الوقت المناسب ونطلب ذلك رسمياً..

- هذا أمر لم أفكر فيه مطلقاً.. لقد تصورت أنك سوف تطلبين خدمة شخصية لك أو لأمك، مثل شراء قطعة أرض بالإسكندرية أو حتى بالقاهرة تصبح مكانا لكم عندما تجيئون إلى مصر..

- هذا موضوع سهل ولا يصح أن أضيع وقتك في هذه المواضيع البسيطة، فأنا أعلم أن التزاماتك عديدة..

- وطلبك هذا لي يتم طبعاً بإذن من وزارة الدفاع وليس بصفة ودية..

- طبعاً.. لقد عرضت أنا الأمر أولاً على رئيسي فحدد لي ميعادا مع نائب وزير الدفاع بحضور مسئول من وزارة الكهرباء ووافقا على أن ألقاك أولاً بشكل ودي بعيد عن الرسميات، وطبعاً على ضوء ردك سوف تكون خطوتنا القادمة..

- ماذا لو قلت إنني لا أرغب في ذلك ولا أود حتى أن أتوسط فيه.. ماذا تفعلين..؟

- لا شيء.. سوف أبلغهم بذلك وهم الذين يحددون ماذا نفعل.. أنا لست سوى مترجمة أود أن أقدم خدمة لبلدي..

- وطبعاً لن تتصلي بي ثانية..

- لماذا؟.. هذا موضوع آخر.. عندما آتي إلى الإسكندرية سوف أحاول أن أتصل بك.. وإذا سمحت ظروفك نلتقي دون رسميات مثل الآن، وسوف نجد الكثير مما نتحدث فيه غير موضوع البترول والغاز..

نظرت إليها محاولاً أن أعرف مدى صدقها ولم أجد هناك مبرراً للكذب.. هي تخدم بلدها كما قالت وهذا شيء لا يعيبها في شيء، بل يجعل منها مواطنة جديرة بالاحترام.. ظللت فترة أحاول أن أجمع شتات أفكاري فقد كان الموضوع مفاجأة لي.. تعلمت من عملي ألا أعطي رأياً في موضوع مهم دون التفكير فيه أو عمل الدراسة المناسبة إذا كان يحتاج إلى دراسة.. وهذا موضوع كبير لا أستطيع أن أدلي فيه برأي هكذا وأنا جالس على المقهى ودون أن أبحثه مع أحد أصدقائي أو مساعدي أو حتى أعرضه على الرئيس.. فهذا موضوع يخص الأمن القومي لأنه يتعلق بمصادر الطاقة..

- عموما أريد وقتا للتفكير قبل أن أرد عليك.. لم أتوقع أن نتحدث في هذا كما قلت لك..

- سوف تغادر الإسكندرية فجراً إلى مرسيليا لنزور أقرباءنا في فرنسا يوم الجمعة القادم.. فإذا كان من الممكن أن نلتقي يوم الخميس حتى أراك قبل السفر أيا كان ردك..

- تماما.. سوف أتصل بك يوم الأربعاء لأحدد لكِ مكان وزمان اللقاء يوم الخميس، وأتمنى أن أجد لك رداً قبل ذلك اليوم..

- طبعاً لن نلتقي هنا في المرة القادمة كنوع من إجراءات الحذر والأمن من ناحيتك.. قالت تلك الجملة وهي تبتسم فتبينت أنها ما زالت تحتفظ بكثير من جمالها الخليط من ملامح الشرق الذي تمثله أمها، والغرب الذي يجسده أبوها..

- أنت تعلمين ذلك..

- طبعاً.. والآن ألا يمكن أن نمشي سوياً ولو قليلاً على الكورنيش.. أريد أن أستمتع بتلك النسمات الباردة قبل أن أذهب إلى حجرتي الدافئة بالفندق..

- طبعاً.. عموما في هذا الوقت ليلاً يوجد القليل ممن يسيرون على البحر ولا توجد لدي مشكلة في ذلك، فأنا أيضاً أريد أن أستمتع ببعض نسمات الهواء الباردة..

* * *

- ما زلت مستيقظاً؟..

- طبعاً أنت تعلم أني لا أنام قبل الفجر.. عموماً أنا في طريقي الآن إلى القاهرة من الإسكندرية وسوف أمرّ عليك بالمنزل إذا كانت ظروفك تسمح لي.. هناك موضوع أود أن أستشيرك فيه..

- ستجدني في انتظارك بالمنزل.. توصل بالسلامة..

لا أدري لماذا فكرت في صديقي "فتحي" حتى أطلعه على ذلك الأمر.. مع أني كنت أفكر في مساعدي العميد حافظ أولاً، حيث إن الموضوع يتعلق بموارد البلد فيجب أن يظل داخل مجال العمل ولا يطلع عليه أحد من الأصدقاء وخصوصا أنه ما زال فكرة تتطلب النقاش.. بصراحة لا أعلم لماذا اخترت فتحي؟.. هل لأنه

رجل أعمال وله اتصالات بذلك العالم المتوحش والذي بدأ يزداد توغلاً في حياتنا حتى أصبح لرجال الأعمال الكلمة الأولى في كثير من نواحي الحياة.. الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بطبيعة الحال؟؟ صحيح أن علاقتي بفتحي حتى هذه اللحظة لا تتعدى سوى الصداقة وجلسات المرح والفرفشة التي تتم في قصره وأحضرها كلما سنحت الظروف.. صحيح أنه عرض علي أكثر من مرة أن أدخل ذلك العالم ولو عن طريق غير مباشر، مثل موضوع صديقه الأمريكي الذي يود أن يستثمر أمواله في مصر وطلب مني أن أساعده في تسهيل تحطيم الروتين بما لا يتعارض مع القانون حتى لا يغير رأيه ويذهب بأمواله إلى بلد آخر وتضيع فرصة أخرى للاستثمار في البلد كما يقول دائماً.. لم أك أعلم بالطبع طبيعة نشاط فتحي وإن كنت أدركت أنه يعمل من الباطن كما يقولون مع بعض المستثمرين الأجانب، وأن معظم نشاطه يتلخص في عمليات التسهيل لهؤلاء الأجانب والاتصال بالجانب المصري وخصوصاً أجهزة الدولة المختلفة حتى يتم المشروع بسرعة بالشكل الذي يريده المستثمر.. بالطبع أعلم أنه له اتصالات في كثير من الدول بما في ذلك إسرائيل، وهو لا ينكر ذلك بل قاله أكثر من مرة في جلسات الأنس.. إذا كانت الحكومة تتعامل رسميا مع إسرائيل فلم لا يسمح لنا نحن كأفراد أن نتعامل معها؟.. بالطبع هو على حق.. كيف تعقد أجهزة الدولة الرسمية إجراءات التعامل مع المستثمرين اليهود إلا إذا لم تكن تتم عن طريق رسمي وبموافقة واضحة من أجهزة الأمن الرسمية؟ بالطبع كنت أدرك ذلك وأفهم أسباب هذه التعقيدات الأمنية بحكم عملي، أما شخصية فتحي التي عاشت كثيراً في الغرب

فلم تكن تستطيع أن تتقبل ذلك..

وصلت إلى قصره فوجدته بانتظاري ولم أشعر بأن هناك أحدا غيره.. صعدنا إلى الدور الأول حيث توجد حجرة مكتبه الرئيسية والتي كنت أدخلها لأول مرة، حيث تمت اللقاءات السابقة في حجرة مكتبه الصغيرة بالدور الأرضي.. هذه الحجرة كانت منسقة، ويبدو أن زوجته بنفسها قد أشرفت على اختيار أثاثها ووضع كل شيء في مكانه بما ذلك مجموعة الكتب الخاصة بالقوانين والأنشطة التجارية المختلفة..

- عصير برتقال كالعادة

- كلا.. أريد كأساً من النبيذ الأحمر لو كان متوفراً..

- معقول؟.. كأس نبيذ؟.. طبعاً متوفر.. لدي كل الأنواع هنا..

نظر إلي وهو يحاول أن يخفي دهشته وهو يصب لي كأس النبيذ ويصب لنفسه كأساً آخر.. قدم إلي الكأس قائلاً:

- نحن في حاجة دائمة إلى التغيير حتى نقتل الملل قبل أن يقتلنا.. أليس كذلك؟

- نعم.. أنت محق.. التغيير مطلوب حتى يتغير طعم الحياة..

- هل هذا التغيير منذ أيام اليخت؟

قال تلك الجملة وهو يخفض صوته كما لو كان يود ألا يقولها:

- نعم.. لقد استطاعت أن تغير في أشياء كثيرة.. باختصار مذاق الحياة أصبح مختلفا..

- طبعاً.. أفهم ذلك.. إنني أفعل ذلك أيضا.. من وقت لآخر أجد من تعطيني طعما مختلفاً للحياة..

- صحيح.. هذه الفتاة قد قامت بتغيير رقم تليفونها الخاص بها ولا أعتقد أنها سوف تستطيع أن ترى أحدا من ذلك العالم الذي كانت تنتمي إليه يوما ما..

- أفهم ماذا تعني.. وإن كنت أطلب منك كصديق الآن أن تكون حذراً إذا كنت تفكر في أن تجعلها تقترب كثيراً منك.. يجب أن تتأكد من أنها تستحق ذلك أولاً..

- شكراً.. أعتقد أن هذا ما سوف أعمله.. فطبيعة عملي لا تحتمل المجازفة..

- هذا ما أود أن أقوله.. والآن هل اتصلت بأصدقائك في الحكومة حتى تسهل لصديقنا استثمار أمواله في مصر؟..

- لصديقنا؟.. إنني لا أعرفه.. تقصد لصديقك..

- طالما أنك سوف تساعده في استثمار أمواله وتحل له عقد الروتين بما يتفق مع القانون فإنه يصبح صديقاً لك أيضاً وتطلب منه ما تشاء..

- تقصد ثمناً لما سوف أقوم به..

- طبعا هذا من حقك في مجال الأعمال.. إنك سوف تقتطع جزءاً من وقتك وسوف تتصل بمن هم أصدقاؤك طلبا لخدمة، وهم قد يطلبون خدمة مقابل ذلك.. إن ذلك له ثمن وهذا طبيعي وأنت تعلم أن في الصفقات التي تعقدها الحكومة

بشكل رسمي توجد أيضاً عمولات وإن كانت لا تسجل على ورق..

- نعم أعلم ذلك طبعاً وإن كنت شخصياً لا أكون موجوداً في عقد هذه الصفقات..

- بالتأكيد فمنصبك لا يسمح بذلك.. وإن كان من حقك أن تحصل على نصيبك.. المهم في عملنا هذا في مجال الأعمال لا يوجد شيء بدون مقابل.. وهذا عرف في كل مكان وفي بلاد العالم المختلفة ولا داعي لأن نغيره ولن نستطيع حتى لو أردنا..

- المهم.. أنا قادم لموضوع آخر.. أهم وأخطر من موضوع صديقك الأمريكي..

- خير.. كلي آذان صاغية..

* * *

استمع فتحي إلي ولم أبخل عليه بكل التفاصيل.. قال:

- نحن لو لم نمدهم بالطاقة فهناك غيرنا يفعل ذلك

- نعم.. هناك غيرنا طبعاً فهم يجدون دائماً حلاً لمثل تلك المسائل..

- ولكن لماذا لا نستفيد نحن من هذا.. إن هذه سوق مفتوحة.. نبيع منتجنا لجارنا ونحدد السعر الذي نريده أيضاً.. ولهم أن يقبلوا أو يرفضوا..

- تقصد أننا يمكن أن نبيع بسعر أكبر مما تبيع به الدول الأخرى؟..

- طبعاً نستفيد نحن من فارق السعر..

- وهل سيقبلون بسعر مرتفع؟..

- طالما أن هذا السعر يقل عما يشترون به من أماكن بعيدة فلماذا لا يقبلون.. هم أيضاً مستفيدون..

- عموما موضوع السعر سابق لأوانه.. نحن لا نناقش الأسعار الآن.. ولكن نناقش المبدأ.. هل يصح ذلك؟

- لا يوجد في عالم البيزنس "يصح" ولا يصح.. يوجد فقط مبدأ المنفعة والمصلحة مثلما هو في عالم السياسة.. صحيح أم لا؟

سكت قليلاً قبل أن أجيب:

- صحيح.. عالم السياسة مليء بأشياء كثيرة لا علاقة لها بالمبادئ..

- وعالم البيزنس مثله تماما.. إن البيزنس هو الابن الأكبر لعالم السياسة.. لا يفعل شيئاً دون موافقة الأب.. فإذا كان الأب ذا مبدأ فسوف يكون الابن كذلك..

- تقصد أنه لا مبادئ في السياسة وبالتالي في عالم البيزنس..

- أعتقد ذلك.. وقد تعلمت ذلك هناك عندهم.. فهم الأساتذة ونحن التلاميذ، وإن كنت أشعر بأننا تلاميذ نتقدم للخلف بدلاً من الأمام..

- في هذا.. أعتقد أنك محق.. نحن نتقدم للخلف..

- عموما.. هذا الموضوع كان مفاجأة لي ولذا أرجو منك ألا تطلع عليه أحدا الآن.. سوف أقوم بعمل دراسة جدوى له وسوف أطلعك عليها ثم تقرر ماذا تفعل..

- ولكن "سارة" تريد رداً يوم الخميس قبل سفرها إلى فرنسا..

– اطلب منها أن تنتظر فهذا ليس بالأمر الهين.. وهي لا تملك سوى الانتظار.. ويمكن في طريق عودتها من فرنسا أن تمر على الإسكندرية ثانية وتستخدم جواز سفرها الفرنسي وليس الإسرائيلي حتى لا تثير الشبهات وحينئذ تعطيها ردك..

– أعتقد أن هذا سوف يقنعها.. وطبعاً فإنك لن تذكر اسمي مطلقاً في عملية الدراسة هذه..

– طبعا لا.. إنني سأقوم بها مع أحد مكاتب المحاسبة الأمريكية لحسابي الخاص كما لو أنني الشخص الذي سوف أقوم بالمشروع..

– طبعا هذا سوف يتكلف الكثير..

– لا تقلق من التكلفة.. سوف أتكفل بها وعندما يتم المشروع سوف آخذها من عمولتك.. وإذا لم يتم سوف أخصمها من عمولتك أنت من مشروع صديقي الأمريكي.. في كلتا الحالتين لن ندفع شيئاً من مالنا الخاص.. هذه هي أولى قواعد البيزنس يا صديقي..

لم أكن أشعر بأنني أفعل شيئاً يمكن أن أعتبره مخالفاً للقانون أو حتى لضميري.. فأنا أقوم بعمل تسهيلات لرجال أعمال يقومون باستثمار أموالهم في البلد، سواء أكانوا مصريين أم أجانب وهذه التسهيلات لا تتعدى سوى تحطيم الروتين في استخراج الأوراق أو تسهيلات الجمارك أو تراخيص الأراضي.. كان كل شيء يتم في العلن.. لم يكن أحد يشك في البداية أنني أقوم بعمل ذلك كخدمة لصديق أو قريب أو جار.. ولكن مع ازدياد طلباتي بدأت أشعر أحياناً في ردود

بعض المسئولين أنهم يرون في تكرار طلباتي شيئاً غير عادي، ولم يجرؤ أحد منهم على رفض طلب لي لأني كنت أصر دائماً على أن يتم كل شيء بشكل قانوني.. بالطبع كنت في عملي هذا أعطي أناسا فرصا لا تتاح لغيرهم من الذين ليس لهم سند مثلي، وهذا هو الشيء الوحيد الذي كان يشعرني أحياناً في البداية بشيء من تأنيب الضمير.. ولكن مع مضي الوقت بدأت أتغاضى عن موضوع الضمير وأرى أن ذلك من حقي وأنني خدمت وما زلت أخدم البلاد بإخلاص، وهذا مقابل مادي لما أفعله، فطالما أن الجميع يحصل على نصيب في عالم البيزنس، فلم لا أحصل أنا أيضاً على نصيبي.. كانت الأموال التي أحصل عليها يتم تحويلها إلى حساب فتحي في أمريكا حيث إنه محتفظ بأعمال له هناك، ثم يقوم هو بتحويلها إلى حساب خاص بي في "دبي" وكان باسم ابنتي وزوجتي معاً.. لم يكن هناك شيء باسمي سوى أموالي بمصر ولم تكن قيمتها يمكن أن تضعني أبداً موضع شبهات إذا ما حدث وطبق قانون "من أين لك هذا؟"..

كنت أسافر مرة كل عام إلى دبي لأطمئن على أموالي هناك، وأحياناً أقوم باستثمار بعضها في مشاريع صغيرة بالتعاون مع رجال أعمال من البلد كانوا أيضاً من الذين يتعاملون مع فتحي.. لم أكن أفهم في ذلك العالم ولذا لم أغامر باستثمار تلك الأموال والتي بدأت تتضخم مع الوقت في مشاريع كبيرة.. كنت لا أستثمر أكثر من10٪ من أموالي، حتى لو حدثت خسائر فإن خسارتي تصبح دائماً محتملة..

لم يؤثر دخولي عالم البيزنس أو بمعنى أدق عالم العمولات على عملي على

الإطلاق.. بل على العكس جعلني أتعرف على الكثير من رجال الأعمال والذين كنت متحفظا دائماً في التعرف عليهم أو توثيق علاقتي بهم درءاً للشبهات.. أما الآن فأنا أعرفهم وأختلط بهم دون أن أخشى شيئاً، فأنا أقدم لهم تسهيلات ولكنها تتم دائماً عن طريق فتحي صديقي، فهم يعرفون أن فتحي يقوم بذلك عن طريقي وهو الذي يقبض الثمن ولكنهم لا يعرفون طبيعة علاقتي به ولا نظهر أنا وهو إطلاقاً في أماكن عامة.. كل لقاءاتنا تتم في قصره..

في إحدى المرات ونحن جالسون معاً كأصدقاء بمفردنا في حجرة مكتبه الخاصة بالدور الأول جاءه تليفون فاستأذن مني ليرد عليه.. خرج وتركني بمفردي في الغرفة.. حين عاد قال:

- التليفون كان من أمريكا.. دراسة الجدوى الخاصة بموضوع الغاز تمت والموضوع اقتصادي ومربح جداً للطرفين المصري والإسرائيلي..

- طبعاً أنا يهمني الطرف المصري..

- فاهم ويمكن الآن أن تخبر "سارة" عندما تأتي بأنك تستطيع أن تقنع المسئولين بذلك في مصر..

- ولكن ألا توجد أوراق تثبت ذلك..؟؟

- طبعا ستصل أوراق الدراسة في خلال يومين وسوف تكون تحت أمرك وسوف أعمل منها ترجمة باللغة العربية، بحيث تكون معك النسختين الإنجليزية المعتمدة من المكتب الأمريكي والعربية أيضاً..

- ولكن مشروع كهذا سوف يتكلف أموالا كثيرة لتنفيذه.. هل تعتقد أن

الجانب الإسرائيلي سوف يتحمل كل التكاليف؟؟

- لا أعتقد ذلك.. ولكن هذه ليست مشكلة..

- كيف؟؟

- عندما تقنع المسئولين بالمشروع سأكون وجدت الشركة التي سوف تقوم بالمشروع وتتحمل التكلفة نظير احتكارها لعملية التصدير لفترة زمنية محددة..

- وطبعاً سوف تكون شركة أمريكية أو إسرائيلية..

- أعتقد في مشروع كهذا يجب أن يكون هناك مستثمر مصري.. فهذا مشروع قومي..

- وهل تعتقد أن هناك من يقبل باستثمار أمواله في مشروع كهذا وقد يتهم بالخيانة وما شابه..

- لا تزعج نفسك.. لو أردت عشرة مستثمرين لهذا المشروع فسوف أجدهم في خلال 24 ساعة..

- معقول؟

- طبعاً في عالم البيزنس كل شيء معقول يا صديقي..

* * *

تركت فتحي وشعرت برغبتي في أن أرى ليالي.. شعرت بأن كل شيء حولي يسير عكس كل ما نشأت عليه وتربيت عليه طوال سنوات عمري.. وجدت نفسي رجلاً له عشيقة يتمنى أن يمضي كل أوقات فراغه معها.. وأصبحت زوجته تمثل له قيماً تربى عليها وإن لم تعد تجدي مع قيم عالم اليوم.. رجل أصبح

مصدر دخله الرئيسي هو العمولة –وليس مرتبه– والبدلات السخية التي يحصل عليها وذلك نظير ما يقدمه من تسهيلات يقوم بها وهو معتقد أنه يؤدي خدمة لبلده بتحطيمه للروتين حتى يريح ضميره ويشرّع لنفسه ما يحصل عليه من أموال.

اتصلت وأنا في طريقي بليالي وأرسلت إليها سيارة توصلها حتى "الفيلا".. وصلت وأنا أشعر أنني أحمل كل هموم الدنيا على رأسي.. طلبت من السائق أن ينصرف ويأتي في السابعة صباحا.. فتحت الباب لأجدهما جالسة في مكانها المعتاد وهي منهمكة في القراءة كالعادة.. ما إن شعرت بي حتى نهضت وأسرعت وارتمت بين ذراعي.. تركتها حتى هدأت مشاعرها ثم نظرت إليها قائلاً:

– أرى أنك لست على ما يرام.. هل أزعجتك بلقاء اليوم؟

مدت يدها ووضعتها على فمي قائلة:

– لا أريد أن أسمع منك ذلك ثانية.. أنت تزعجني!.. كيف تسمح لنفسك أن تقول ذلك وأنت مصدر بهجتي الوحيد في هذا العالم..

– ولكن يبدو..

– هذا موضوع قديم.. ولا أريد أن أزعجك به..

– موضوع؟؟ طالما يزعجك فهو يزعجني.. ماذا حدث.. هل اتصل بك أحد من الأصدقاء القدامى؟..

– لا.. رقمي الجديد لا يعرفه أحد من أصدقاء الماضي.. وإنما ماما أخبرتني بأن أبي في مصر ويريد أن يراني

- أبوك.. ألم تخبريني أنه بالخارج وأنك..؟

- نعم بالخارج ولم أره منذ 15 عاما وإذا رأيته لن أعرفه ولن يعرفني.. ولكنه يبدو أنه تذكر أن له ابنة الآن وقرر أن يراني..

- وماذا قالت ماما؟

- قالت إنه لا يستحق أن يكون أباً وإنني يجب أن أنساه تماما كما نسيني..

- وأنت؟

- أنا بصراحة شعرت بأنه يمكن أن أكون مثل باقي أصدقائي.. من حقي أن يكون لي أب وخصوصاً أنه على قيد الحياة، ولكني لا أشعر برغبة في أن أراه..

- تريدين أن تقولي إنك غير قادرة على اتخاذ قرار؟

- قلبي يقول نعم أريد أن أراه وألقي بنفسي بين ذراعيه، ولكن عقلي يرفض ذلك تماما..

- لا أدري ماذا أقول لك.. لا أريد أن أؤثر عليك فهذا قرارك أنتِ..

- نعم هو قراري وحدي ولكن لا أريد أن أفكر فيه الآن.. الآن أنا معك.. ومعك أريد أن أنسى كل شيء.. وأجعلك أيضاً تنسى كل شيء معي..

نهضت مسرعة إلى أعلى وهي تقول:

- خمس دقائق ويمكن أن تصعد إلي.. خمس دقائق فقط..

نظرت إلى الكتاب الذي كانت تقرؤه ورأيت أنه نفس الرواية وأنها أوشكت على الانتهاء منها.. نظرت إلى زجاجات الخمر الموضوعة بجوار الثلاجة

وانتقيت منها زجاجة لها شهرة عالمية، وفتحت الثلاجة وأخذت بعض مكعبات الثلج وصعدت على مهلي إلى أعلى ولكني وجدت باب الغرفة مغلقاً.. طرقته ببطء فسمعتها تقول:

- ادخل

فتحت الباب فوجدت الأنوار كلها مطفأة ولم يعد هناك من ضوء في الغرفة سوى شمعتين وضع كل منهما على أحد جانبي السرير الوحيد الموجود بها.. أما هي فكانت جالسة في وسط السرير وقد نثرت عليه بعض أوراق الورد الأحمر، فبدت في وسط المكان كغصن شجرة تتدلى منه زهور تحيط بها من على اليمين ومن على اليسار، وهي ترتدي قميصاً بنفس لون الورود التي تتناثر من حولها.. وقد عقدت شعرها بطوق وردي صغير.. بينما يتدلى من على كتفيها شال يغطي ما لم يستطع القميص أن يغطيه..

نظرت إليها وأنا أقف بجوارها، ويبدو أن وقفتي قد طالت فقالت:

- هل ستتركني جالسة وحدي وتظل واقفا هكذا في مكانك؟

- بصراحة.. إني أستمتع بك وأنت تجلسين هكذا كملكة متوجة وسط أقرانك من الزهور..

- أنا ملكة متوجة.. قرأت هذه الكلمة مراراً وكنت أود أن أسمعها تقال لي ولو مرة واحدة وبصدق.. وها أنت تقولها بقلبك قبل أن ينطق بها لسانك

- نعم.. أنت تعلمين أني صادق معك في كل شيء.. وأنا بطبعي وطبع نشأتي لا أعرف المجاملة.. فكل كلماتي لك تعبر فعلاً عن مشاعري تجاهك..

- أعلم ذلك.. وبدون أن تتكلم أرى كل شيء في عينيك..
- صحيح.. هل تفضحني عيناي وأنا معك..
- نعم.. تخبرني بكل شيء، وكذلك تجدُني ألبي رغباتك دون أن تنطق بكلمة واحدة
- صحيح أنت تفعلين ذلك، وكنت أتساءل دوماً كيف تعلمين كل ذلك.. والآن عرفت السر.. إنهما عيناي اللتان تفضحان مكنون قلبي..
- حتى لو أغلقتهما فأنا أعلم ما تريد وأنا هنا مليكة فؤادك وطوع أمر مولاي، فأنت ملكت قلبي وعقلي ولا يوجد مكان لشخص آخر سواك..
- كم أتمنى ألا يتغير رأيك يوما ما..
- لماذا؟
- لا أدري.. إن الأيام تتغير وتغيرنا معها سواء بإرادتنا أو أحياناً دون أن ندري نجد حبال التغيير قد التفت حولنا..
- بالطبع أنت أكثر مني خبرة في الحياة، ولكني أقول لك عما أشعر به الآن.. ولا داعي أن نفكر في الغد.. فهذا ليس ملكاً لنا.. نحن نمتلك اليوم فلنحياه وعندما يأتي الغد نفكر فيه على مهل..
- أحيانا أستغرب من فلسفتك في الحياة.. فأنت تتكلمين أحياناً كإنسان قد عركته الأيام وأصبح يرى ما لا يستطيع غيره أن يراه..
- لا أدري أنا أيضاً مصدر هذه الحكمة التي تنهال علي أحيانا.. ولكن يبدو أن نشأتي هي السبب في ذلك

عند هذه اللحظة كنت قد اقتربت منها وجلست على حافة السرير، فإذا بها تضم ساقيها وتأخذ رأسي وتريحها على حجرها وهي تنظر إلي، بينما تركت أصابعها تداعب ما تبقى من شعر رأسي

- هل تعلم أنني معك لا ينقضي شيء.. أشعر بأنني امتلكت العالم.. أشعر بأنك أبي الذي لم أره وأنك ابني الذي لم أنجبه.. وأنك زوجي الذي لم أقترن به.. وعشيقي الذي أشعر وأنا بين ذراعيه بأنني امرأة خلقت للحب.. تذوب فيه ويذوب فيها حتى أصبح أنا والعشق ضوءا ولهبا لا تعرف أين يبدأ الضوء أو أين ينتهي اللهب..

- إذا كنت أحقق لك كل ذلك، فهذا يجعلني أطمئن أنك لن تتركيني لتبحثي عن حلم قد يحققه لك شاب في مثل سنك..

- تقصد حلم الأمومة.. أنا لا أفكر في هذا الموضوع مطلقا.. وما أدراني عندما أصبح أماً أن ابني أو ابنتي لن يعانيا مثلما عانيت.. إلا إذا كانت تلك هي رغبتك، فأنا بالطبع لن أمانع..

- رغبتي في أن تكوني مع غيري وتصبحين أما لأبنائه!!

- لا طبعاً.. أقصد رغبتك في أن تراني أما وأنت تكون أبا لأبنائي.. هذا هو ما أقصده

- أعتقد أن هذا الموضوع لم يخطر لي على بال.. ومن المفروض أن نتزوج أولاً ثم نفكر في الأبناء

- هذا لا يهم بالنسبة لي.. إذا كنت تريدني أن أكون أما فيمكن أن أكون

أما لأبنائك وبدون زواج إذا كانت هذه هي رغبتك..

نظرت إليها فرأيت كل معاني الصدق والحب والعشق.. ألهذا الحد تحبني؟.. يمكن أن تكون أما لابن من غير زواج إذا كانت هذه هي رغبتي أنا، وتضرب بكل القيم والتقاليد وفوق ذلك الدين عرض الحائط.. إن هذا هو الجنون بعينه..

- أعرف فيما تفكر.. إنك تقول إنني مجنونة.. فهذا ليس تفكير عقلاء..

- فعلاً.. أنت مجنونة.. ولكن أجمل مجنونة على وجه الأرض.. وأنا أيضاً مجنون.. فهل تعتقدين أن رجلاً عاقلاً في مركزي وسني يترك كل شيء حتى يرتمي في أحضان حبيبته ولا يكون مجنونا.. لو عرفت زوجتي بهذا فسوف يصيبها الجنون.. ولو عرفت ابنتي بذلك فقد تلحق بأمها إلى مستشفى المجانين، ولو عرف رئيسي بذلك فسوف يلحقني بزوجتي وابنتي لنجتمع نحن الثلاثة معا، ومن يدري فقد نكون في نفس المستشفى..

- وهل نسيتني؟.. بالطبع عندما تهجرني فسوف تراني في انتظارك في عنبر "مجانين الغرام"..

- إذا كان الأمر كذلك فلن أحزن وسوف أذهب إلى هناك عن طيب خاطر طالما أنك سوف تكونين بانتظاري..

- طبعا سأكون معك.. في كل مكان طالما رغبت في ذلك.

- وهل لديك شك في أنني لا أريدك في كل مكان؟ لو كان الأمر بيدي لأخذتك من هنا إلى المطار إلى أي مكان تودين الإقامة فيه ولن أرغب في رؤية أي

إنسان آخر.. ومن وقت لآخر سوف أتركك يوما أو اثنين لكي أرى ابنتي وأعود إليك ثانية..

- أما أنا فلن أتركك لكي أرى أمي.. سوف أعلمها فقط بمكاني فهذا هو ما تستحقه، وعندما تفتقدني فلتأت هي لتراني.. هذا هو واجبي نحو أمي..

- وأنت عندما تشتاقين إليها.. ألن تذهبي لكي ترينها؟

- وهل تعتقد أنني يمكن أن أشتاق إلى أحد وأنت معي؟

رفعت رأسي من على صدرها وأخذتها بين ذراعي حتى شعرت بدقات قلبها وهو يكاد يقفز من بين ضلوعها فخففت قبضتي عليها وتركت يدي تتحسس وجهها حتى وصلت إلى تلك الضفيرة المعقودة أعلى رأسها، فنزعت الرباط الوردي الذي يحيط بها فإذا بشعرها يهبط فجأة ويحتل مكانه على كتفيها، ولم أدرِ إلا وهي تسحب الشال الذي كان يلف عنقها وتلقي به بعيداً في الهواء كأنما تتحرر من كل قيود الجسد، ولم أجد صعوبة بعد ذلك في أن أشعرها بأنها أجمل نساء الأرض..

13

قـرأت دراسـات الجـدوى الخاصـة بمـشروع توريـد الغـاز والـبترول إلى إسرائيل، وقارنت النص الإنجليزي بالنص العربي المترجم وتأكـدت مـن أنـه لا توجد اختلافات.. شعرت بجدوى المشروع من الناحية الاقتصادية لنا وإن كان بدا لي من الناحية السياسية أنه قد يفتح علينـا أبـواب المعارضـة علـى مـصراعيها.. بالطبع لم أهتم بموضوع المعارضة كثيراً فقد كانت لدينا وسائل عديدة لإسكاتها.. سواء اتبعنا سياسة العصا أو سياسة الجزرة.. أما سياسة العصا فقد كانـت أسـهل من سياسـة الجـزرة، وكـان المطلـوب فيهـا هـو تحـري الكتمـان والـسرية بقـدر الإمكان، تجنباً للمشاكل مع القضاء وجمعيات حقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني التي بدأت تلعب دوراً لا بأس به في المجتمع.. بـالطبع لم يكـن القـائمون بالأمر يهتمون كثيراً بموضوع حقوق الإنسان بقدر اهتمامهم بحقوق القائمين على الأمر والمنفذين لسياسة الحكومة..

ترددت كثيراً في اختيار المسئول الذي يمكن أعرض عليه تلك الدراسة حتى يمكن أن أقنع بها الآخرين.. كان من الصعب أن أتحدث مع الرئيس في ذلك.. كان من الممكن أن يغضب لقيامي بذلك الدور التفاوضي مـع "سـارة" دون علمـه.. ولـذا

اخترت واحداً من أصدقائه المقربين الذين لا يعملون بالسياسة وإنما البيزنس ويدعى "الباشا" لأعرض عليه الأمر..

قابلته في فندقه الفخم على شاطئ الخليج.. وكان مستعداً للقائي لأنني رأيت بعض الأوراق والكتب موضوعة على المنضدة بجوار ألوان الشراب المختلفة.. طبعاً رحب باختياري له لكي أعرض هذا المشروع عليه وفاجأني قائلاً:

- هل تدري أنني أدرس هذا الموضوع منذ فترة..؟

- طبعا لا.. ليس لدي علم بذلك..

- طبعا لا أحد يعلم ولا حتى الرئيس.. إنني أدرسه بصفة شبه سرية حتى أرى مدى إمكانية تنفيذه كرجل أعمال.

- إلى ماذا انتهيت؟

- إلى نفس النتيجة تقريباً.. إنه موضوع مربح لنا ولهم طبعاً ومن الممكن تنفيذه بتمويل أجنبي.. بل إنه لدي الممول الأجنبي

- وما الذي يمنعك من القيام بذلك؟؟

- انشغالي بأعمال أخرى بدأت فيها فعلا وكان ينبغي أن أنتهي منها أو معظمها قبل أن أبدأ في هذا العملن بالإضافة إلى ترددي في أن أتحدث مع الرئيس في ذلك.. ولكنني الآن سوف أتحدث معه في أقرب فرصة حتى لا يسطو أحد آخر على ذلك المشروع الضخم.

- إذاً يمكن أن تتحدث أنت مع "سارة".. وتبلغها بالنتيجة وأعتقد أن دوري قد انتهى الآن في هذا الموضوع.

- طبعا لا.. لم ينته.. إنني أريدك معي في هذا المشروع.

- معك.. ماذا أفعل.. ليس لدي خبرة بعالم البيزنس كما تعلم..

- لا أريد خبرتك بقدر ما أريد نفوذك وقدرتك على التحدث مع الآخرين وإقناعهم بجدوى المشروع.. سواء أكانوا هنا أم في الخارج..

- وهل بعد اقتناع الرئيس-إذا استطعت أن تفعل ذلك- يهمك إقناع أحد آخر؟..

- طبعا يهمني الرأي العام هنا.. فهذا مشروع ضخم ولا أريده أن يتعثر أثناء التنفيذ أو يتعطل بعد التنفيذ لأسباب سياسية أو نتيجة لضغوط شعبية..

- تريد أن تستغل نفوذي وشعبيتي لدى المسئولين في سبيل نجاح المشروع..

- نعم وسوف أُعلم الرئيس بأنك سوف تكون شريكي في المشروع بنسبة تحددها أنت..

- ولكن هذا مشروع ضخم.. ولا أعتقد أنني يمكن أن أساهم فيه.. فليس لدي المال الكافي لذلك..

- المال ليس مشكلة.. حدد النسبة التي تريد أن تساهم بها حتى لو دخلت بنسبة 1٪ وسوف تكون أرباحك كمساهم بنسبة 10٪ وهكذا.. وهذه النسبة الكبيرة من الربح سوف تكون مقابل ما تبذله من مجهود.. وأعتقد أن هذا الأمر يعتبر مربحاً لك..

- طبعا مربح.. ولكني أود بعضاً من الوقت للتفكير.

- لا "يحيى" باشا.. لا وقت للتفكير.. إنني سأعرض هذا الأمر على الرئيس وأخبره أنك معي وسوف يعضد هذا من موقفي وسوف أحصل على موافقته بإذن الله وأخبرك بذلك.

- لقد قررت ذلك يا "باشا".. وأنا لا أملك إلا أن أكون معك.

- في عالم البيزنس يتم اتخاذ القرارات بعد دراسة وترو ولكن إذا جاءت لحظة إعلان القرار فلا يجب تأجيلها..

- منكم نتعلم يا "باشا"..

- نحن جميعاً "تلاميذ" في هذا العالم المتوحش، وكلما دخلنا فيه أكثر زاد توحشه وشعرنا بأننا صغار مهما كبرنا..

° ° °

- تداعت الأحداث بسرعة بعد حادث 2001/9/11، وبدا الضغط الذي تمارسه الحكومات الغربية وعلى رأسها أمريكا يقل كثيراً علينا وعلى باقي حكومات العالم الثالث وخصوصاً حكومات العالم الإسلامي.. لقد انطلق "مارد الإرهاب الإسلامي" -كما يسمونه في الغرب- من مكمنه وأصبح هو الكابوس الذي يقلق مضاجع الحكومات الغربية.. فجأة اكتشف العالم الغربي أنه ليس في مأمن من أن تطوله يد الإرهاب في عقر داره.. في الشارع.. في المباني الضخمة.. في محطات المترو.. في كل مكان تقريباً.. ورغم أن أحداث ذلك اليوم ما زالت لغزا غامضاً، إلا أن التفسير الذي يقول بأن إرهابيين مسلمين هم من قاموا بالتخطيط لها وتنفيذها أصبح هو التفسير الأكثر قبولاً حتى بين الكثير من الحكومات

العربية والإسلامية..

بدأ الضغط علينا يقل.. إذا مارسوا بعضاً منه على سياستنا متهمين إيانا بعدم مراعاة حقوق الإنسان، وأننا نتراجع عن طريق الديمقراطية الذي كنا قد بدأنا نسير فيه.. قلنا لهم إن البديل الذي يمكن أن يأتي إلى الحكم هم الإسلاميون، وما أدراكم ما الإسلاميون.. فهل تريدوننا أن نعطي هذا الشعب غير المؤهل حتى الآن لمارسة الديمقراطية حقوقه، فإذا به يأتي بقادة إسلاميين يقودون المنطقة كلها إلى حرب شاملة ضد الغرب وكل أشكال النفوذ الغربي الذي تتمتعون به لدينا وبفضل نظامنا؟ وكان النظام الإيراني وكذلك نظام الحكم الإسلامي في قطاع غزة هما الأساس الذي نرتكز عليه كذريعة في اضطهادنا لكل أشكال الديمقراطية في البلاد.. كنا دائماً نقول إنهم إسلاميون أو إرهابيون أو جماعات أخرى تساندهم تسعى إلى إثارة القلاقل في البلاد، وإن الحكم البديل لنا سوف يكون حكومة إسلامية لأن الحركات الإسلامية لها نفوذ كبير في الشارع ونجحت في الوصول إلى الجماهير دون عناء عن طريق المساعدات الاجتماعية أو الطبية المختلفة التي كانت توفرها لقطاعات كبيرة من أفراد الشعب..

هنا طبعاً تراجع الضغط الأمريكي علينا وأصبحت لدينا حرية أكبر في قمع كل حركات التمرد أو العصيان بكل أشكاله.. أصبح لجهاز الشرطة اليد الطولى في الشارع المصري.. أصبح رجل الشرطة هو ظل الله في الأرض.. يكفي أن ترى الضابط وهو يسير في الشارع وأن تدرك أنهم يرضعونه الكبرياء في كلية الشرطة، ويطعمونه العظمة ويعلمونه أنه بدخوله هنا المكان أصبح إنساناً مميزاً ومن حقه

أن يفتخر بذلك.. وأن تلك الكلية وخريجيها هم حرس الوطن الحقيقيون وليس أفراد الجيش.. إن الجيش هو الحارس في حالة الحرب.. أما الآن فلا توجد حروب فالحارس هو رجل الشرطة، وعلى رأس رجال الشرطة طبعاً السادة الضباط أو السادة الباشاوات كما يطلق عليهم..

رجل الشرطة هو الآن الذي يدافع عن النظام، ويدافع عن المظلومين ويدافع عن الوطن بأسره، فلم لا تنتابه كل تلك المشاعر سواء أكانت مشاعر حقيقية أم زائفة.. إن الجميع يخاف منهم ويخشى سطوتهم، فلديهم سيف قانون الإرهاب وهو أقوى من المسدس الذي يضعه حول خصره.. بهذا القانون يمكن أن يلقي بأي فرد وبدون أية تهمة في السجن أو في المعتقل إذا لم يكن له ظهر يحميه طبعاً.. أصبحنا نقرأ في جرائد المعارضة عن حكايات تحدث في السجون، تبدو أغرب من الخيال.. أبطالها هم ضباط الشرطة وأفرادها وضحاياها هم أفراد الشعب الذي لا حول له ولا قوة.. رغم أنني أحد أفراد هذا النظام وأعلم أن ما يحدث في السجون هو حقيقي، وأن ما لا ينشر هو أفظع مما ينشر، إلا أنني أحياناً أتعاطف مع بعض القصص التي أقرؤها وأتمنى ألا يكون قد وقع عليها بصري..

ولأنني فرد من أفراد هذا النظام وأحد أجنحته القوية، بدأت أشعر أيضاً بنفوذي ومدى سطوتي وبأنني بمجرد مكالمة تليفونية يمكن أن أنجز صفقة بملايين الدولارات أو أعطل صفقة قد تضر بمصالح أحد أصدقائي أو أنجز مهمة لصديق بمجرد اتصالي بالوزير المختص.

° ° °

اتصلت بليالي أطلب منها أن أراها.. كانت هي ملاذي إذا ما شعرت بأن الحياة تضيق على جسدي، أو أن صدري يجد صعوبة في الحصول على ما يكفيه من رحيق الحياة.. لا أدري لو لم تكن الآن موجودة ماذا أفعل؟؟ أين أذهب؟ إلى شلة الأصدقاء.. وهل يمكن أن يغنيني عنها أصدقاء أو زوجة أو ابنة أو أي مخلوق مهما كانت درجة قربه أو إخلاصه لي؟.. إن هذه الفتاة تعطي دون مقابل.. لا تنتظر ولا تطلب شيئاً.. لا تفكر حتى في أن تتصل بي حتى لا تزعجني أثناء عملي أو راحتي أو حتى عندما أكون مع أسرتي.. إنها أحياناً تتحرق شوقا -كما تقول- إلى أن تحادثني ولكنها لا تفعل احتراماً لرغبتي أنا في ذلك.. أعطيتها رقم تليفوني وطلبت منها أن تحفظه ولا تكتبه وأنه لا يجب أن يعلم به أحد وفعلت ذلك.. أقصى ما يمكن أن تفعله هو أن ترسل لي رسالة قصيرة أفهم منها أنها تفتقدني أو أنها تتمنى أن تراني.. إنها تذكرني بزوجتي في أيامنا الأولى.. مع فارق العطاء.. زوجتي كانت تعطيني قبل الزواج ولكن بحساب، أما هذه الفتاة فتعطي دون حساب ودون مقابل.. إنها ترفض أن تتقاضى شيئاً مني.. تقول إنه يكفي ما أحضره لها من هدايا أما النقود فإنها لا تستطيع أن تمد يدها إلى نقودي حتى لو لم يكن معها فسوف تتصرف.. فتحت لها حساباً باسمها في أحد البنوك، وعندما أعطيتها دفتر الحساب وجدت ولأول مرة الدموع في عينيها.. قضيت الليلة كلها في محاولة تهدئتها، وأخيراً قبلت مني ذلك بشرط أنها لن تمس تلك الأموال إلا إذا تركتها وانصرفت عنها.. أما طوال وجودنا معاً فإنها لا تريد سواي ولا تريد شيئاً من أموالي أو ممتلكاتي..

في الطريق إلى مكان اللقاء حاولت أن أجد حلاً لتلك الورطة التي أسقطت نفسي فيها بإرادتي ولكن تفكيري لم يسعفني.. قلت لنفسي.. بعد لقائي بليالي سوف أجد حلاً دون شك..

فتحت الباب فوجدتها واقفة خلفه بانتظاري على غير العادة.. كانت مفاجأة لم أتوقعها ولكني سررت لها.. ألقت بنفسها بين ذراعي وأنا ما زلت مستنداً إلى ظهر الباب، تركتها حتى هدأت مشاعرها ثم أبعدتها برفق حتى أرى وجهها وأنا أحادثها..

– ليس هذا هو المكان الذي أراك فيه عندما آتي..

– أردت أن أراك منذ لحظة قدومك حتى انصرافك دون أن أضيع ثانية واحدة.. فأنا لا أراك كثيراً كما تعلم..

– هل هذه شكوى؟

– لا والله.. أقصد أنني لا أقضي معك وقتاً يكفي لأن تهدأ ما بي من نيران العشق والغرام، فأنت تأتي لكي تشعل جسدي وتخطف روحي إلى عالم آخر وتتركني قبل أن يهدأ ذلك الجسد أو ترجع تلك الروح إلي..

– رغم أننا نمضي الآن الليلة كلها معاً وليس مجرد أوقات قصيرة كما كان في السابق..

– حتى لو أمضيت العمر كله معك، فلن يهدأ لي جسد أو تستقر لي روح..

– ماذا أفعل كي أرضيك إذا؟

- لا شيء.. لا تفعل أكثر مما تفعله.. أنت تعطيني كل ما تستطيع وأكثر مما أستحق.. أما إرضائي فهذا شيء يتعلق بي.. فالعاشق لا يرضى حتى لو اختلطت الأجساد وتعانقت الأرواح يظل دائماً ظمآن..

- أنت الآن شاعرة..

- نعم.. لقد بدأت أكتب الشعر.. وكتبت فيك قصيدة سوف أقرؤها لك وأنت بين ذراعي..

- قصيدة في أنا.. هذا شيء لم يدر أبداً بذهني..

- معي سوف تكون هناك دائماً ألوان جديدة من الحياة وأشكال جديدة للعشق وكلمات لم تسمعها ولن تسمعها من أحد سواي..

- نعم أعلم ذلك..

أبعدتها برفق عني حتى أتمكن من استرداد أنفاسي بعد ذلك الاستقبال الدافئ.. تركتني أنهي طقوس الاستعداد حتى أكون ملكاً لها.. تفعل بي تشاء..

نظرت إلي ونحن ما زلنا جالسين وقالت:

- هناك ما يشغل بالك.. لا أريد أن أعرف ما لا تود أن تقوله.. ولكني أريدك أن تزيح عن صدرك ما يثقله.. فأنت هنا معي.. يجب أن تطير معي في عالمي.. عالمي الذي صنعته لك.. لك أنت.. فلا يجب أن يشاركني فيه أحد آخر سواك ولا حتى مجرد أخرى قد تمنعك عن التحليق معي..

- لا أدري كيف عرفت ذلك.. ولكن هناك ما يشغل بالي في العمل.. ليس إلا..

- إذاً أريدك أولاً أن تنظري إلى عيني.. لا تلمسني.. انظر فقط إلى عيني واتركني أنظر إلى عينيك، وسوف أغرق تلك الأثقال التي في صدرك في بحور عيني فتصبح مثلي طائراً يستطيع أن يطير في كل أرجاء مملكة الحب دون أن يعيقه شيء..

- ولكنك تعلمين أنني لو بدأت بالنظر لعينيك فسوف أقضي وقتي كله أنظر إليهما ولن أستطيع أن أستمتع بشيء آخر منك..

- انظر فقط إلى عيني.. واترك الباقي لي.. أريدك أن تسبح فيهما وتغرق بكل تلك الأفكار وقبل أن تغرق أنت سوف تجد ذراعي ممدوتين كطوق نجاة..

- وإذا فشلت في التعلق بهما..

- سوف أصنع لك من جفني سجادة تفترشها وتأتي بك إلى بر الأمان..

- مثل بساط الريح الذي كنا نراه في الأفلام.

- نعم ولكن هذا سوف يكون بساط الماء.. ألم أقل لك بأنك معي سوف ترى ما لم يطرأ على ذهنك من قبل..

- أعلم ذلك.. معك أرى أننا نعيش في عالم.. صنعناه نحن.. أو بمعنى أدق من صنعك أنت وأنا لست سوى من يضع اللمسات الأخيرة لما صنعت يداك..

- والآن ألا تريد أن تسمع القصيدة التي كتبتها فيك..

- طبعاً أريد.. ولكن ألا يمكن أن أشكرك عليها أولاً..؟

- طبعاً.. يمكن أن تشكرني عليها الآن قبل أن أقرأها، وتشكرني عليها أيضاً مرة أخرى بعد قراءتها إذا أعجبتك طبعاً..

- وإذا لم تعجبني ألا أستطيع أن أعبر عن شكري لك..
- طبعاً تستطيع أن تعبر عن شكرك دائماً.. ألا ترى أنني أتحرق شوقاً لذلك؟

استطعت أن أدبر لـ"ليالي" وأمها مكاناً آمنا للعيش في "لندن"، وأن أجد وظيفة أيضاً لهما حتى لا يشعرا بأنهما يعيشان على أموالي.. وكنت كلما سنحت الفرصة أذهب إلى هناك وألتقي "بفتاتي" في مكان آخر خاص بي.. كان لنا وحدنا، وأقنعتها بفكرة الزواج وأن ذلك من الأفضل لها قبل أن يكون من الأفضل لي، وقد وافقت فقط حتى ترضيني دون أن تطمع في زواج أو ميراث، وإنما كان كل ما تريده أن تكون معي في مصر أو خارجها.. في الليل أو النهار هذه أشياء لم تهتم بها أبداً.. كل ما يهمها هو أنا وإسعادي.. وهي تستمد سعادتها من سعادتي..

• • •

كانت الأحداث تتلاحق بسرعة على الساحة السياسية.. وكان هناك نوع من الغضب يتزايد مع الأيام، وأصبحت أخبار الإضرابات والوقفات الاحتجاجية سمة يومية من أحداث الحياة وخصوصاً في القاهرة والمدن الكبرى، وأصبح الفساد هو حديث الناس اليومي، وبدا أن البلاد أصبحت في حالة مخاض وفي انتظار مولود جديد يمكن أن يقيها من عثرتها قبل أن تأتي النيران على الأخضر قبل اليابس..

14

بينما أنا جالس مع ليالي في شرفة منزلنا بأحد أحياء لندن الهادئة، إذا بجرس تليفون المنزل يدق.. لم يكن هذا الرقم موجودا مع أحد سوى سفيرنا في لندن.. نهضت من مكاني وسمعته يقول على الطرف الآخر:

- يؤسفني أن أقول إن الرئيس مريض..
- وهل هناك توقعات وصلت إليك..؟
- كلا.. لم يصل شيء بصفة رسمية..
- شكراً يا سيادة السفير.. هل يمكن أن تجد لي مكاناً على أول رحلة..
- لقد تم حجز المكان فعلاً لك في رحلة الغد.. لقد توقعت ذلك..
- شكراً مرة أخرى يا سيادة السفير.. سأراك قريباً عندما أعود..

رجعت إلى ليالي وكانت ما زالت في مكانها تطل ببصرها على أشجار المنتزه القريب من المنزل، والتي كانت تحجب عنا المباني التي في خلفها وكانت تمثل لنا منظرا طبيعياً ينعش الروح وينسينا صخب الحياة في مدينة مثل لندن..

جلست صامتا فترة وأنا أفكر فيما حدث، واحترمت هي ذلك كالعادة.. وإن مدت يدها وشدت بقبضتها الرقيقة على يدي التي صقلتها حرارة الشمس

وخشونة الحياة العسكرية..

– الرئيس مريض.. سوف أسافر غداً.. يجب أن أتواجد في مصر..

نظرت إلي ولم تقل شيئاً وإن كانت عيناها قد باحت بما هو في قلبها.. كانت تريدني أن أبقى.. ولكنها لم تستطع أن تقول شيئاً.. كل ما فعلته هو أنها شددت قبضتها على يدي كأنما كانت تعتصر رحيق الحياة من بين أناملي فيمدها بما تحتاجه من لظى الحب حتى تبقى على قيد الحياة..

في الصباح نهضت مبكراً حتى لا أوقظها.. ولكنها كانت مستيقظة فعلاً بل وأعدت طعاما خفيفاً وقالت على غير العادة:

– ألا يمكن أن آتي معك إلى المطار؟

– المطار؟ لماذا؟

– حتى أبقى معك أطول فترة ممكنة..

– اطمئني لن أغيب كثيراً.. سوف أطمئن أن العمل على ما يرام، وقد أعود إليك خلال أسبوع على أقصى تقدير..

وعندما أسقط في يدها سارت معي حتى باب المصعد وانتظرت حتى أتي وعندما فتحت الباب وبعد أن قبلتها مودعا، إذا بها تمسك بي وتحيطني بذراعيها كما لو كانت لا تريدني أن أسافر، أو كما لو كانت تعلم بأنها لن تراني ثانية.. هل هو شعور المرأة الذي يجعلها تدرك كثيراً مما لا ندركه نحن معشر الرجال؟.. أفلت منها بلطف وأنا أقول: أراك قريباً إن شاء الله.

° ° °

لم ألحظ شيئاً غريباً في مطار القاهرة.. كل شيء كما تركته منذ أيام.. توجهت مباشرة إلى منزلي.. وجدت زوجتي وابنتي بانتظاري.. رحبتا بي كثيراً وإن بدا على وجهيهما الكثير من علامات الاستفهام.. أخبرتهما بأنني سوف أحيطهما علما بما يسمح به الموقف فور علمي بذلك.. لم أمكث طويلاً بالمنزل ثم توجهت إلى القصر الجمهوري وكان كل شيء على ما هو عليه.. ومكتبي أيضاً كما هو، ووجدت مساعدي في مكتبه ما إن رآني حتى نهض مبتسما:

- أهلاً يا فندم.. حمدا لله على السلامة..

- أهلاً يا حافظ.. إيه الأخبار؟

- ليس أكثر مما تعلم.. الرئيس يمارس عمله كالمعتاد..

- لقد عرفت أن الرئيس في منزله الآن وسوف أمر لزيارته.. هل هناك شيء يجب أن أعرفه قبل أن أمر عليه..

- لا يوجد شيء ذو أهمية..

شكرته وانصرفت مسرعاً إلى منزل الرئيس.. وصلت إلى المنزل وتم الترحيب بي بالشكل المعتاد، وأثناء انتظاري حتى يُسمح لي بدخول مكتب الرئيس، مر الابن علي ويبدو أنه لم يكن يعلم بوجودي، فلما رآني أقبل نحوى مرحبا:

- لقد سمعت أنك كنت في لندن..

- نعم وعدت اليوم.. وأرجو أن يكون سيادة الرئيس على ما يرام..

- لا تقلق.. إنه بخير وصحة جيدة.. فقط يحتاج لبعض الراحة.

- طبعاً من حقه أن يستريح..

عند هذه اللحظة سمعت صوت الرئيس وهو يقول:

- اطمئن يا "يحيى".. أنا بخير والحمد لله، ولكني أريد أن أستريح فقط..

- متعك الله بالصحة يا فندم..

استدار مغادرا، فاستأذنت في الانصراف.

• • •

الأحداث كان متوقعا لها.. شائعات تتردد عن صحة الرئيس، وصحف الحكومة ووسائل الإعلام تشجع فكرة الوريث حتى يكتمل ما بدأه الأب على يد الابن.. كما أصبح مبدأ "من تعرفه أفضل ممن لا تعرفه"، والمقصود بذلك بأن ابن الرئيس هو شخصية معروفة، فهو بالطبع أفضل من ذلك المرشح الآخر الذي لا نعرفه.. بالطبع كنت مشغولاً وجميع أفراد المكتب في تحمل كل ألوان الدعاية لاستقرار الأمور، والتأكيد على أن صحة الرئيس بخير، وما يحدث هو أمر طبيعي، وفي مرة نادرة أصدرنا بيانات منتظمة في تلك الفترة عن أخبار علاج الرئيس، داخل القطر و خارج البلاد.. بالطبع كانت هناك أشكال للمعارضة.. وبعض المظاهرات التي تندد بمبدأ التوريث أصلاً، وقد سمح للكثير منها أن تعبر عن رأيها سواء كان في الشارع –ولكن طبعاً بشكل محدود– أو عن طريق صحف المعارضة والقنوات الفضائية الخاصة.. وكان ذاك من مبدأ "الشيء لزوم الشيء" كما يقول الإعلان المشهور..

• • •

حاولت أن أقلل من حجم ممتلكاتي في مصر بقدر الإمكان.. أبقيت على

المزرعة وكذلك القصر الذي نعيش فيه واستراحة واحدة بالساحل الشمالي.. طلبت من أخي أن يتصرف في باقي الأملاك وأعطيته توكيلاً بذلك فوقتي قد لا يسمح لي بالقيام بعمليات بيع وتحصيل أموال وخلافه، كما أن اسمي يسهل له عمل كل شيء سواء أكان بالتليفون أم وهو جالس يحتسي القهوة مع الموظف المختص.. أما أموالي السائلة في مصر فلم تك تتعدى الخمسين مليونا، ومع ذلك أبقيت على عشرة ملايين منها وتم تحويل الباقي إلى بنوك الخليج..

قررت أن أقضي بعض الوقت مع أسرتي الصغيرة.. جلسنا في حديقة القصر قبل الغروب بقليل ونحن نتحدث في كل أمور الحياة الخاصة بنا، وإذا بخيط الحديث يمتد طبيعيا إلى ما يحدث في البلاد وعن الرئيس..

– يجب أن أقول لكما إني حتى هذه اللحظة من رجال الرئيس المقربين..

نظرت زوجتي إلي وهي تودع قرص الشمس ساعة المغيب قائلة:

– ماذا تعني بـ "حتى هذه اللحظة".. هل هناك احتمال أن يتغير موقعك أو أن تترك الخدمة مثلاً..؟

– تعلمين أنني أتوق إلى ترك الخدمة منذ فترة، فأنا الآن على مشارف السبعين ومن حقي أن أستريح ومن حقكما أن أقضي وقتا أطول معكما.

– نحن نشعر دائماً بوجودك معنا يا دادي حتى وأنت غائب.. في كل مكان نذهب إليه ويعرفون حقيقة شخصيتنا نلقى أفضل معاملة وأحسن ترحيب..

– شكرا يا ابنتي.. ولكني أفكر دائماً في الغد وخصوصا من أجلك وأجل والدتك التي ضحت بكل شيء من أجلنا.

- نعم يا دادي.. إن أمي تستحق تمثالا من الذهب.

- إنها تستحق ما هو أكثر من ذلك، والله وحده هو الذي يستطيع أن يكافئها على كل ما ضحت به.

- لم أفعل سوى الواجب نحو أسرتي، مثلما فعلت أنت، بل أقل منك بكثير..

- لا داعي للتواضع يا أم "حنان".. إنني أعترف أنني فعلت كل ما أستطيع لكما ولكنني أقر الآن أمامكما وأمام الله بأنك فعلت وأعطيت أكثر..

- ما أسعدني بأن لدي أما وأبا مثلكما.. إنني فعلا من المحظوظين.

- ولكن الآن.. أريد أن أسألكما سؤالا مهما يجب أن أعرف جوابه الآن.. هل تودان أن تسافرا إلى الخارج وتظلا هناك.. أم تودان أن تظلا هنا مهما حدث..؟

قالت زوجتي:

- ماذا تقصد؟.. نسافر للخارج؟.. ولماذا؟..

- أقصد أن في الحرب والحب والسياسة كل شيء جائز.. من يدري، فقد يستغني عني الرئيس.

- وما المشكلة يا دادي؟.. سوف نظل معا ثم نقرر أين نذهب.

- أقصد قد يأتي رجال جدد، يقومون بمحاسبة بعض المسئولين الكبار على ما لديهم من ممتلكات وأموال، حتى يشعروا الرئيس بأنهم مخلصون له.

- وما الضرر في ذلك.. ألم تكسب ما لدينا من عملك؟

- طبعا كسبت كل ما لدينا من عملي طوال هذه السنوات، سواء كان مع الرؤساء السابقين أو في مجال الأعمال الخاصة.

- الأعمال الخاصة.. ماذا تقصد يا دادي؟.. هل أنت رجل أعمال أيضاً؟

- لست رجل أعمال بمعنى الكلمة، ولكنني أقوم بتسهيل بعض الإجراءات للمستثمرين المصريين والأجانب نظير نسبة من الأرباح، وهذا عمل مشروع في كل مكان..

قالت زوجتي:

- تقصد نظير عمولة متفق عليها؟..

- نعم.. عمولة.. وهذا أيضاً عرف يتم في مصر وجميع بلاد العالم.. لا شيء يتم بدون عمولات وهذا جزء من عمل رجال الأعمال..

- أعلم ذلك يا أبي.. ولكن ما الضرر في ذلك طالما أنك كسبت ذلك من عمولات معترف بها..

- العمولات يا ابنتي لا يعترف بها ولا تكتب على الورق في معظم الأحوال.. كما أن بعض الأفراد في بعض المناصب لا يحق لهم قانونا أن يحصلوا على عمولات.. وإن كان الجميع يفعل ذلك.

قالت زوجتي:

- يعني ما لديك من أموال لا تستطيع أن تثبت مصدرها إذا سئلت مثلا.. "من أين لك هذا؟"

- نعم.. هذا هو ما أردت أن أقوله.. لا أستطيع أن أثبت مصدرها.. وإذا

استطعت فإنه لا يحق لي أن أتحدث في ذلك وإلا فإنني يمكن أن أحاسب بأنني قد استغللت منصبي في تحقيق ربح شخصي.

- ولكن أنت تقول إن الجميع يفعل ذلك..

- طبعاً.. وأنا متأكد من ذلك.

- يعني هل يمكن لرجال الرئيس الجدد أن يجمعوا كل الكبار مثلك ويحققوا معهم؟ ألا ترى أن ذلك قد يفتح أبوابا لا يجب فتحها؟

- لا يمكن أن يجمعوا الكل طبعا.. ولكن يمكن أن يختاروا مجموعة منهم.. عشرين أو ثلاثين أو حتى مائة يقدمونهم للمحاكمة، فتصبح لهم شعبية وسط الجماهير، وأعتقد أنهم في حاجة إلى ذلك.

- هل لديك مخاوف حقيقية؟.. قالت زوجتي.

- أنا ليست لدي مخاوف حقيقية.. إن الرئيس استبقاني بعد انصراف الجميع وتحدث معي في بعض الأمور المهمة.

هنا نهضت ابنتي وعانقتني قائلة:

- لا تخش من شيء.. نحن هنا معك دائماً.. على الحلوة والمرة كما يقول المثل.

* * *

مضى أسبوع كامل لم يصلني أي اتصال من الرئيس.. كنت مع ذلك أداوم على الذهاب إلى مكتبي الملحق بالقصر الجمهوري وأقوم بعملي المعتاد من تجهيز أوراق وملفات كانت تطلب مني بالتليفون عن طريق مكتب الرئيس الملحق

بالقصر، والذي اتخذه مقرا لإقامته ولإدارة شئون الرئاسة.. كانت التعليمات أحياناً تأتي مع أحد الضباط من مكتبه عندما يأتي إلي ويطلب ملفا معينا أو أوراقا خاصة بأحد المسئولين، ويظل جالسا عندي إلى أن أجهز له ما يريد من أوراق فيأخذها وينصرف بعد أن يوقع على ما يثبت أنه استلم تلك الأوراق..

كنت أمارس حياتي الروتينية وإن كان عملي ظل على ما هو، إلا أنني كنت أود أن أقرأ المستقبل لأعرف ماذا سيحدث.. هل سأظل بمكاني أو أنهي مهمتي؟؟.. وأين سأعيش؟.. في مصر أم في الخارج؟.. كانت هناك أمور كثيرة غير واضحة في ذهني وكنت أود أن أستجليها في أسرع وقت فلم يبق الكثير في قطار العمر.. كنت أفتقد ليالي طبعاً، فهي الآن في الخارج.. وإن كنت أتصل بها يوميا من المكتب وأطمئن عليها وأجعلها أيضاً تطمئن علي.. وكانت مكالمتي هذه هي بمثابة رحيق الحياة بالنسبة لها.. لا أدري كيف كانت ستكون حياتي بدونها.. هي الآن الشمعة التي يمكن أن تضيء ما تبقى من أيام حياتي.. فزوجتي آثرت حياة الاعتكاف والتدين، وأصبحت كل حياتها صلاة وتلاوة القرآن.. وابنتي مشغولة بأصدقائها ودراستها، وأنا لم يبق لي سوى ليالي..

في أحد الأيام وأثناء محادثتي لها سمعت طرقا على الباب فأنهيت المكالمة على وعد أن أتصل بها فيما بعد.. كنت قد نبهت على ضابط الحراسة ألا يدخل علي أحد دون استئذان.. رفعت صوتي وأنا جالس ليدخل من بالباب، ففتح الباب ودخل ضابطان لا أعرفهما.. بدا من هيئتهما، أن أحدهما من الحرس الجمهوري والآخر من الشرطة، وقد قال أكبرهما رتبة وفي منتهي الاحترام:

– سيادتك مطلوب تشرف معنا.

– أشرف معكم.. أين؟

– إلى مكان أمر به سيادة الرئيس..

– سيادة الرئيس؟ ولِمَ لم يخبرني أحد تليفونيا وكنت سأذهب إليه بنفسي؟..

– أنا لا أعلم شيئاً سيادتك.. تعلم أن الضابط ينفذ الأوامر..

نهضت من على مكتبي وتركت كل متعلقاتي.. أخذت فقط تليفوني والنظارة الشمسية ورافقتهم في إحدى سيارات رئاسة الجمهورية، وانطلقت بنا السيارة إلى طريق مصر الإسكندرية الصحراوي.

قلت لنفسي: هل الرئيس في الإسكندرية ويريدنا هناك؟ ولكن طريقة الاستدعاء الغريبة هذه لا تبشر بالخير.

أخذت أراقب الطريق من زجاج السيارة، وأنا أنظر إلى الصحراء التي تقطعها المزارع الخضراء في كثير من الأحيان.. ومررت على مزرعتي في الطريق وقلت لنفسي: هل هذه هي رحلة النهاية وقد جاءت بأسرع مما تمنيت؟

وإذا بالسيارة تبطئ من سرعتها ثم تتجه يمنيا في شارع مرصوف.. شارع يؤدي إلى آخر مكان كنت أتصور أن أذهب إليه..

معتقل (وادي النطرون).

° ° °





القصر

أحمد موسى

رواية

عندما وصلت إلى سيادته، وجدته جالسًا يجري بعض المكالمات التليفونية.. ومن هيئته أدركت أنه قد علم بالأمر.. جلست حيث أشار إلي، حتى انتهى من حديثه مع وزير الدفاع.. وكعادته في المواقف الحرجة، كان يجلس صامتًا بعض الوقت ليستجمع أفكاره، ولا يود أن يقاطعه أحد، إلى أن كسر صمته قائلًا:

- لقد جئت في الوقت المناسب.. أعتقد أن وزير الداخلية لم يسطع أن يصل إليَ، وهذا أمر يجب تفاده في المرات القادمة، وعليك ترتيب ذلك نظرًا لعامل الوقت في المواقف الحساسة.. وهو أحسن صنعًا عندما أبلغ وزير الدفاع وأبلغك بذلك.. الآن أود أن تنزل بنفسك، وخذ معك من الحراسة ما تشاء، وتذهب إلى حيث يوجد ذلك الشغب، وتعود إليَ بصورة واقعية عما يحدث بالضبط..

